

ماذا يخسر العالم

بأن يخطأ المسلمون

تأليف العلامة
أبو الحسن الندوي



مكتبة الأيمان
المصروف - أمام جامعة الأزهر

سلطان

ماذا يخسر العالم

بأنحطاط المسلمين

(مؤلف ١٩٤٥)

تأليف العلامة
أبو الحسن الندوي

طبعة شرعية جديدة
منقحة ومحققة ومزينة

مكتبة الأيمان
المصروفة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٢٥٧٨٨٢

كليمه كتذكرو

بقلم د. مصطفى أبو سليمان الندوي تلميذ المؤلف

على مدى ستين عاماً أو نحوها من الجهاد فى ميدان الدعوة والإصلاح والتعليم والترقية ، وعلى رأس العلماء والمجددين وبين صفوف الأسلاف الصالحين يقف سماحة الشيخ العلامة أبى الحسن على الحسنى الندوى ، أعلم يقيناً أنه غنى عن تعريف أمثالى به ، ولكننى من باب الوفاء بالنذر اليسير من الدين ، ومن باب العرفان بالفضل الجميل لأصحابه أحببت أن أصدر هذه الطبعة الجديدة من الكتاب بعد أن سمح لى أستاذى ومربى عقلى المؤلف بطبعه ونشره فى بلادنا المحروسة مصر أرض الكنانة التى يذكرها سماحة أستاذنا بكل خير ويكن لعلمائها وأدبائها كل احترام لما لهم من سابقة فضل فى إثراء الدراسات العربية والإسلامية بجهود علمية عظيمة استفاد منها جهابذة علماء الديار الهندية .

أستاذنا العلامة الندوى ما ترك موضعاً فى شبه القارة الهندية إلا وله فيه بصمات دعوية علمية ، وما ترك دولة أو دويلة من المعمورة إلا وجابها ودعا فيها إلى الله تعالى ، وله فى كل ذلك صولات وجولات .

ولقد أثمر فى خلال دعوته آثاراً عظيمة أرجو أن أوفق لذكر شىء منها على سبيل المثال لا الحصر :

أولاً : جامعة ندوة العلماء أخذت صفة العالمية منذ أن صار رئيساً عاماً لها ودخلت بل تفوقت على معظم جامعات العالم التى تهتم بشئون الدراسات الإسلامية والعربية لأنها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع .

ثانياً : تخرج على يديه نوابغ العلم والفكر فى العصر الحديث وانتشروا فى بقاع الأرض يعلمون ويدعون الى الله تعالى على بصيرة .

ثالثاً : أسس سماحته معهداً عظيماً عالياً للدعوة والفكر الإسلامى فى الجامعة وعلى غرارهِ أنشأ معهداً فى جامعة اكسفورد بالمملكة المتحدة البريطانية ، ومعهداً آخر فى جزر دولة برونائى ، وهكذا تنتشر الأفكار الإسلامية الصحيحة فى الأمة المحمدية .

رابعاً : أقام دعوة للإسلام بين غير المسلمين فى داخل شبه القارة الهندية وخارجها بطريقة أطلق عليها اسم « الدعوة الإنسانية » تشتمل على الاجتماعات للترغيب فى الإسلام بطريقة فكرية سهلة القبول عندهم، وكذلك على رسائل وأبحاث بمختلف اللغات الحية والقديمة .

خامساً : ترأس المجلس التعليمى لعموم الجامعات والمدارس الإسلامية فى شبه القارة الهندية .

سادساً : ترأس مجلس الأحوال الشخصية للمسلمين للدفاع عن حقوقهم وحفظ كياناتهم وتراثهم فى بلاد الهند .

سابعاً : اختير عضواً مؤسساً لرابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ، وعضواً للمجمع العربى بدمشق والقاهرة ، وعضواً مؤسساً للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وغيرها من الجامعات والجامعات فى مختلف البلاد الإسلامية وحاضر فى أكثرها خدمة للإسلام والمسلمين وحسبه لوجه الله الكريم .

ثامناً : ألف ما يزيد على مائتى كتاب ورسالة باللغات العربية والأردية والهندية وترجمت أكثر مؤلفاته إلى اللغات الأوربية والتركية ولغة الملايو وغيرها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أيضاً :

- ١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
- ٢ - رجال الفكر والدعوة فى الإسلام - أربع مجلدات .
- ٣ - الأركان الأربعة فى ضوء الكتاب والسنة مقارنة مع الديانات الأخرى .
- ٤ - السيرة النبوية .
- ٥ - الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية .
- ٦ - النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن .
- ٧ - روائع إقبال .
- ٨ - الطريق إلى المدينة .

- ٩ - التربية الإسلامية الحرة .
- ١٠ - إذا هبت ريح الإيمان .
- ١١ - العقيدة والعبادة والسلوك .
- ١٢ - روائع من أدب الدعوة فى القرآن والسنة .
- ١٣ - حديث مع الغرب .
- ١٤ - أحاديث صريحة فى أمريكا .
- ١٥ - مذكرات سائح فى الشرق العربى .
- ١٦ - من نهر كابول إلى نهر اليرموك .
- ١٧ - أسبوعان فى المغرب الأقصى .
- ١٨ - المسلمون وقضية فلسطين .
- ١٩ - إلى الإسلام من جديد .
- ٢٠ - المدخل إلى الدراسات القرآنية .
- ٢١ - الصراع بين الإيمان والمادية .
- ٢٢ - المسلمون فى الهند .
- ٢٣ - التفسير السياسى للإسلام فى مرآة كتابات المودودى وسيد قطب .
- ٢٤ - القاديانى والقاديانية - دراسة وتحليل .
- ٢٥ - العرب والإسلام .
- ٢٦ - نفحات الإيمان .
- ٢٧ - أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين .
- ٢٨ - صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم الدعوية والتربوية وسيرة الجيل المثالى الأول عند أهل السنة والشيعة .

- ٢٩- شخصيات وكتب.
- ٣٠- الإسلام أثره فى الحضارة وفضله على الإنسانية .
- ٣١- ربانية لا رهبانية .
- ٣٢- قصص النبيين للأطفال - خمسة أجزاء .
- ٣٣- فى مسيرة الحياة - مجلدان كبيران .
- ٣٤- المد والجزر فى تاريخ الإسلام .
- ٣٥- القرن الخامس عشر الهجرى فى ضوء التاريخ والواقع .
- ٣٦- دور الحديث الشريف فى تكوين المناخ الإسلامى .
- ٣٧- الاجتهاد ونشأة المذاهب الفقهية .
- ٣٨- فضل البعثة المحمدية على الإنسانية .
- ٣٩- عاصفة يواجهها العالم الإسلامى .
- ٤٠- الإسلام والمستشرقون .
- ٤١- الدعوة الإسلامية فى الهند وتطوراتها .
- ٤٢- الإمام الذى لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف .
- ٤٣- مواساة أم مساواة .
- ٤٤- نظامان إلهيان للغلبة والانتصار .
- ٤٥- الفتح للعرب المسلمين .
- ٤٦- كارثة العالم العربى .
- ٤٧- كيف دخل العرب التاريخ .
- ٤٨- العرب يكتشفون أنفسهم .
- ٤٩- نحو تكوين إسلامى جديد .

- ٥٠- خليج بين الإسلام والمسلمين .
- ٥١- وامتصماه .
- ٥٢- حكمة الدعوة وصفة الدعاة .
- ٥٣- منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء .
- ٥٤- درس من الحوادث .
- ٥٥- بين نظرتين .
- ٥٦- بين الصورة والحقيقة .
- ٥٧- في ظلال البعثة المحمدية .
- ٥٨- الإسلام والغرب .
- ٥٩- ردة ولا أبا بكر لها .
- ٦٠- الإسلام والغرب .
- ٦١- توضيح شباب العرب .
- ٦٢- الدعوة إلى الله .
- ٦٣- أهمية الحضارة .
- ٦٤- ملة إبراهيم وحضارة الإسلام .
- ٦٥- نظرة مؤمن واع إلى المذنيات المعاصرة الزائفة .
- ٦٦- ثورة في التفكير .
- ٦٧- إلى الراية المحمدية .
- ٦٨- اسمعى يا مصر .
- ٦٩- اسمعى يا سورية .
- ٧٠- اسمعى يا إيران .

- ٧١- اسمعى يا زهرة الصحراء .
٧٢- اسمعوها منى صريحة أيها العرب .
٧٣- الإسلام والحكم .
٧٤- نحن الآن فى المغرب .
٧٥- تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا .
٧٦- قارنوا بين الريح والخسارة .
٧٧- إلى قمة القيادة العالمية .
٧٨- فاستخف قومه فأطاعوه .
٧٩- غارة التار على العالم الإسلامى وظهر معجزة الإسلام .
٨٠- الإسلام فى عالم متغير .
٨١- كارثة التعصب اللغوى والثقافى .
٨٢- مصادر العلوم الإسلامية .
٨٣- مستقبل الأمة الإسلامية والعربية بعد حرب الخليج
والكثير من المؤلفات بالأردية أو الهندية ولم يترجم إلى اللغة العربية بعد ،
ونود أن تقوم جامعة ندوة العلماء بدورها فى ترجمة ما لم يكتب أصلاً بالعربية إلى
العربية .

تاسعاً : كتب مقدمات فائقة لكثير من المؤلفات العلمية والشروح الحديثية
والفقهية والأدبية لكبار العلماء من بلاد العجم والعرب كمقدماته لكتاب الشيخ
العلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوى، تراجم أبواب البخارى وأوجز المسالك
فى شرح موطأ مالك، وبذل المجهود فى شرح سنن أبى داود ، ومقدمته لكتاب حياة
الصحابه للشيخ محمد يوسف الكاندهلوى الزائع الصيت والانتشار ، ومقدمته
لمذكرات الدعوة والداعية للشيخ البنا وغيرها الكثير مما فاق الوصف والتعليق وجعل

لهذه الكتب مكانة عظيمة بين المؤلفات الحديثة ، ولقد أوصاني سماحته بجمع
مقدماته للكتب فأسأل الله العلى القدير أن يوفقنى لذلك فى القريب إن شاء الله .

ولقد أشاد بجهوده ومؤلفاته جم غفير من علماء العصر ونوايغ الفكر والأدب
فى العالمين العربى والإسلامى كالأستاذ الدكتور / مصطفى السباعى فى مقدمته
لكتاب رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ، والأستاذ الأديب / السيد قطب فى تقديمه
لقصص النبىين ، وماذا خسر العالم وهى بين يدى القارئ والباحث ، والأديب الكبير
الأستاذ / على الطنطاوى فى مقدمته لكتاب مختارات من أدب العرب ، والمفكر
الإسلامى الأستاذ / أنور الجندى فى كتابه أعلام القرن الرابع عشر ، والأستاذ محمد
المجذوب والشيخ فاروق حمادة ، وغيرهم وغيرهم نفع الله المسلمين بهم جميعاً .

وإن أحد إخواننا الباحثين بالجامعة الأزهرية قد ألف رسالة للدكتوراة فى
شخصية أستاذنا الندوى ونالت إعجاباً عظيماً من أساتذة قسم الدعوة والثقافة
الإسلامية بالجامعة .

هذا .. وإن سماحة شيخنا متع الله الإسلام والمسلمين بأعماله وعلومه
وجهوده لم ينل على ما أرى ولو جزءاً حقيقياً من حقه ، وأرجو الله أن يوفق قادة
الأمة الإسلامية وعلماءها ودعاتها وشبابها للانتفاع بالشيخ الندوى علماً وعملاً
وفكراً وأدباً وخلقاً .

وإن من أبواب الخير الذى لا مرية فيه أن نقوم اليوم بإحياء عمل واحد عظيم
من أعماله ليكون باكورة مكتبة إسلامية عظيمة للدعاة فى سلسلة مباركة من
مؤلفاته ، ولهذا قبلت منا مكتبة الإيمان بالمنصورة مشكورة الإذن بطبع الكتاب
ونشره طبعاً ونشراً يليقان بمقام المؤلف والمؤلف مع مراعاة حسنة لأحوال طلاب
العلم والدعوة ومحبي الشيخ الندوى ومؤلفاته وكذلك للظروف المعيشية
والاجتماعية فى مصر حتى يتيسر لكل أسرة اقتناء نسخة أو أكثر من هذا الكتاب
فعزى الله المؤلف والناشر خيراً ، ولله الحمد والمنة وصلى الله على خير خلقه سيدنا
ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم .

مقدمة

بقلم الباحث الاسلامي الأستاذ سيد قطب

ما أحوج المسلمين اليوم إلى من يرد عليهم إيمانهم بأنفسهم وثقتهم بماضيهم ورجاءهم في مستقبلهم .. وما أحوجهم لمن يرد عليهم إيمانهم بهذا الدين الذي يحملون اسمه ويجهلون كنهه ، يأخذونه بالورثة أكثر مما يتخذونه بالمعرفة .

وهذا الكتاب الذى بين يدي : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » لمؤلفه (السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى) من خير ما قرأت فى هذا الاتجاه ، فى القديم والحديث سواء .

إن الإسلام عقيدة استعلاء ، من أخص خصائصها أنها تبعث فى روح المؤمن بها احساس العزة من غير كبر ، وروح الثقة فى غير اغترار ، وشعور الاطمئنان فى غير تواكل . وأنها تشعر المسلمين بالتبعية الإنسانية الملقاة على كواهلهم ، تبعة الوصاية على هذه البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة ، وهدايتها إلى الدين القيم ، والطريق السوى ، وإخراجها من الظلمات إلى النور بما آتاهم الله من نور الهدى والفرقان : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ .. ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

وهذا الكتاب الذى بين يدي يشير فى نفس قارئه هذه المعانى كلها ، وينفث فى روعه تلك الخصائص جميعها ، ولكنه لا يعتمد فى هذا على مجرد الاستشارة الوجدانية أو العصبية الدينية ، بل يتخذ الحقائق الموضوعية أدواته ، فيعرضها على النظر والحس والعقل والوجدان جميعاً ، ويعرض الوقائع التاريخية والملابسات الحاضرة عرضاً عادلاً مستنيراً ، ويتحاكم فى القضية التى يعرضها كاملة الى الحق والواقع والمنطق والضمير ، فتبدو كلها متساندة فى صفه وفى صف قضيته ، بلا تمحل ولا اعتساف فى مقدمة أو نتيجة . وتلك مزية الكتاب الأولى .

إنه يبدأ فيرسم صورة صغيرة سريعة - ولكنها واضحة - لهذا العالم قبل أن

تشرق عليه أنوار الإسلام الأولى . يرسم الصورة لهذا العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، من الهند والصين إلى فارس والروم ، صورة المجتمع وصورة الضمير فى هذه الدنيا العريضة ، فى الجماعات التى تظلمها الديانات السماوية ، كاليهودية والمسيحية ، والتى تظلمها الديانات الوثنية ، كالهندوكية والبوذية والزرادشتية .. وما إليها ..

إنها صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفاً بيناً ، لا يعتسف المؤلف فيه ، ولا يستبد به ، إنما يشرك معه الباحثين والمؤرخين من القدامى والمحدثين ، ممن يدينون بغير الإسلام ، فلا شبهة فى أن يكونوا مغرضين له ، وللدور الذى أداه فى ذلك العالم القديم .

إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية ، ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام ، على الرغم من الديانات السماوية ، التى كانت قد أدركها التحريف ، وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس ، واستحالت جامدة ، لا حياة فيها ولا روح ، وبخاصة المسيحية .

... فإذا فرغ المؤلف من رسم صورة العالم بجاهليته هذه ، بدأ يعرض دور الإسلام فى حياة البشرية . دوره فى تخليص روح البشر من الوهم والخرافة ، ومن العبودية والرق ، ومن الفساد والتعفن ، ومن القذارة والانحلال ، ودوره فى تخليص المجتمع الإنسانى من الظلم والطغيان ، ومن التفكك والانهدام ، ومن فوارق الطبقات واستبداد الحكام واستئلال الكهان ، ودوره فى بناء العالم على أسس من العفة والنظافة والإيجابية والبناء ، والحرية والتجدد ، ومن المعرفة واليقين ، والثقة والإيمان . والعدالة والكرامة ، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة وترقية الحياة ، وإعطاء كل ذى حق حقه فى الحياة .

كل أولئك فى إبان الفترة التى كانت القيادة فيها للإسلام فى أى مكان ، والتى كان الإسلام فيها يعمل ، وهو لا يستطيع أن يعمل إلا أن تكون له القيادة ، لأنه بطبيعته عقيدة استعلاء ومنهج قيادة ، وشرعة ابتداع لا اتباع .

ثم نجىء الفترة التى فقد الإسلام فيها الزمام ، بسبب انحطاط المسلمين ، وتخليهم عن القيادة التى يفرضها عليهم هذا الدين ، والوصاية التى يكلفهم بها على البشرية ، والتبعات التى ينوطها بهم فى كل اتجاه .

وهنا يستعرض المؤلف أسباب هذا الانحطاط الروحية والمادية ، ويصف ما حل بالمسلمين أنفسهم عندما تخلوا عن مبادئ دينهم ، ونكصوا عن تبعاتهم ، وما نزل بالعالم كله من فقدانه لهذه القيادة الراشدة ، ومن انتكاسه إلى الجاهلية الأولى ، ويرسم خط الانحدار الرهيب الذى ترتكس فيه الإنسانية فى ذات الوقت الذى تفتح فيه آفاق العلم الباهرة . يرسم هذا الخط عن طريق التأمل الفاحص ، لا بالجميل النارية والتعبيرات المجنحة . فالحقائق الواقعة ، كما عرضها المؤلف غنية عن كل بهرج وكل تزويق .

ومن خلال هذا الاستعراض ، يحس القارئ ، بمدى الحاجة البشرية الملحة إلى تغيير القيادة الإنسانية ، وردها إلى الهدى الذى انبثق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى المعرفة ، ويشعر بالقيمة الكلية لوجود هذه القيادة فى الأرض ، وبمدى الخسارة التى حلت بالبشر جميعاً ، لا بالمسلمين وحدهم فى الماضى وفى الحاضر وفى المستقبل القريب والبعيد .

كذلك يثور فى نفس المسلم بصفة خاصة روح الندم ، على ما فرط ، وروح الاعتزاز بما وهب ، وروح الاستشراف إلى القيادة التى ضيع .

ولعله مما يلفت النظر تعبير المؤلف دائماً عن النكسة التى حاقت بالبشرية كلها منذ أن عجز المسلمون عن القيادة بكلمة « الجاهلية » .

وهو تعبير دقيق الدلالة على فهم المؤلف للفارق الأصيل بين روح الإسلام ، والروح المادى الذى سيطر على العالم قبله ، ويسيطر عليه اليوم بعد تخلى الإسلام عن القيادة .. إنها (الجاهلية) فى طبيعتها الأصيلية ، فالجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة ، ولكنها طابع روحى وعقلى معين ، طابع يبرز بمجرد أن تسقط القيم الأساسية للحياة البشرية ، كما أرادها الله ، وتحل محلها قيم مصطنعة تستند الى

الشهوات الطارئة، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم فى حالة الارتقاء الأولى ، كما كانت تعانيه من قبل فى أيام البربرية الأولى .

فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر . وجائزته هى الخروج من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده والخروج من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . وقد ظهر فضل هذه الرسالة ، وسهل فهمها فى هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية ، وبدت سوأتها للناس ، واشتد تدمير الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ، لو نهض العالم الإسلامى ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماس وعزيمة ، ودان بها « كالرسالة الوحيدة التى تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال » ، كما يقول المؤلف الفاضل قرب نهاية الكتاب .

وأخيراً ، فإن الخصيصة البارزة فى هذا الكتاب كله هى الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية فى محيطها الشامل ، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الدينى والاجتماعى فحسب ، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغى أن يكتب من الزاوية الإسلامية .

لقد مضى الأوروبيون يؤرخون للعالم كله من زاوية النظر الغربية ، متأثرين بثقافتهم المادية ، وفلسفتهم المادية ، ومتأثرين كذلك بالعصبية الغربية والعصبية الدينية - شعروا بذلك أم لم يشعروا - ومن ثم وقعت فى تاريخهم أخطاء وانحرافات ، نتيجة إغفالهم لقيم كثيرة فى هذه الحياة ، لا يستقيم تاريخ الحياة ولا يصح تفسير الحوادث والنتائج بدونها ، ونتيجة عصبيتهم التى تجعل أوروبا فى نظرهم هى محور العالم ومركزه دائماً ، ولإغفالهم العوامل الأخرى التى أثرت فى تاريخ البشرية ، أو التهوين من شأنها إذا لم يكن مصدرها هو أوروبا .

ولقد درجنا نحن على أن نتلقف التاريخ من أيدي أوروبا كما نتلقف كل شىء آخر نتلقفه بأخطائه تلك ، وهى أخطاء فى المنهج بإغفال قيم كثيرة وعوامل كثيرة ، وأخطاء فى التصوير نتيجة النظر من زاوية واحدة للحياة البشرية ، وأخطاء فى النتائج

تبعاً للأخطاء المنهجية والتصويرية .

وهذا الكتاب الذى بين يدى نموذج للتاريخ الذى ينظر للأمور كلها ، وللعوامل جميعها ، وللقيم على اختلافها . ولعل القارئ لم يكن ينتظر من رجل مسلم ، واثق بقوة الروح الإسلامى ، متحمس لرد القيادة العالمية إليه ، أن يتحدث عن مؤهلات القيادة ، فلا ينسى بجوار (الاستعداد الروحى) أن يلح فى (الاستعداد الصناعى والحربى) و (التنظيم العلمى الجديد) وأن يتحدث عن (الاستقلال التجارى والمالى) .

إنه الإحساس المتناسق بكل مقومات الحياة البشرية ، وبهذا الإحساس المتناسق سار فى استعراضه التاريخى ، وفى توجيهه للأمة الإسلامية سواء ، ومن هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ ، كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثير بالطريقة الأوروبية ، التى ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة وهذا التحقيق .

وإنه ليسعدنى أن أتحدث عن هذا الكتاب بذلك الإحساس ذاته ، وأن أسجل هذه الظاهرة ، وأنا مغتبط بهذه الفرصة التى أتاحت لى أن أطلع عليه فى العربية .. اللغة التى أثر صاحبه أن يكتبه بها ، وأن ينشره فى مصر للمرة الثانية : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

« سيد قطب »

صورة وصفية :

أخي أبو الحسن !

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصي

لقيت أخي أبا الحسن أول مرة في شتاء سنة ١٩٥١ م ، بدار (الشبان المسلمين) في القاهرة ، عقب محاضرة لى من « محاضرات الثلاثاء » وقد أقبل على يطلب فى أدب جم وتواضع ظاهر ليلة من ليالى الثلاثاء ، ليلقى فيها محاضرة عن «العالم فى مفترق الطرق » .. فرأيت رجلاً نحيف البدن ، نحيل العود ، له لحية سمراء ، وملابسه قليلة خفيفة الوزن والشمس ، ونظراته عميقة نفاذة ، ونبراته دقيقة أخذاة فيها بحة ، عرفت فيما بعد أنها ملازمة له من جهد وإجهد ، وبعد اللقاء الأول العاجل توثقت بينى وبينه أسباب الأخوة والمحبة ، وعن خبر به أكتب هذه السطور .

هو العالم المؤمن الداعية المحتسب السيد أبو الحسن على الحسنى الهندى الندوى ، من المنتسبين إلى عترة الحسن بن على رضوان الله عليهما ، ووالده هو الشريف العلامة عبدالحى بن فخر الدين بن عبدالحى ، ينتهى نسبه الى عبد الله الأشتر بن محمد ذى النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب ، ولوالده كتب كثيرة منها المطبوع ومنها المخطوط أشهرها « نزهة الخواطر » فى ثمانية مجلدات (١) وقد توفى سنة ١٣٤١ هجرية .

وقد ولد السيد أبو الحسن فى مديرية بالهند تسمى « راى بريلى » ، وهى تبعد عن « لكهنؤ » سبعين كيلو متراً تقريباً ، مد الله فى عمره وأدام به نفع الإسلام والمسلمين .

وأسرة أخى أبى الحسن من أصل عربى ، لا تزال تحافظ على أنسابها الى هذا اليوم وهى تحافظ على صلاتها بأصلها وإن كانت تتكلم الهندية وتعيش فى الهند منذ

(١) ظهرت سبعة مجلدات من هذا الكتاب من دائرة المعارف فى حيدر اباد الهند ، والكتاب يشتمل على خمسة آلاف ترجمة لأعيان الهند ، وظهر للمؤلف كتاب « الثقافة الإسلامية فى الهند » طبعه الجمع العلمى العربى فى دمشق .

قرون ، وتمتاز بالمحافظة على التوحيد والسنة والبعث عن البدع والدعوة الى الله والجهاد فى سبيله ، وللسيد أبى الحسن أخ أكبر منه هو السيد الدكتور عبدالعلى عبدالحى^(١) وهو طبيب ، وقد تخرج فى ندوة العلماء ومعهد ديوبند ، كما تخرج فى جامعة لكهنؤ بتفوق وامتياز ، فهو بذلك يجمع بين الثقافتين الدينية والعصرية ، وله فضل كبير فى تربية السيد أبى الحسن وثقافته ، ويدير ندوة العلماء خلفاً لأبيه الراحل .. وقد تزوج السيد أبو الحسن منذ عشر سنوات من الأسرة نفسها ، لأن هذا تقليد محترم يعاقب من يخرج عليه .

بدأ السيد أبو الحسن تعلمه القرآن الكريم فى البيت تعاونه أمه ، وأمه من فضليات النساء والسيدات الفاضلات الصالحات ، تحفظ القرآن ، وتكتب ، وتؤلف ثم تعلم اللغتين الأوردية والفارسية ، ثم بدأ وهو فى الثانية عشرة من عمره يتعلم الإنجليزية والعربية معاً ، وبدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد اليمنى ، وتوفر سنتين كاملتين على دراسة الأدب العربى وحده ، وقرأ كثيراً من كتب الأدب ، وشغف بها على خلاف العادة يومئذ فى الهند ، لأنهم يزهدون فى الأدب العربى ، وعنى عناية خاصة بالعكوف على كتب ثلاثة هى : نهج البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، والحماسة ، ثم التحق بجامعة لكهنؤ ، وهى جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية ، وفيها قسم لأداب اللغة العربية التحق به السيد أبو الحسن ، وكان يومئذ أصغر طلاب الجامعة سناً ، وضاق بدروس القواعد أولاً فأخره ذلك قليلاً ، ثم سار فى تعلمه ممتازاً فائقاً سابقاً ، ثم أتم دراسته الأدبية على الدكتور الشيخ تقى الدين الهلالى المراكشى رئيس تدريس الأدب العربى فى ندوة العلماء - وهى جمعية تشرف على دار العلوم هناك - ثم دخل الندوة ، ومكث بها سنتين يدرس علوم الحديث ، واستفاد كثيراً من شيخ الحديث الشيخ حيدر حسن خان ، ومكث فى دار العلوم ديوبند مدة شهور ، وحضر دروس العالم الكبير المجاهد الشيخ حسين أحمد المدنى فى الحديث .

(١) توفى إلى رحمة الله فى ٢١ ذى القعدة ١٣٨٠ هـ الموافق ٧ مايو ١٩٦١ م

وسافر إلى لاهور ، وقرأ التفسير على الشيخ أحمد على المفسر المشهور ، ولم تكن دراسته في أغلب أدوارها دراسة نظامية بشهادات ، بل كانت دراسة حرة لوجه العلم والمعرفة ، ولما أتم دراسته رجع إلى لكهنؤ ، وعين مدرساً في دار العلوم هناك ومكث فيها عشر سنوات يدرس علوماً مختلفة ، واشتغل بجوار ذلك بالكتابة في مجلة « الضياء » العربية التي تصدرها ندوة العلماء ، ورئيس تحريرها الأستاذ مسعود الندوى ، واشتغل كذلك بالتأليف في الأوردية ، وأظهر كتابه « سيرة السيد أحمد الشهيد » ، فكان الإقبال عليه عظيماً حتى طبع ثلاث مرات .

ثم انتقل إلى دلهي ، والتقى بالداعية المجدد العظيم الشيخ محمد إلياس ، وكان هذا اللقاء نقطة تحول في حياة أبي الحسن ، لأن الشيخ محمد إلياس كان مرشداً شعبياً ، له صلة عميقة وثيقة بال جماهير عن طريق الدعوة إلى الله . وأبو الحسن لم يكن متصلاً بالشعب قبل ذلك ، بل كان مقتصرأ على الدراسة والتأليف . فأخذ يتصل بأهل القرى والداكر ، ويقوم برحلات إسلامية قد تستغرق الواحدة منها شهراً . لنشر الدعوة في قرى الهند ومدنها . وكان الشيخ إلياس - ولا يزال - هو مثل أبي الحسن الأعلى في الحكمة الدينية العميقة وفي قوة الإيمان لأن الشيخ إلياس - كما يقول أخونا - كان صورة من السلف الصالح ، وكان مخلصاً غيوراً ، يتألم لحال المسلمين ، ويعمل من أجلهم ، ويسير في شئونهم ، ويحترق بروحه القوية الوثابة في سبيلهم (١)

وتلقى التربية الروحية من العارف الجليل المربي الكبير الشيخ عبدالقادر الرأى يورى واستفاد من صحبته ومجالسته .

(١) توفي إلى رحمة الله تعالى عام ١٣٦٣هـ - وللسيد أبي الحسن تأليف في سيرته في أردو وحديث عنه في محاضراته « الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها » .

ورأس أبو الحسن تحرير مجلة « الندوة » العلمية التى كانت تصدر بالأوردية ، وكانت لسان حال الندوة ، وكلفته الجامعة الإسلامية فى (عليكره) بوضع منهاج لطلبة (البكالوريا) فى التعليم الدينى ، فألف فى ذلك كتاباً أسماه « إسلاميات » وقبِلت الجامعة هذا الكتاب وأخذت به ، وكافأت صاحبه عليه ، ودعى لإلقاء محاضرات فى الجامعة المليّة الإسلامية بدلهى ، فألقى محاضرة فى موضوع : (الدين والمدنية) كانت موضع الاستحسان ، ونشرت فكان لها تأثير واسع النطاق .

وألف فى هذه الفترة كتباً لطلبة المدارس العربية فى الهند ، منها كتاب « مختارات فى الأدب العربى » وقد قررت دار العلوم فى الهند وبعض الجامعات تدريسه . ومنها كتاب « قصص النبيين » فى ثلاثة أجزاء ، وغير ذلك من الكتب ، وأصدر مجلة (التعمير) التى كانت تصدر بالأوردية مرتين فى الشهر ، وأسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس ، وأصدرت هذه الجمعية التبشيرية الإسلامية عدة رسائل وبحوث عن الملة الغراء باللغة الإنجليزية المنتشرة هناك . وأسس (المجمع الإسلامى العلمى) فى لكهنؤ سنة ١٩٦٠ وله نشاط وإنتاج فى اللغات الإنجليزية والهندية والأوردية والعربية ، ومطبوعات قيمة .

وأخى المفضل أبو الحسن له غرام أصيل عميق باقتناء الكتب ومسامرتها والحديث عنها ، وأعز ما يحرص عليه من عرض الحياة هو كتبه ، وأعلى ما يهدى إليه كتاب يرضيه ويغذيه ، ولا يقتنى أبو الحسن الكتب ليزين بها داره . بل ليهضمها قراءة وبحثاً ونقداً . وكتاباتة المختلفة فيها دلائل واضحة على ذلك . وقد أفادته هذه المطالعات والمسامرات - بجوار الهبة والتجربة - قدرة على الارتجال بالعربية . فهو يتدفق كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية والتعبير الجميل . وأغلب محاضراته يستعد لها . وكثيراً ما يكتبها . وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفى الملتهب . ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع أيضاً . وهو كما عرفت عنه وكما حدثنى مراراً لا يحب أن يهجم على الحديث فى موضوع ذى بال إلا إذا احتفل به وتهياً له . وليس ذلك عن قلة بضاعة ولكنه احتباس العالم الذى يريد أن يستيقن ويتثبت ! .. وقد غلب النشر على أبى الحسن فلم تطاوعه قريحته يوماً على نظم الشعر....

وقد ظل الأستاذ أبو الحسن يمارس ألواناً من الألعاب الرياضية ككرة القدم والسباحة والصيد والهوكى والتنس ثم انقطع عنها أخيراً ، وعلى الرغم من هذا أصابته أمراض استمرت مدة طويلة ، وخاصة فى الصدر ، ثم عافاه الله منها ، وبقي له سعال يعاوده من حين لآخر .

وهو يكره التصوير بجميع أنواعه ، ويحرمه على نفسه فى تشديد ملحوظ ، ولقد زرت معه إحدى دور الطبع والنشر الكبرى بالقاهرة ، ورغب مصور الدار أن يلتقط لنا صورة تذكارية ، فرفض أبو الحسن ، وأصر على الرغم من طول المحاولة والرجاء ، وذكر أن المسلمين فى الهند (متفقون) على حرمة التصوير !!

ولقد سألته ذات مرة عن السابقين الذين تأثر بهم ، فأجبنى بأنهم الإمام أحمد ابن حنبل صاحب الموقف المعروف فى المحنة ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والشيخ أحمد السرهندى (من سرهند ، بلد فى البنجاب) المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ صاحب الرسائل الخالدة فى الشريعة والحقيقة ومحاربة البدع ، والمجدد للملة ، والشيخ ولى الله الدهلوى المتوفى سنة ١١٧٦ هـ الباحث الإسلامى العظيم صاحب (حجة الله البالغة) والسيد أحمد الشهيد مؤسس أول دولة شرعية فى الهند فى القرن الثالث عشر الهجرى (١) وقد استمرت هذه الدولة عدة شهور ، ثم ثار عليها الإنجليز بمؤامراتهم فأخذوا عليها الطريق .

وأعظم آمال أبى الحسن أن يرى الإسلام سائداً على الأرض ، وأن يرى الدول الباغية معذبة مقهورة حتى يسلى نفسه ويستبشر ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلام وأذلوا المسلمين ، وهو يعتقد ويرى أن بقاء القلة المسلمة فى الهند من الخير ، وفيه فائدة ترجى للهند ، فلعل للإسلام مستقبلاً ذا بال هناك .

ولقد رحل أبو الحسن إلى الحجاز فى سنتى ١٩٤٧ - ١٩٥٠ م . وقدم الى

(١) هو من نفس أسرة السيد أبى الحسن ومن أشهر رجالها ورجال الهند . ولد سنة ١٢٠١ هـ فى راي بريلي (الهند) واستشهد فى سبيل الله فى بالاكوت (باكستان الآن) سنة ١٢٤٦ هـ .

مصر سنة ١٩٥١ ، وطوف بأغلب العالم الإسلامى ، فرأى شواهد (١) ودرس وكتب . وحاضر وخطب . وكان له فى كل أرض نزل بها مجهود وجهود وعهود .

وقد اختير عضواً مراسلاً فى المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٥٧ م ودعى لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر فى جامعة دمشق سنة ١٩٥٦ م (٢)

وقد سأله وهو بيننا فى مصر عن حسنات مصر، فقال موجزاً : الإيمان بالله والدين ، والمحبة للمسلم خاصة إذا كان غريباً ، ورقة القلب ، وسلامة الصدر ، وكثرة الأعمال المنتجة

ثم سأله عن السيئات فتخرج ثم أجاب : السفور ، وعدم التستر ، والصور الخليعة فى الصحف والمجلات ، واستهانة بعض العلماء ببعض الحرمات ، وعدم المحافظة على الجماعات فى المساجد برغم كثرتها ، والاندفاع فى تقليد الحضارة الغربية بلا تبصر .

وأخى أبو الحسن بعد هذا كله عدو للمظاهر الكاذبة ، يتخفف فى ثيابه وطعامه وشرابه ، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة ، ولا يقيم للمال وزناً فى حياته ، وثقته بربه فوق كل شئ ، ومثابرته على النضال فى سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال ، وإخلاصه العميق سر نجاحه بينما يفشل الآخرون .

لقد طال الكلام ، ومع ذلك لم أقل كل شئ عن أخى أبى الحسن !..

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

(١) طبعت مذكراته فى القاهرة بعنوان « سائح فى الشرق العربى »

(٢) ظهر مجموع هذه المحاضرات التى ألقاها الأستاذ أبو الحسن فى مدرج الجامعة الكبير فى دمشق وهى

اثنتا عشرة محاضرة باسم « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » من طبعة جامعة دمشق سنة ١٩٦٠ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة كتاب

يحكيها مؤلفه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فلعل كثيراً من القراء الفضلاء لا يعلمون أن هذا الكتاب^(١) كان باكورة مؤلفاتي ، وكان بداية تاريخ التأليف ، وقد ألّفت هذا الكتاب وأنا قد تجاوزت الثلاثين من عمري قريباً^(٢) وكان أضخم من أن يتناوله مثلي في مثل هذه السن المبكرة ، وفي بلد بعيد عن مركز اللغة العربية وآدابها وثقافتها ، وقد ولدت في الهند ونشأت وتعلمت فيها ، ولم يقدر لي أي سفر خارج الهند ، وكانت الرحلة الأولى المباركة التي وفقني الله لها هي الرحلة التي قمت بها لأداء فريضة الحج سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) ، يعني بعد تأليف هذا الكتاب بثلاث سنوات فكانت في الحقيقة مغامرة علمية لم أكن متهيئاً ولا مرشحاً لها ، وكان من الجسارة أن أتناول هذا الموضوع الذي كان جديراً بقلم أكبر من قلمي ، وبعقل أوسع من عقلي ، وبتجربة أطول وأوسع من تجربتي كمؤلف ، ولكن الله يفعل ما يشاء .

لقد كنت أشعر برغبة غامضة ملحة لم أستطع أن أغالبها ، كأن سائقا يسوقني إلى الكتابة في هذا الموضوع ولو استشرت العقل واعتمدت على تجارب المؤلفين ، وعلى مقاديرهم ومكانتهم العلمية ، لأحجمت ، ولعدلت عن هذه الفكرة ، ولو ذكرت ذلك لأحد من العقلاء العلماء والكتاب الفضلاء ، لأشاروا على بالعدول عن خوض هذه المعركة العلمية العقلية ، ولكنه كان من الخير أننى لم استشر أحداً ، كما

(١) يعني به المؤلف كتاب « ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين » .

(٢) كان تأليفه بين سنة ١٣٦٣ هـ - ١٣٦٤ هـ (١٩٤٤ م - ١٩٤٥) .

يقول الدكتور محمد إقبال : « ليس من الخير أن تستشير عقلك دائماً ، فنج عقلك جانباً في بعض الأمور ، فإن العقل يصور لك الخوف في معارك خطيرة ، ويشير عليك الابتعاد عن مثل هذه التجارب المريرة » .

وكانت المراجع العربية التي كان لابد من أن أستشيرها في هذا الموضوع قليلة، لأن ذلك العهد كان قريباً بالحرب العالمية الثانية ، وكانت الصلات تكاد تكون منقطعة بين الهند والبلاد العربية ، فكانت الهند تستورد قليلاً من البضاعة العلمية والمراجع التاريخية والثقافية باللغة العربية ، التي كانت تزخر بها البلاد العربية بصفة عامة ، ومصر بصفة خاصة ، أما المراجع العلمية باللغة الإنجليزية والأردية فكانت متوفرة ، وكانت في لكهنؤ . مدينة العلم والثقافة - مكتبات غنية فيها أحدث المطبوعات الإنجليزية والموسوعات العلمية وكنت على اتصال بها ، أستعير منها الكتب وأطالعها وأستفيد من بعض المكتبات الشخصية ، وكان من تيسير الله تعالى والإرهاص لتأليف هذا الكتاب ، أني كنت طالعت قريباً تاريخ أوروبا سياسة واجتماعاً وديانة وخلقاً ، وحضارة وثقافة ، بنهامة وفي توسع وعمق ، وعنيت بموضوع الصراع بين الديانة والعلم ، والبلاط والكنيسة ، دراسة اختصاصية وتاريخ الأخلاق في أوروبا وتطورها ، والعوامل التي صاغت صياغة خاصة ، انتهت بها إلى هذا المصير المادى ، الذى أثر في مسيرة الشعوب الغربية والشرقية واتجاهاتها ، تأثيراً عاماً وحاسماً .

هذا عدا تاريخ الأقطار الشرقية الإسلامية ، وديانتها وحرركاتها وفلسفاتها ، وتاريخ الإسلام والمسلمين ، وتاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام ، من خلال الكتب المختصة بهذا الموضوع ، ومن خلال الشعر والأدب فكان أيسر لى نسبيا بفضل ثقافتى الدينية والأدبية والتاريخية ولأن موادها كانت متوفرة فى مكتبة ندوة العلماء الكبيرة ، ومكتبات شخصية ، وبفضل الاتصال الدائم بحركة الترجمة والنشر فى شبه القارة الهندية ومطالعة المجلات والصحف العلمية الراقية ، وما تنشره من بحوث ودراسات علمية .

زد الى ذلك التكوين العقلى والنفسى الممتاز ، المؤمن بخلود رسالة الإسلام ، وقيادة محمد عليه الصلاة والسلام وإمامته للأجيال البشرية عبر العصور ، وبالنقص الواقع فى طبيعة الحضارة الغربية ، ومزاج الأمم الغربية ، الذى لا يفارقها فى حال من

الأحوال ، وظهوره - فى شكل مجسم فى قيادتها ، وذلك نتيجة تربية أحدى الأكبر الدكتور السيد عبدالعلى الحسنى أمين ندوة العلماء العام ، الذى كان مثلاً فريداً فى الجمع بين الثقافتين الإسلامية والغربية العصرية ، وعمق فهمه للإسلام ، واتزانه الفكرى البعيد عن كل غلو وتطرف ، وقد جعلنى كل ذلك أنتفع من دراساتى المتنوعة - المتناقضة أحياناً المشوشة لكثير من القراء الذين لا يزالون فى سن المراهقة الفكرية - وأستخرج منها نتائج إيجابية معينة ، و « من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » وتزداد بها ثقتى بصلاح الإسلام للقيادة والسيادة فى كل عصر ، وإيمانى بأن محمداً ﷺ هو « خاتم الرسل ، وإمام الكل ، و منير السبل » وكنت أشعر بخطر الموضوع وأهميته ، وبقلة بضاعتى وحدائثى سننى ، وقلة أعوانى ، وجدة موضوع الكتاب وطرافته ، ولكن لم أكن فى الحقيقة مخيراً ، بل كنت مسيراً ، كأن هاجساً يهيجس فى ضميرى ، ويقول لى : لابد من وضع كتاب فى هذا الموضوع.

كان من أسباب استرعاء هذا الكتاب انتباه كثير من الناس وإثارته لدهشة الكثير منهم ، أن الموضوع كان طريفاً مبتكراً « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » أو ماذا سيربح العالم ويجنيه من الفوائد ، بتقدم المسلمين وتسلمهم لقيادة البشرية ؟

كان الناس قد اعتادوا فى ذلك العصر ، وقبل العصر الذى أُلّف فيه هذا الكتاب ، أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العالمى ، أو ينظروا إلى المسلمين كشعب عادى وكأمة من أمم كثيرة ، ولكن تشجع مؤلف هذا الكتاب وتخطى هذه الحدود المرسومة ، وخرج من الإطار التقليدى الذى فرض على المؤلفين والكتاب فى العرب والعجم ، وأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين ، وشتان بين النظرتين نظرة ينظر بها إلى المسلمين من خلال العالم ومن خلال الحوادث التى جرت فى العالم ، ومن خلال التطورات التى حدثت فى التاريخ ، المسلمون شعب من الشعوب يخضعون لما يجرى فى العالم فى إطار عالمى واسع ، فكان المنهج الفكرى العام وأسلوب البحث الدائم ، ماذا خسر المسلمون بسبب الحادث الفلانى ؟ ، وبسبب انقراض الحكومة الفلانية ، ماذا خسر المسلمون بسبب نهضة الغرب الحديثة؟ ماذا خسر المسلمون بسبب الثورة الصناعية الكبرى التى حدثت فى الغرب؟

ماذا خسر المسلمون بانقراض الخلافة العثمانية ؟ ماذا خسر المسلمون بفتح الغرب لكثير من قلاع الإسلام والمسلمين ؟ وماذا خسر المسلمون بفقرهم فى الاقتصاد ، وفى السياسة ، وفى القوة الحربية ؟

كان ذلك الطريق المرسوم التقليدى الذى اعتاده الناس ، ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى وشرح صدرى لأن أكتب فى موضوع ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ كأن المسلمين هم العامل العالمى المؤثر فى مجارى الأمور فى العالم كله ، ليس فى بقعة جغرافية محدودة ، أو منطقة سياسية خاصة ، هل المسلمون حقاً فى وضع يمكن أن يقال : إن العالم يخسر شيئاً بانحطاطهم ، هل المسلمون على مستوى يجوز أن يقال : إن العالم قد خسر شيئاً بتقهقرهم وبتخلفهم عن مجال القيادة العالمية ، إننى أخاف وأخشى أن كثيراً من الكتاب الإسلاميين الذين كانت لهم مواقف جلية وكانت لهم سوابق عديدة ، لم يفكروا هذا التفكير ، إن تشويه التاريخ الإسلامى والنظر إليه من زاوية ضيقة ، ومركب النقص الذى أصيب به الجيل الجديد المثقف ، كان يعوق كثيراً من الباحثين عن أن يربطوا قضية المسلمين بقضية العالم وبقضية الإنسانية ، أين المسلمون من القيادة العالمية ؟ المسلمون فقراء ، المسلمون ضعفاء ، المسلمون محكومون من الغرب ، المسلمون خاضعون للثورات الحديثة ، فهل يصح أن يربط مصير العالم أو مصير الإنسانية بمصير المسلمين وواقعهم ؟ ، لا ! إن كثيراً من الناس لم يكونوا يصدقون فى ذلك الحين أن المسلمين لهم من الأهمية والخطر والتأثير ومن المكانة ، ما يؤهلهم لهذا البحث ، ويسوغ لمؤلف أن يؤلف كتاباً فيبحث عن مدى خسارة العالم الإنسانى والعالم المعاصر بانحطاط المسلمين ، إن الموضوع كان خطيراً ، وكان البحث فيه شبه مجازفة ومغامرة علمية ، ولكن الله سبحانه وتعالى أعان على ذلك .

ألقت هذا الكتاب على تردد وتخوف ، لأننى كنت جديداً فى مجال التأليف

خصوصاً فى اللغة العربية ^(١) فقد كانت صلتى بها صلة دارس يولد بعيداً ويعيش

(١) سبق للمؤلف تأليف سلسلة « قصص النبيين للأطفال » ، (١ - ٢) و « القراءة الرشيدة » (١ - ٢ - ٣)

و « مختارات من أدب العرب » ، وكلها كتب دراسية ألقت لأبناء المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية فى المعاهد الدينية فى الهند .

بعيداً عن مركز الثقافة العربية وعن مركز العلوم الإسلامية الأصيل ، وكان يساورني شك ، هل ينال هذا الكتاب تقديراً في البيئات العربية والإسلامية البعيدة ، فأرسلت قائمة محتوياته إلى الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر في مصر ، ورئيس الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، وقد نالت كتبه خصوصاً سلسلة « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » ، إعجاب القراء الباحثين ، وكان لها دور في الأوساط العلمية ، وكنت معجباً بها ، وقد درستها دراسة عميقة ، وعلقت على آرائه بالموافقة في الغالب ، وبالنقد والاختلاف في بعض الأمكنة ، وأعجبت بأسلوبه المركز الذي يجري مع الطبع ، وآثرت أن يصدر هذا الكتاب من هذه المؤسسة العلمية التي كانت لها ولما يصدر منها قيمة علمية كبيرة في الشرق العربي ، فيقبل على قراءته الشباب المثقف والمعتنيون بالأبحاث العلمية والدراسات الموضوعية ، وأنا لا أعلم مصير هذه الأوراق التي تعطى فكرة إجمالية عن الكتاب ، ومؤلفه مجهول ليس له أثر علمي ولا شافع ولا مزك .

وفرجئت بكتاب تلقيته منه يطلب منى فيه نموذجاً من هذا الكتاب ، فأرسلت إليه قطعة من الكتاب .

وقعت موضوعات الكتاب ، والعناوين الجانبية التي كانت تدل على محتويات الكتاب ، وما حوته من مادة وبحوث ، من الدكتور موقعاً حسناً ولكنه تخوف أن يكون هذا الكتاب الذي صدر من قبل عالم ديني نشأ وتثقف بعيداً عن العالم الغربي يغلب عليه الطابع الديني واللغوي - شأن علماء الأزهر والمعاهد الدينية القديمة - فسأل هل استفاد المؤلف من المراجع الأجنبية ؟ فلما كان الجواب بالإيجاب وأرسل المؤلف ثبت المراجع الإنجليزية ، اطمأن الدكتور وأخبر بأن اللجنة قررت طبع هذا الكتاب ، وأبدى إعجابه بالكتاب سواءً من الناحية الأدبية أو الناحية المعنوية ، وكان اليوم الذي تلقى فيه المؤلف هذه الرسالة من الدكتور ، من أعظم أيام العمر فرحاً وسروراً ، لا ينساه المؤلف حتى هذا اليوم .

ومضت على ذلك شهور وأنا لا أعلم مصير هذا الكتاب ، وقد سافرت في أثناء هذه المدة إلى الحجاز للمرة الثانية ، وذلك في سنة ١٢٢٩ هـ (١٩٥٠ م)

وفوجئت بنسخة مطبوعة عند سفير سوريا الأستاذ جواد المرباط عضو المجمع العلمي بدمشق ، كان قد استصحبها من القاهرة ، وكان يبدى إعجابه بعمق فكر علماء الهند وأصالته ، مستشهداً بهذا الكتاب ، الذى وقع إلى يده فى زيارته القرية لمصر ، وهو لا يعرف أنه يتحدث إلى مؤلفه .

ومن السهل الميسور تقدير فرح المؤلف الشاب المغمور الذى يفاجأ بأثره العلمى التأليفى الأول الصادر من أكبر دور النشر ، فاستعاره من سعادة السفير ليرده إليه بعد مطالعته ، ولكنه فوجئ كذلك بأن المقدمة الصغيرة التى قدم بها الدكتور أحمد أمين هذا الكتاب ، لم تكن فيها تلك القوة التى كان يتوقعها المؤلف من كاتب إسلامى كبير كالدكتور أحمد أمين ، وكان متحفظاً شديد التحفظ فى إبداء انطباعاته عن الكتاب ومؤلفه .

ولم يكن الأمر غريباً - وإن كان ثقیلاً على المؤلف - فليس كل من يقدم كتاباً يتحمس للموضوع الذى كتب فيه ، فلا يكون ذلك إلا إذا كان المقدم يتجاوب مع فكرة المؤلف ويؤمن بها إيماناً عميقاً ، وليس كل باحث علمى وكاتب كبير - وإن كان فى درجة الدكتور أحمد أمين بك - يرى أن العالم قد خسر حقاً ، والإنسانية قد نكبت نكبة كبيرة بانحطاط المسلمين ، وانسحابهم عن ميدان القيادة والتوجيه العالمى ، فذلك نمط خاص للتفكير والتفسير للتاريخ ، ليس من اللازم أن يقتنع به كل مؤلف ودارس . وليست التبعة على الدكتور أحمد أمين - وفضله لا ينكر فى نشر هذا الكتاب من لجنة التأليف والترجمة والنشر الموقرة - ولكن التبعة على مؤلف الكتاب الذى أمل فيه الآمال البعيدة ، وحمله ما لم يتهيأ له فكراً وعلمياً ولم تساعد ظروفه التربوية والدراسية الخاصة على انتهاج هذا المنهج ، ثم لعل الدكتور أحمد أمين الذى كان يعتبر من أساتذة الجيل الجديد ومن كبار المؤلفين والأدباء ، خاف - وله الحق - أن يعطى المؤلف الذى لا يعرفه معرفة شخصية ولم يتحقق مستواه العلمى والنظرة التى ينظر بها إليه مواطنوه وعلماء بلاده ، أكثر مما يستحق ، فيقال إنه كساه ثوباً سابغاً فضفاضاً أكبر من قامته وقيمته ، وسامحه الله وجزاه عن المؤلف والقراء أحسن الجزاء ، فقد كان السبب فى وصول هذا الكتاب إلى الأوساط العلمية المتنورة التى لا تعير كتاباً يصدر عن مؤسسة دينية ، شيئاً من العناية والاهتمام .

واتفقت رحلة المؤلف إلى مصر في يناير سنة ١٩٥١م بعد ما مضى على صدور هذا الكتاب شهران أو أكثر، فوجد أن الكتاب قد شق طريقه إلى الأوساط العلمية والدينية وحل منها محلاً لم يكن يتوقعه المؤلف بل يحلم به ، وقد قرئ في نطاق واسع من المثقفين والمعنيين بقضية الإسلام وانتفاضته ، وصحوة المسلمين ، وكان نشاط « الإخوان المسلمون » قد بدأ يدب ، وخفف الخناق عليهم بعض التخفيف ، وكان هذا الكتاب قد جاء في أوانه ومكانه وتناغم مع شعورهم وما يدعو إليه ، وكان الجرح عميقاً ودامياً شهادة الإمام الشهيد وحل حركة الإخوان ، فجاء هذا الكتاب مسلياً معزياً ، بل كسلاح علمي يدافعون به عن فكرتهم ، وشحنة جديدة وزاداً ومدداً « لبطارياتهم » فقرأوه في المعتقلات ، وقرروه في منهج الدراسة والمطالعة ، واستشهدوا ببعض عباراته في المحاكم ، واستقبلوا - بطبيعة الحال - مؤلفه بحماس وحب ، وكان الكتاب خير معرف للمؤلف الزائر الجديد ، وممهداً للثقة به والحديث معه .

وكان الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ سيد قطب في مقدمة من رحب بهذا الكتاب ، وعنى به ، وشجع تلاميذه وإخوانه على مطالعته ، وفي يوم من الأيام (١) تلقى المؤلف دعوة من الأستاذ سيد قطب لحضوره ندوة تجتمع في منزله بحلول كل جمعة ، تبحث في موضوع إسلامي ، أو تستمع إلى تلخيص كتاب بقلم أحد الحاضرين وتتناول البحث فيه ، وكان الموضوع ذلك اليوم كتاب « ماذا خسر العالم » وقد لخصه أحد تلاميذه من خريجي جامعة فؤاد الأول ، فلبى المؤلف هذه الدعوة الكريمة الحبيبة التي هي رمز لتقدير مجهوده العلمي الكتابي المتواضع وتشريف له ، فحضر هذه الندوة وساهم في البحث ، وأجاب عن بعض الأسئلة الموجهة إليه كمؤلف .

وهناك بدت له فكرة الطلب من الأستاذ سيد قطب ليقدم هذا الكتاب بقلمه المؤمن القوى ، وأسلوبه العلمي الهادف ، وقبل الأستاذ سيد قطب هذه الدعوة بسرور وحماس ، وكتب تلك المقدمة القوية التي زادت في قيمة الكتاب وقوته (٢)

(١) كان ذلك في ١٩ / ٨ / ١٣٧٠ هـ - ٢٥ / من نيسان ١٩٥١م (مذكرات سائح في الشرق العربي) .

(٢) وإلى القارئ مقتطف صغير من تقديم الأستاذ سيد قطب :

وصادف ذلك طلب الأستاذ الفاضل والعالم المؤمن الدكتور محمد يوسف موسى ، أستاذ كلية أصول الدين في الأزهر ، ورئيس جماعة الأزهر للتأليف والترجمة والنشر - الذى كان من كبار المعجبين بهذا الكتاب المنوهين به ، والحافزين على قراءته - إصدار الطبعة الثانية المنقحة من جماعة الأزهر (١) فسمح له المؤلف شاكراً مسروراً ، أخذ الدكتور التصريح والموافقة من الدكتور أحمد أمين ، وكتب مقدمة يتجلى فيها إخلاصه وحبه ، واستجابته للفكرة ، حلى بها جيد الكتاب (٢) وفاجأ المؤلف صديقه الدكتور أحمد الشرباصى أحد علماء الأزهر وأساتذته ، فى إحدى زيارته ، فاختمت منه معلومات عن أسرته وبيئته ونشأته ودراسته وحياته ، لا يعلم المؤلف ماذا سيصنع بها ، فكون بها مقالاً عن المؤلف عنوانه بـ « أخى أبو الحسن » (صورة وصفية) وضمه إلى الكتاب ولم يعلم به المؤلف إلا حين صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٥٣ م وتلت هذه الطبعة طبعات ، وترجمات فى لغات الشرق والغرب وها هى ذى الطبعة الثالثة عشرة القانونية .

وهذه قصة الكتاب فى إيجاز وصدق وصراحة ولله المن والفضل أولاً وآخراً .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

٢٠ رجب ١٤٠١ هـ

٢٥ مايو ١٩٨١ م

« إن الخصيصة البارزة فى هذا الكتاب كله هى الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية فى محيطها الشامل ، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الدينى والإجتماعى فحسب ، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغى أن يكتب من الزاوية الإسلامية » .

ويقول :

« من هنا يعد هذا الكتاب نموذجاً للتاريخ ، كما يجب أن يتناوله المسلمون مستقلين عن التأثير بالطريقة الأوروبية ، التى ينقصها هذا التناسق وهذه العدالة وهذا التحقيق » .

(١) وذلك فى ٣ / من حزيران ١٩٥١ م .

(٢) ومما جاء فى هذه المقدمة قوله :

« وأشهد لقد قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى فى أقل من يوم ، وأغرمت به غراماً شديداً ، حتى لقد كتبت فى آخر نسختى وقد فرغت منه « إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام » .

الباب الأول

العصر الجاهلي

الفصل الأول

الإنسانية في الاحتضار

كان القرن السادس والسابع (لميلاد المسيح) من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف ، فكانت الإنسانية متدلّية منحدرّة منذ قرون ، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردى ، فقد زادت الأيام سرعة فى هبوطها وشدة فى إسفافها ، وكأن الإنسان فى هذا القرن قد نسى خالقه ، فنسى نفسه ومصيره ، وفقد رسله ، وقوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقيبح ، وقد خفت دعوة الأنبياء من زمن ، والمصاييح التى أوقدوها قد انطفأت من العواصف التى هبت بعدهم أو بقيت ، ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب فضلاً عن البيوت فضلاً عن البلاد ، وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، ولاذوا إلى الأديرة والكنائس والخلوات ، فراراً بدينهم من الفتن وضناً بأنفسهم ، أو رغبة إلى الدعة والسكون ، وفراراً من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلاً فى كفاح الدين والسياسة والروح والمادة ، ومن بقى منهم فى تيار الحياة اصطلع مع الملوك وأهل الدنيا ، وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل .. على حساب الضعفاء والمحكومين ، وإن الإنسانية لا تشقى بتحول الحكم والسلطان والرفاهية والنعيم من فرد إلى فرد آخر من جنسه ، أو من جماعة إلى جماعة أخرى مثلها فى الجور والإستبداد وحكم الإنسان للإنسان ، وإن هذا الكون لا يتفجع ولا يتألم فقط بانحطاط أمة أدرکها الهرم وسرى فيها الوهن ، وسقوط دولة تأكلت جذورها وتفككت أوصالها ، بل بالعكس تقتضى ذلك سنة الكون ، وإن دموع الإنسان لأعز من أن تفيض كل يوم على ملك راحل وسلطان زائل ، وإنه لفى غنى ، وإنه لفى شغل عن أن يندب من لم يعمل يوماً لإسعاده ، ولم يكدح ساعة لصالحه ، وإن السماء والأرض لتقسوان كثيراً على هذه الحوادث التى تقع ووقعت كل يوم ووقعت ألوف المرات ﴿ كمر تركوا من جنات وعيون ﴾ وزروع ومقام كرير * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا

منظرين ﴿الدخان: ٢٥-٢٩﴾ .

بل إن كثيراً من هؤلاء السلاطين والأمم كانوا كلا على ظهر الأرض ، وويلاً للنوع الإنساني ، وعذاباً للأمم الصغيرة والضعيفة ، ومنبع الفساد والمرض في جسم المجتمع البشري يسرى منه السم في أعصابه وعروقه ، ويتعدى المرض إلى الجسم السليم ، فكان لابد من عملية جراحية ، وكان قطع هذا الجزء السقيم وإبعاده من الجسم السليم مظهراً كبيراً لربوبية رب العالمين ورحمته ، يستوجب الحمد والامتنان من جميع أعضاء الأسرة الإنسانية ، بل من جميع أفراد الكون ﴿فقطّع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ ، ولكن لم يكن انحطاط المسلمين وزوال دولتهم وركود ريعهم - وهم حملة رسالة الأنبياء ، وهم للعالم البشري كالعافية للجسم الإنساني - انحطاط شعب أو عنصر أو قومية ، فما أهون خطبه وما أخف وقعه ، ولكنه انحطاط رسالة هي للمجتمع البشري كالروح ، وانهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا .

فهل كان انحطاط المسلمين واعتزالهم في الواقع مما يأسف له الإنسان في شرق الأرض وغربها ، وبعد قرون مضت على الحادث ؟ وهل خسر العالم حقاً - وهو غنى بالأمم والشعوب - بانحطاط هذه الأمة شيئاً ؟ وفيم كانت خسارته ووزيته ؟

وماذا آل إليه أمر الدنيا ، وماذا صارت إليه الأمم بعدما تولت قيادها الأمم الأوروبية حتى خلفت المسلمين في النفوذ العالمي ، وأسست دولة واسعة على أنقاض الدولة الإسلامية ؟ وماذا أثر هذا التحول العظيم في قيادة الأمم وزعامة العالم في الدين والأخلاق والسياسة والحياة العامة وفي مصير الإنسانية ؟

وكيف يكون الحال لو نهض العالم الإسلامي من كبوته وصحا من غفوته ، وتملك زمام الحياة ؟

ذلك كله ما نحاول الإجابة عنه في الصفحات الآتية !

أبو الحسن علي الحسيني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

لم يكن انحطاط المسلمين أولاً ، وفشلهم وانعزالهم عن قيادة الأمم بعد ، وانسحابهم من ميدان الحياة والعمل أخيراً ، حادثاً من نوع ما وقع وتكرر فى التاريخ من انحطاط الشعوب والأمم ، وانقراض الحكومات والدول ، وانكسار الملوك والفاثين ، وانهزام الغزاة المنتصرين ، وتقلص ظل المدينيات . والجزر السياسى بعد المد فما أكثر ما وقع مثل هذا فى تاريخ كل أمة . وما أكثر أمثاله فى تاريخ الإنسان العام ! ولكن هذا الحادث كان غريباً لا مثيل له فى التاريخ . مع أن فى التاريخ مثلاً وأمثلة لكل حادث غريب .

لم يكن هذا الحادث يخص العرب وحدهم ، ولا يخص الشعوب والأمم التى دانت بالإسلام ، فضلاً عن الأسر والبيوتات التى خسرت دولتها وبلادها . بل هى مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس منها ولا أعم منها . فلو عرف العالم حقيقة هذه الكارثة ، ولو عرف مقدار خسارته ورزيقته ، وانكشف عنه غطاء العصبية ، لاتخذ هذا اليوم النحس - الذى وقعت فيه - يوم عزاء ورتاء ، ونياحة وبكاء . ولتبادلت شعوب العالم وأمه التعازى . ولبست الدنيا ثوب الحداد ، ولكن ذلك لم يتم فى يوم . وإنما وقع تدريجياً فى عقود من السنين . والعالم لم يحسب إلى الآن الحساب الصحيح لهذا الحادث . ولم يقدره قدره وليس عنده المقياس الصحيح لشقائه وحرمانه .

إن العالم لا يخسر شيئاً بانقراض دولة ملكت حيناً من الدهر . وفتحت مجموعاً من البلاد والأقاليم . واستعبدت طوائف من البشر . ونعمت وترفعت .

نظرة فى الأديان والأمم ،

أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست فى معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوى ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشرى .

* المسيحية في القرن السادس المسيحي *

لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان ، بحيث تقوم عليه حضارة ، أو تسير في ضوئه دولة ، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح ، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط ، فجاء بولس فطمس نورها ، وطعمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها ، والوثنية التي نشأ عليها ، وقضى قسطنطين على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية اضمحلت في جنبها تعاليم المسيح البسيطة كما تلاشى القطرة في اليم ، وعادت نسيجاً خشبياً من معتقدات وتقاليد لا تغذى الروح ، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحياة ، ولا تنير السبيل ، بل أصبحت بزيادات المحرفين ، وتأويل الجاهلين ، تحول بين الإنسان والعلم والفكر ، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية ، يقول (زعيمها) مترجم القرآن إلى الإنكليزية عن نصارى القرن السادس الميلادي : « وأسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر »^(١)

* الحرب الأهلية في الدول الرومية *

ثم ثارت حول الديانة وفي صميمها مجادلات كلامية ، وسفسطة من الجدل العقيم شغلت فكر الأمة ، واستهلكت ذكائها ، وابتلعت قدرتها العملية ، وتحولت في كثير من الأحيان حروباً دامية ، وقتلاً وتدميراً وتعذيباً ، وإغارة وانتهاكاً واغتيالاً ، وحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينية متنافسة وأقحمت البلاد في حرب أهلية ، وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر ، أو بين (الملكانية) و (المنوفيسية) بلفظ أصبح فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفيسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة ، وهي الإلهية التي ثلاثت فيها طبيعة المسيح البشرية ،

(١) Sale's Translation, P.62 (1896)

كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له ، وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى ، كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شيء يقول الدكتور ألفرد . ج . بتلر :

« إن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكىه اختلاف في الجنس واختلاف في الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس ، إذ كانت علة العلل في ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكية والمنوفيسية ، وكانت الطائفة الأولى - كما يدل عليها اسمها - حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة ، وهي ازدواج طبيعة المسيح ، على حين أن الطائفة الأخرى وهي حزب القبط المنوفيسيين - أهل مصر - كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها ، وتحاربها حرباً عنيفة في حماسة هوجاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها في قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالإنجيل » (١) .

وحاول الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس سنة ٦٣٨ جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يتمتع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد . وفي صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك وصار المذهب المنوئيلي مذهباً رسمياً للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية ، وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عده من المذاهب المختلفة له متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل ، ولكن القبط نابذوه العداء وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة ، وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف ، فافتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة ، وأما المسألة الأخرى

(١) فتح العرب لمصر ، تعريب محمد فريد أبو حديد ، ص ٣٧ - ٣٨

وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل ، فأرجأ القول فيه ، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراتها ، وجعل ذلك رسالة رسمية ، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقي ، ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر ووقع اضطهاد فظيع على يد قيرس في مصر استمر عشر سنين ، وقع خلالها ما تقشع منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون إغراقاً ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبيين إلى الأرض ، ويوضع السجين في كيس مملوء من الرمل ويرمى به في البحر ، إلى غير ذلك من الفظائع .

* الانحلال الاجتماعي والقلق الاقتصادي .

بلغ الانحلال الاجتماعي غايته في الدولة الرومية والشرقية وعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات ، وتضاعفت الضرائب . حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات ، ويمقتونها مقتاً شديداً . ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية ، وكانت الإيجارات والمصادرات ضغثاً على إباله ، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات . وقد هلك عام ٥٣٢ في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة (١) ، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه ، ووصلوا في التبذل إلى أحط الدرجات ، وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه ، ثم إنفاقه في الترف وإرضاء الشهوات .

ذابت أسس الفضيلة ، وانهارت دعائم الأخلاق . حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية (٢) ، وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع . وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع (٣) .

يقول (جيبون) : « وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها

Encycloepadia Britanica. See Justin (١)

The History of Decline and Fall of the Roman Empire by Ed- (٢)
ward Gippon V . 3 . P.

Sale's Translation p. 72 " 1896 " (٣)

وهبوطها الى آخر نقطة ^(١) وكان مثلها كمثّل دوحة عظيمة كانت أمّ العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف . ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً ^(٢) » ويقول مؤلفو (تاريخ العالم والمؤرخين) : « إن المدن العظيمة التي أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً ، تشهد بما أصيبت به الدولة البيزنطية في هذا العهد من الانحطاط الهائل الذي كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة ، وإهمال الزراعة ، وتناقص العمران في البلدان ^(٣) » .

* مصر في عصر الدولة الرومية ديانة واقتصاداً :

أما مصر ذات النيل السعيد ، والخصب المزيّد ، فكانت في القرن السابع من أشقى بلاد الله بالنصرانية ، وبالدولة الرومية معاً ، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومناظرات في طبيعة المسيح ، وفي فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية . وقد ظهرت في القرن السابع في شر مظاهرها ، وأنهكت قوى الأمة العقلية وأضعفت قواها العملية ، وأما الأخرى فلم تلق منها إلا اضطهاداً دينياً فظيماً واستبداداً سياسياً شنيعاً تجرعت في سبيلهما من المرائر في عشر سنين ما ذاقته أوروبا في عهد التفتيش الديني في عقود من السنين ، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطار الحياة ، وعن كل مهمة شريفة من مهمات الدين والروح ، فلا هي تتمتع بالحرية السياسية رغم كونها مستعمرة رومية ، ولا هي تتمتع بالحرية الدينية والعقلية رغم كونها نصرانية .

يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) :

The History of Decline and Fall of the Roman Empire (٢، ١)

V . Y.p. 13

Historian's History of the World V. VII p. 175 (٣)

« ولقد أكرهت مصر على انتقال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربى ، وكان اليأس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التى كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة فى ذلك الزمن وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات وكانت مصر التى أكلتها الانقسامات الدينية ، وأنهاكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد على سادتها الروم ، وتنتظر ساعة تحريرها من برائن قياصرة القسطنطينية الظالمين (١) »

ويقول الدكتور الفرد . ج . بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) :

« فالحق أن أمور الدين فى القرن السابع كانت فى مصر أكبر خطراً عند الناس من أمور السياسة ، فلم تكن أمور الحكم هى التى قامت عليها الأحزاب ، واختلف بعضها عن بعض فيها ، بل كان كل الخلاف على أمور العقائد والديانات ، ولم يكن نظر الناس إلى الدين أنه المعين يستمد منه الناس ما يعينهم على العمل الصالح ، بل كان الدين فى نظرهم هو الاعتقاد المجرد فى أصول معينة .

« فكان اختلاف الناس ومناظراتهم العنيفة كلها على خيالات صورية من فروق دقيقة بين المعتقدات ، وكانوا يخاطرون بحياتهم فى سبيل أمور لا قيمة لها ، وفى سبيل فروق فى أصل الدين وفى فلسفة ما وراء الطبيعة يدق فهمها ، ويشق إدراكها (٢) ».

هذا ، وقد اتخذها الروم شاة حلوباً يريدون أن يستنزفوا مواردها ، ويمتصوا دمها ، يقول ألفرد :

« إن الروم كانوا يجلبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد .. مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة ، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل (٣) ».

(١) حضارة العرب ، تعريب عادل زعير ، الفصل الرابع « العرب فى مصر » صفحة ٣٣٦ .

(٢) فتح العرب لمصر ، ص ٤٧ .

(٣) المصدر السابق .

ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين) :

« إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعاً كبيراً من حاصلها ومنتجاتها ، وكانت طبقات الفلاحة المصرية - مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ - مرغمة على أداء الخراج للدولة الرومية ككراء الأرض فضلاً عن الضرائب ، وكانت ثروة مصر في هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط (١) ».

وهكذا اجتمع لمصر من الاضطهاد الديني ، والاستبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي ما شغلها بنفسها ، وكدر عليها صفو حياتها ، وألهاها عن كل مكرمة .

* الحبشة *

أما جارتها الحبشة فكانت على المذهب (المونوفيسي) كذلك ، وكانت مع ذلك تعبد أوثاناً كثيرة استعارت بعضها من الهمجية ، ولم يكن التوحيد إلا ضرباً راقياً من الوثنية خلعت عليها لباساً من علم ومصطلحات نصرانية ، ولم تكن في الدين بذات روح ، ولا في الدنيا بذات طموح ، وقد قضى مجمع (نيقية) أن ليس لها استقلال بأمورها الدينية ، وإنما هي تابعة للكرسي الإسكندري .

* الأمم الأوروبية الشمالية الغربية *

أما الأمم الأوروبية المتوغلة في الشمال والغرب فكانت تتسكع في ظلام الجهل المطبق ، والأمم الفاشية ، والحروب الدامية ، لم ينبثق فيها فجر الحضارة والعلم بعد ، ولم تظهر على مسرحها الأندلس لتؤدي رسالتها في العلم والمدنية ، ولم تصهرها الحوادث ، وكانت بمعزل عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية بعيدة عنها ، لا تعرف عن العالم ولا يعرف العالم المتمدن عنها إلا قليلاً ، ولم تكن - مما يجرى في الشرق والغرب مما يغير وجه التاريخ - في غير ولا نفير ، وكانت بين نصرانية وليدة ، ووثنية شائبة ، ولم تكن بذات رسالة في الدين ، ولا بذات راية في السياسة .

(١) Historian's History of the World, V. VII p. 173

يقول هـ . ج . ويلز :

« ولم تكن فى أوربا الغربية فى ذلك العهد أمارات الوحدة والنظام ^(١) »

ويقول (Robert Briffault) :

(لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً . قد كانت همجية ذلك العهد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم ، لأنها كانت اشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التى ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها فى الماضى ، كإيطاليا وفرنسا ، فريسة الدمار والفوضى والخراب ^(٢) »

* اليهود :

وكانت فى أوربا وآسيا وإفريقيا أمة هى أغنى أمة الأرض مادة فى الدين ، وأقربها فهماً لمصطلحاته ومعانيه ، أولئك هم اليهود ، ولكن لم يكونوا عاملاً من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر فى غيرهم ، بل قضى عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم ، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد ، والنفى والجلاء والعذاب والبلاء ، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفرّدوا به بين أمة الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية ، والاذلال بالنسب ، والجشع وشهوة المال وتعاطى الربا ، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد فى أمة ، وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الأعصار والأجيال ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل والنفاق فى عامة الأحوال ،

(١) A Short History of the World. H. G. Wels

(٢) The Making of Humanity, Robert Briffault p. 164

والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ، وقد وصفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً عميقاً يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خلقى ، وانحطاط نفسى ، وفساد اجتماعى ، عزلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم .

* بين اليهود والمسيحيين :

وقد تجدد فى أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم إلى المسيحيين ، وبغض المسيحيين إليهم وشوه سمعتهم ، وفى السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠ م) أوقع اليهود بالمسيحيين فى أنطاكية ، فأرسل الامبراطور قائده « أبوسوس » ليقضى على ثورتهم ، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعاً ، قتلاً بالسيف ، وشنقاً وإغراقاً وتعذيباً ، ورمياً للوحوش الكاسرة .

وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة . قال المقرئى فى كتاب الخطط : « وفى أيام فوقا ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم وأتوا إلى مصر فى طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر وساعدهم اليهود فى محاربة النصارى وتخريب كنائسهم . وأقبلوا نحو الفرس من طبرية وجبل الجليل ، وقرية الناصرية صور ، وبلاد القدس ، فنالوا من النصارى كل منال ، وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيسةين بالقدس ، وأحرقوا أماكنهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه (١) » .

إلى أن قال بعد أن ذكر فتح الفرس لمصر :

« فثارت اليهود فى أثناء ذلك بمدينة صور وأرسلوا بقيتهم فى بلادهم وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب اجتمع فيها من

(١) كتاب الخطط المقرئى ، ج ٤ ص ٣٩٢ .

اليهود نحو عشرين ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور فقوى النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة وقتل منهم كثير ، وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنهم ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجميلة وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خراباً ، فسأه ذلك وتوجع له ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وإيقاعهم بالنصارى وتخريب الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس وقاموا قياماً كبيراً فى قتلهم من آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقعة بهم ، وحسنوا له ذلك فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم ، فإنهم عملوا حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه على ممر الزمان والدهور ، فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم إلا من فر واختفى إلخ » .

وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان ، اليهود والنصارى ، من القسوة والضرارة بالدم الإنسانى وتحين الفرص للنكاية فى العدو ، وعدم مراعاة الحدود فى ذلك ، وبهذه الأخلاق المنحطة والاستهانة بحياة الإنسان لا يمكن لطائفة أو أمة أن تؤدى رسالة الحق والعدل والسلام ، وتسعد البشرية فى ظلها وتحت حكمها .

* إيران والحركات الهدامة فيها *

أما فارس التى شاطرت الروم فى حكم العالم المتمدن فكانت الحقل القديم لنشاط كبار الهدامين الذى عرفهم العالم ، كان أساس الأخلاق متزعزعا مضطرباً منذ عهد عريق فى القدم ، ولم تزل المحرمات النسبية التى تواضعت على حرمتها ومقتها طبائع أهل الأقاليم المعتدلة موضع خلاف ونقاش ، حتى إن يزدجرد الثانى الذى

حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنته ثم قتلها^(١) ، وأن بهرام جوبين الذي تملك في القرن السادس كان متزوجاً بأخته^(٢) .

يقول البروفسور « أرتهر كرستن سين » أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة كوبنهاجن بالدنمارك المتخصص في تاريخ إيران في كتابه (إيران في عهد الساسانيين) :

« إن المؤرخين المعاصرين للعهد الساساني مثل (جاتيهاس) وغيره يصدقون بوجود عادة زواج الإيرانيين بالحرمان ، ويوجد في تاريخ العهد الساساني أمثلة لهذا الزواج ، فقد تزوج بهرام جوبين وتزوج جشتاسب قبل أن يتنصر بالحرمان (٣) ، ولم يكن يعد هذا الزواج معصية عند الإيرانيين ، بل كان عملاً صالحاً يتقربون به إلى الله ، ولعل الرحالة الصيني (هوئن سوئنج) أشار إلى هذا الزواج بقوله : إن الإيرانيين يتزوجون من غير استثناء (٤) » .

ظهر « ماني » في القرن الثالث المسيحي ، وكان ظهوره رد فعل عنيف غير طبعي ضد النزعة الشبهوية السائدة في البلاد ، ونتيجة منافسة النور والظلمة الوهمية فدعا إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، وأعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه ، فحرم النكاح استعجالاً للفناء وانتصاراً للنور على الظلمة بقطع النسل ، وقتله بهرام سنة ٢٧٦ م قائلاً إن هذا خرج داعياً إلى تخريب العالم فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه قبل أن يتهيأ له شيء من مراده ، ولكن تعاليمه لم تمت بموته بل عاشت إلى ما بعد الفتح الإسلامي .

ثم ثارت روح الطبيعة الفارسية على تعاليم ماني المجحفة ، وتقمصت دعوة مزدك الذي ولد ٤٨٧ م فأعلن أن الناس ولدوا سواء لا فرق بينهم ، فينبغي أن يعيشوا سواء لا فرق بينهم ، ولما كان المال والنساء مما حرصت النفوس على حفظه

(١) Historian's History of the World V.8.P. 84.

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٣٨ .

(٣) إيران في عهد الساسانيين . ترجمة الدكتور محمد إقبال من الفرنسية إلى الأردية ص ٤٣٩ .

(٤) « إيران في عهد الساسانيين » ص ٤٣٠ .

وحراسته كان ذلك عند مزدك أهم ما تجب فيه المساواة والاشترار .

قال الشهرستاني (١) : « أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ » وحظيت هذه الدعوة بموافقة الشبان والأغنياء والمترفين وصادفت من قلوبهم هوى ، وسعدت كذلك بحماية البلاط فأخذ قباذ يناصروها ونشط في نشرها وتأيدوها حتى انغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية وطفيان الشهوات ، قال الطبري : « افترس السفلة ذلك واغتموا وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل في داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزوين ذلك وتوعده فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك شيئاً مما يتسع به (٢) » إلى أن قال : « ولم يزل قباذ من خيار ملوكهم حتى حمله مزدك على ما حمله عليه فانتشرت الأطراف وفسدت الثغور (٣) » .

* تنقيس الأكاسرة :

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً فكانوا يكفرون لهم ، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ويرونهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر ، لا يجري اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق ، وليس للناس قبلهم إلا السمع والطاعة ، وخصصوا بيتاً معيناً - وهو البيت الكياني

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٨٦ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٨٨ .

(٣) المصدر السابق .

فكانوا يعتقدون أن لأفراده وحدهم الحق أن يلبسوا التاج ويجبوا الخراج ، وهذا الحق ينتقل فيهم كابراً عن كابر وأباً عن جد لا ينازعهم ذلك إلا ظالم ولا ينافسهم إلا دعي نذل ، فكانوا يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك لا يسغون به بدلاً ولا يريدون عنه محيصاً ، فإذا لم يجدوا من هذه الأسرة كبيراً ملكوا عليهم طفلاً ، وإذا لم يجدوا رجلاً ملكوا عليهم امرأة فقد ملكوا بعد شيرويه ولده أزدشير وهو ابن سبع سنين وملك فرخ زاد خسرو ابن كسرى أبرويز وهو طفل وملكوا بوران بنت كسرى ، وملك كذلكاينة كسرى ثانية يقال لها أزرمت دخت (١) ولم يخطر ببالهم أن يملكوا عليهم قائداً كبيراً أو رئيساً من رؤسائهم مثل رستم وجابان وغيرهما لأنهم ليسوا من البيت الملكي .

* التفاوت بين الطبقات *

وكذلك اعتقادهم في البيوتات الروحية والأشراف من قومهم ، فيرونهم فوق العامة في طينتهم ، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم . ويعطونهم سلطة لا حد لها ، ويخضعون لهم خضوعاً كاملاً - يقول البروفسور أرتهرسين مؤلف تاريخ (إيران في عهد الساسانيين) :

« كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النسب والحرف ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة (٢) ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمر أو كبير (٣) ، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه ، ولا يستشرف لما فوقه (٤) ، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفه (٥) غير الحرفة التي خلقه الله لها (٦) ،

(١) راجع تاريخ الطبري ج ٢ ، وتاريخ إيران لمكاريوس .

(٢) « إيران في عهد الساسانيين » ص ٥٩٠ .

(٣) أيضاً ص ٤٢٠ . (٤) أيضاً ص ٤١٨ .

(٥) أيضاً ص ٤١٨ . (٦) أيضاً ص ٤٢٢ .

وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفه من وظائفهم^(١) ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع^(٢) .

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتهان للإنسانية يظهر لك جلياً في مجالس الأمراء والأشراف ، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ويجلسون مزجر الكلب ، وقد أكبر ذلك رسول المسلمين وأنكره ، ويتبين مما روى الطبري ما وصل اليه الفرس من الاستكانة والخضوع لسادتهم جرياً على عاداتهم ، قال :

« عن أبي عثمان النهدي قال : لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس أجلسوه واستأذنوا رستم في إجازته ، ولم يغيروا شيئاً من شاراتهم تقوية لتهاونهم ، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة ، ولا يصل إلى صاحبهم حتى يمشی عليها غلوة ، وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشی حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغشوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسي ، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتوني . اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول^(٣) . »

(١) أيضاً ص ٤٢٢ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ٤٢١ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ١٠٨ .

* تمجيد القومية الفارسية *

ثم يبالغون في تمجيد القومية الفارسية ويرون أن لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحداً ، وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتهان ، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية .

* عبادة النار وتأثيرها في الحياة *

كانوا في الزمن القديم يعبدون الله ويسجدون له ، ثم جعلوا يمجّدون الشمس والقمر والنجوم وأجرام السماء مثل غيرهم من الأوائل ، وجاء زرادشت صاحب الديانة الفارسية فيقال : إنه دعا إلى التوحيد وأبطل الأصنام ، وقال : إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون ، وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار ساعة الصلاة لأن النور رمز إلى الإله وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي : النار والهواء والتراب والماء ، وجاء بعده علماء سنوا للزردشتيين شرائع مختلفة فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار فاقتصروا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة ، ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرج الناس إلى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عيناً وينون لها هياكل ومعابد ، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجهلت الحقيقة ونسى التاريخ (١) .

ولما كانت النار لا توحى إلى عبادها بشرية ولا ترسل رسولاً ، ولا تتدخل في شئون حياتهم ، ولا تعاقب العصاة والمجرمين أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة في ساعات خاصة . أما في خارج المعابد ، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم ، وفي السياسة والاجتماع ، فكانوا أحراراً يسبّرون على هواهم وما تملئ عليهم نفوسهم . أو ما يؤدي إليه تفكيرهم ، أو ما توحى به مصالحهم ومنافعهم ، شأن المشركين في كل عصر ومصر .

(١) انظر تاريخ إيران تأليف شاهين مكاربوس ص ٢٢١ - ٢٢٤ .

وهكذا حرمت الأمة الفارسية في حياتها ديناً عميقاً جامعاً يكون تربية للنفس وتهذيباً للخلق ، وقامعاً للشهوات ، وحافزاً على التقوى وفعل الخيرات ، ويكون نظاماً للأسرة وتديراً للمنزل ، وسياسة للدولة ، ودستوراً للأمة ، ويحول بين الناس وطغيان الملوك ، وعسف الحكام ، يأخذ على يد الظالم ، وينتصف للمظلوم وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين اللادينيين والإباحيين في الأخلاق والأعمال .

* الصين : ديانتها ونظمها :

وكانت تسود الصين في هذا القرن ثلاث ديانات . ديانة « لاوتسو » وديانة « كونفوشيوس » والبوذية ، أما الأولى ففضلاً عن أنها تحولت وثنية في عهد قريب فهي تعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات ، وكان أتباعها متقشفين زاهدين ، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة ولا يتصلون بها اتصالاً ، فلم يكن لها أن تكون أساً لحياة سديدة أو حكومة رشيدة ، حتى التجأ الذين جاءوا بعد مؤسسها إلى مخالفته والعدول عنه إلى غيره .

وأما « كونفوشيوس » فقد كان يعنى بالعمليات أكثر من النظريات ، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون هذه الدنيا وتدير الأمور المادية والسياسية والإدارية ، وقد كان أتباعه لا يعتقدون - في بعض الأزمنة - بعبادة إله معين ، فيعبدون ما يشاءون من الأشجار والأنهار ، وليس فيها نور من يقين ولا باعث من إيمان ولا شرع سماوى ، وإنما هو حكمة حكيم وتجارب خبير ، يستفيد بها الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء .

* البوذية - تطوراتها وانحطاطها :

أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها ، وابتلعتها البرهمية الثائرة المتورة فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل . وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت . وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي

ظهرت في عهد ازدهار البوذية (١). يقول الأستاذ « إيشوراتوبا » استاذ تاريخ الحضارة الهندية في إحدى جامعات الهند : « لقد قامت في ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل وتغير محيط العلاقات الأخوية البوذية ، وظهرت فيها البدع (٢). ولاحظ ذلك أيضاً أحد الكتاب العصريين ، وكبار السياسيين في الهند فقال :

« جعلت البرهمية بوذا مظهراً للآلهة ، وقلدتها في ذلك البوذية نفسها ، وأصبحت الرابطة الأخوية البوذية تملك ثروة هائلة ، وأصبحت مركزاً لمصالح جماعات خاصة ، وفقدت النظام ، وتسرب إلى مناهج العبادة السحر والأوهام ، وبدأت الديانة تتقهقر وتنحط بعدما سادت في الهند وازدهرت ألف سنة ، وقد ذكرت لخن رضى خطن صون هذا ما أصيبت به الديانة البوذية في هذا العهد من الوهن والاعتلال فقالت كما نقل عنها « سير رادها كرشنن » في كتابه « الفلسفة الهندية » :

« لقد أظلت الأفكار العلييلة تعليم بوذا الخلقى حتى توارى وراء هذه التخيلات السقيمة ، لقد نشأ مذهب جديد في الديانة وازدهر ، وملك على الناس القلوب ، ثم اضمحل وخلفه مذهب آخر ، وهلم جرا ، حتى تراكمت هذه الأوهام الخلابة ، وحجبت الجو وساد الظلام ، وقد اضمحلت دروس مؤسس الديانة الغالية البسيطة بسبب التدقيقات الكلامية والتنطعات (٣) » .

لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيها العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما ، لقد اندمجت البوذية في البرهمية واذبت فيها (٤)

(١) الزائر لمصحف تكسلا في غربى بنجاب « باكستان » يندش من رؤية كثرة التماثيل البوذية التي استخرجت من حفائر المدن البوذية المطمورة ويعرف أن هذه الديانة والمدنية اصبحتا وثنتين تماماً .

(٢) الهند القديمة « أردو » للأستاذ ايشور اتوبا

(٣) Jawahar Dal Nehru: The Discovery of India P. 201 202

(٤) أيضاً .

ولم يزل وجود الإله والإيمان به في البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخي هذه الديانة و مترجمي مؤسستها ، حتى يحار بعضهم ويتساءل : كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيق من الآداب التي ليس فيها الإيمان بالله (١) . فلم تكن البوذية الا طرقاتاً لرياضة النفس وقمع الشهوات ، والتخلي بالفضائل ، والنجاة من الألم ، والحصول على العلم .

إذن فلم تكن عند الصينيين رسالة دينية للعالم يحلون بها مشاكله ، وكانوا في أقصى شرق العالم المتمدن محتفظين بتراثهم الديني والعلمي ، لا يريدون في ثروتهم ولا في ثروة غيرهم .

* أم آسيا الوسطى :

أما الأمم الأخرى في آسيا الوسطى وفي الشرق ، كالمغول والترك واليابانيين ، فقد كانت بين بوذية فاسدة ، ووثنية همجية ، لا تملك ثروة علمية ، ولا نظاماً سياسياً راقياً ، إنما كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة ومنها شعوب لا تزال في طور البداوة والطفولة العقلية .

* الهند ، ديانة ، واجتماعاً ، وأخلاقاً :

أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها على أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذي يتدنى من مستهل القرن السادس الميلادي ، قد ساهمت الهند جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي ، الذي شمل الكرة الأرضية في هذه الحقبة من الزمن ، وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذي مد رواقه على المعمورة ، وامتازت عنها في ظواهر وخلال يمكن أن نلخصها في ثلاث : (١) كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة . (٢) الشهوة الجنسية الجامحة (٣) التفاوت الطبقي والمجحف والامتيان الاجتماعي الجائر .

(١، ٢، ٣) اقرأ مقالة « بوذا » في دائرة المعارف البريطانية .

* الوثنية التطرفة :

قد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس ، فقد كان عدد الآلهة في « ويد » ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت في هذا القرن ٣٣٠ مليون ، وقد أصبح كل شيء رائع وكل شيء جذاب وكل مرفق من مرافق الحياة إليها يعبد ، وهكذا تجاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلهات الحصر ، وأربت على العد ، فمنها أشخاص تاريخية ، وأبطال تمثل فيهم الله - زعموا - في عهود وحوادث معروفة ، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها الإله ، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس « مهاديو » الإله ، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك ، وأصبحت الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستغفها العقل السليم في زمن من الأزمان .

وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد ، وبلغت أوجها في القرن السادس والسابع ، حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية ، وقد عكفت الطبقات كلها وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام ، حتى لم تجد الديانة البوذية والجينية منها بدءاً ، وتذرعت هاتان الديانتان بهذه الوسيلة للاحتفاظ بحياتهما وانتشارهما في البلاد ، ويدل على ما وصلت إليه الوثنية والتماثيل في هذا العصر ما حكاه الرحالة الصيني الشهير « هوئن سوئنج » الذي قام برحلته بين عام ٦٣٠ وعام ٦٤٤ عن الاحتفال العظيم الذي أقامه الملك هرش الذي حكم الهند من عام ٦٠٦ إلى ٦٤٧ : « وأقام الملك احتفالاً عظيماً في قنوج اشترك فيه عدد كبير جداً من علماء الديانات السائدة في الهند ، وقد نصب الملك تمثالاً ذهبياً لبوذا على منارة تعلو خمسين ذراعاً وقد خرج بتمثال آخر لبوذا أصغر من التمثال الأول في موكب حافل قام بجانبه الملك « هرش » بمظلة وقام الملك الحليف « كامروب » يذب عنه الذباب (١) .

(١) رحلة هوئن سوئنج « فوكوي كي » الدولة الفرية .

ويقول هذا الرحالة عن أسرة الملك ورجال بلاطه : « إن بعضهم كان من عباد « شو » وبعضهم من أتباع الديانة البوذية ، وكان بعضهم يعبد الشمس وبعضهم يعبد « وشنو » وكان لكل واحد أن يخص من الآلهة أحداً بعبادته أو يعبدهم جميعاً (١) »

* الشهوة الجنسية الجامعة :

وأما الشهوة فقد امتازت بها ديانة الهند ومجتمعها منذ العهد القديم ، فلعل المواد الجنسية والمهيجات الشهوية لم تدخل في صميم ديانة بلاد مثل ما دخلت في صميم الديانة في البلاد الهندية ، وقد تناقلت الكتب الهندية وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوتات الشريفة تستك منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء ، وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المردددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح ، زد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل لإلههم الأكبر «مهاديو» ، وتصويرها في صورة بشعة ، واجتماع أهل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات ، زد إليه كذلك ما يحدث به بعض المؤرخين أن رجال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدون الرجال العراة (٢) وكان كهنة المعابد من كبار الخونة والفساق الذين كانوا يزرعون الرهبات والزائرات في أعز ما عندهن ، وقد أصبح كثير من المعابد مواخير^{بيوت دعارة} يترصد فيها الفاسق لطلبته ، وينال فيها الفاجر بغيته ، وإذا كان هذا شأن البيوت التي رفعت للعبادة والدين فما ظن القارئ ببلاط الملوك وقصور الأغنياء ؟! فقد تنافس فيها رجالها في إتيان كل منكر وركوب كل فاحشة ، وكان فيها مجالس مختلطة من سادة وسيدات ، فاذا لعبت الخمر برؤوسهم خلعوا جلباب الحياء والشرف وطرحوا الحشمة فتوارى الأدب وتبرقع الحياء ... هكذا أخذت البلاد موجة طاغية من الشهوات الجنسية والخلاعة ، وأسفت أخلاق الجنسين إسفافاً كبيراً .

(١) أيضاً .

(٢) ستيارته بركاش لدينالد سرسرتي الهندكي ص ٣٤٤ .

* نظام الطبقات الجائر :

أما نظام الطبقات فلم يعرف فى تاريخ أمة من الأمم نظام طبقى أشد قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذى اعترفت به الهند دينياً ومدنياً ، وخضعت له آلاف من السنين ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي فى آخر العهد الوبدى بتأثير الحرف والصنائع وتوارثها ، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها ، وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت فى الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندى ، وألف فيه قانون مدنى وسياسى اتفق عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً فى حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ « منو شاستر » .

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهى (١) البراهمة ، طبقة الكهنة ورجال الدين (٢) شترى رجال الحرب (٣) ويش رجال الزراعة والتجارة (٤) شودر رجال الخدمة ، ويقول « منو » مؤلف هذا القانون :

« إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشترى من سواعده ، ويش من أفخاذه ، والشودر من أرجله ، ووزع لهم فرائض وواجبات لصالح العالم . فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور للآلهة وتعاطى الصدقات ، وعلى الشترى حراسة الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة « ويد » والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعى السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث (١) » .

* امتيازات طبقة البراهمة :

وقدمنح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً ألحقهم بالآلهة فقد قال: إن البراهمة هم صفوة الله وهم ملوك الخلق ، وأن ما فى العالم هو ملك لهم ، فإنهم

(١) منو شاستر : الباب الأول .

فضل الخلائق وسادة الأرض (١) ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شئ - من غير جريرة - ما شاؤوا ، لأن العبد لا يملك شيئاً وكل ماله لسيده (٢) .

وإن البرهمي الذي يحفظ زك ويد « الكتاب المقدس » هو رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله (٣) ، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات الاضطراب والفاقة أن يجبي من البراهمة جباية أو يأخذ منهم إتاوة ، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعاً (٤) وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا إن يحلق رأسه ، أما غيره فيقتل (٥) .

أما المشتري فإن كانوا فوق الطبقتين « ويش وشودر » ولكنهم دون البراهمة بكثير فيقول « منو » : إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق المشتري الذي ناهز مائة كما يفوق الوالد ولده (٦) .

* المنبوذون الأشقياء *

أما شودر « المنبوذون » فكانوا في المجتمع الهندي - بنص هذا القانون المدني الديني - أحط من البهائم وأذل من الكلاب ، فيصرح القانون بأن « من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك (٧) . وليس لهم أن يقتنوا مالاً أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يؤذى البراهمة (٨) ، وإذا مد أحد من المنبوذين

(١) أيضاً . (٢) الباب الثامن .

(٣) الباب التاسع . (٤) الباب التاسع .

(٥) الباب الثاني . (٦) منوشاستر الباب الحادي عشر .

(٧) أيضاً . (٨) الباب العاشر .

إلى برهمى يداً أو عصاً ليبطش به قطعت يده ، وإذا رفسه فى غضب فدعت رجله^(١) ، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس برهمياً فعلى الملك أن يكوى إسته وينفيه من البلاد^(٢) ، وأما إذا مسه بيد أو سبه فيقتلع لسانه ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتاً فائراً^(٣) ، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء^(٤) .

* مركز المرأة فى المجتمع الهندى :

وقد نزلت النساء فى هذا المجتمع منزلة الإماء^(٥) ، وكان الرجل قد يخسر امرأته فى القمار ، وكان فى بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج^(٦) فإذا مات زوجها صارت كالموعدة لا تتزوج ، وتكون هدف الإهانات والتجريح ، وكانت أمة بيت زوجها المتوفى وخادم الأحماء ، وقد تحرق نفسها على إثر زوجها تفادياً من عذاب وشقاء الدنيا ، وهكذا صارت هذه البلاد المخصبة أرضاً وعقولاً ، وهذه الأمة - التى وصفها بعض مؤرخى العرب بكونها معدن الحكمة وينبوع العدل والسياسة وأهل الأحلام الراجحة والآراء الفاضلة^(٧) لبعدها عهداً عن الدين الصحيح وضياع مصادره وتحريف رجال الدين وإمعان الناس فى القياس والتخمين واتباع هوى النفوس ونزعات الشهوات .. أصبحت هذه البلاد مسرحاً للجهل الفاضح والوثنية الوضيعة والقسوة الهمجية والجور الاجتماعى الذى ليس له مثيل فى الأمم ولا نظير فى التاريخ.

* العرب : خصائصهم ومواهبهم :

أما العرب فقد امتازوا بين أُمم العالم وشعوبه فى العصر الجاهلى بأخلاق

(١) أيضا . (٢) الباب الثامن .

(٣) منوشاستر . (٤) R.C.Dutt 342-343

(٥) اقرأ استهلال قصة مها بهارات (الملحمة الهندية الكبرى) .

(٦) R.C. Dutt 331 (٧) صاعد الأندلسى م ٤٦٢ ، طبقات الأمم ص ١١ .

ومواهب تفردوا بها أو فازوا فيها بالقدح المعلن ، كالفصاحة وقوة البيان وحب الحرية والأنفة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة والصرافة في القول وجودة الحفظ وقوة الذاكرة وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة .

ولكن ابتلوا في العصر الأخير - بعد عهدهم من النبوة والأنبياء وانحصارهم في شبه جزيرتهم وشدة تمسكهم بدين الآباء وتقاليدهم بانهطاط ديني شديد ووثنية سخيصة قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة ، وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق فاسدة المجتمع متضعضة الكيان حاوية لأسوأ خصائص الحياة الجاهلية وبعيدة عن محاسن الأديان .

* وثنية الجاهلية :

كان الشرك هو دين العرب العام والعقيدة السائدة ، كانوا يعتقدون في الله أنه إله أعظم ، خالق الأكوان ومدير السماوات والأرض ، بيده ملكوت كل شيء فلئن سئلوا : من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ، ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ (١) ولكن ما كانت حوصلة فكرهم الجاهلي تسع توحيد الأنبياء في خلوصه وصفائه وسموه ، وما كانت أذهانهم البعيدة العهد بالرسالة والنبوة والمفاهيم الدينية تسيع أن دعاء أحد من البشر يتطرق إلى السماوات العلى ويحظى عند الله بالقبول مباشرة بغير واسطة وشفاعة ، قياساً على هذا العالم القاصر وعاداته وأوضاع الملوكية الفاسدة ، ومجاري الأمور فيها ، فبحثوا لهم عن وسطاء توسلوا بهم إلى الله وأشركوهم في الدعاء ، وقاموا نحوهم ببعض العبادات ورسخت في أذهانهم فكرة الشفاعة حتى تحولت إلى عقيدة قدرة الشفعاء على النفع والضرر ، ثم ترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، واعتقدوا أن لهم مماثلة ومشاركة في تدبير الكون ، وقدرة ذاتية على النفع والضرر والخير والشر والإعطاء والمنع ، فإذا كان الأولون يعترفون لله بالألوهية والربوبية الكبرى ، ويكتفون بالشفعاء والأولياء كان الآخرون يشركون آلهتهم مع الله ويعتقدون فيهم قدرة ذاتية على الخير والشر والنفع والضرر والإيجاد والإفناء مع معنى غير واضح عن الله كإله أعظم ورب الأرباب (٢)

(١) الزخرف : ٨٧ .

(٢) راجع كتاب « بيعة النبي ﷺ من القرآن » - للأستاذ محمد عزت دروزة .

* أصنام العرب في الجاهلية *

ولم يزل هذا الفريق الثاني يقوى أمره ويستفحل مع إمعان القوم في الجاهلية وقرب هذه النزعة الوثنية إلى الحواس والمحسوسات ، واتفاقه مع ضعف التفكير حتى أصبحت هذه العقيدة السائدة ، وأصبح الذين يميزون بين الآلهة والوسطاء شواذ في الأمة ، ومن رجال الطبقة المثقفة ، وهكذا انغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل كان لكل بيت صنم خصوصي : قال الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً ^(١) . واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسّن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها الأنصاب ^(٢) ، وكان في جوف الكعبة - البيت الذي بنى لعبادة الله وحده - وفي فنائها ثلاثمئة وستون صنماً ^(٣) ، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة .

روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً ، جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به ^(٤) .

وقال الكلبي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذها رباً ، وجعل ثلاث أثافي لقدره ، وإذا ارتحل تركه ^(٥) .

(١) كتاب الأصنام ص ٣٣ .

(٢) كتاب الأصنام ص ٣٣ .

(٣) الجامع الصحيح للبخاري كتاب المغازي باب فتح مكة (٤٢٨٧) .

(٤) الجامع الصحيح للبخاري كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة (٤٣٧٦) .

(٥) كتاب الأصنام .

* الآلهة عند العرب *

وكان للعرب - شأن كل أمة مشركة في كل زمان ومكان - آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب ، فكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ، ويتوسلون بهم عند الله . واتخذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم (١) .

قال الكلبي : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن (٢) .

وقال صاعد : كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر وتيمم الدبران ، ولخم وجذام المشتري ، وطبيء سهيلاً ، وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارداً (٣) .

* اليهودية والنصرانية في بلاد العرب *

وانتشرت اليهودية والنصرانية في بلاد العرب . ولم تستفد منها العرب كثيراً من المعاني الدينية ، وكانتا نسختين من اليهودية في الشام ، والنصرانية في بلاد الروم والشام قد طرأ عليها من التحريف والزيف والوهن ما شرحناه من قبل .

* الرسالة والإيمان بالبعث *

أما الرسالة فقد تصور العرب للنبي صورة خيالية ، وتمثلوه في ذات قدسية ، لا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يلد ولا يمشی في الأسواق . وكانت عقولهم الضيقة لا تهضم أن هنالك بعثاً بعد الموت ، وحياة بعد هذه الحياة ، فيها الحساب ، والثواب والعقاب ، وقالوا : ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (٤) وقالوا : ﴿ أنذا كنّا عظماً ورفاتاً أثنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ (٥) .

(١) كتاب الأصنام ص ٤٤ .

(٢) أيضاً ص ٣٤ .

(٣) طبقات الأمم لصاعد ص ٤٣٠ .

(٤) من آية ٢٤ الجاثية .

(٥) من آية ٤٩ من الإسراء .

قال صاعد : كان جمهورهم ينكر ذلك « الميعاد » لا يصدق بالمعاد ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبسد ، وإن كان مخلوقاً مبتدعاً ، وكان فيهم من يقر بالمعاد ، ويعتقد إن نحرث ناقتة على قبره يحشر راكباً ومن لم يفعل ذلك يحشر ماشياً (١) .

* الأدواء الخلقية والاجتماعية :

أما من جهة الأخلاق ، فكانت فيهم أدواء وأمراض متأصلة ، وأسبابها فاشية ، فكان شرب الخمر واسع الشيوع شديد الرسوخ فيهم ، تتحدث عن معاقبتها والاجتماع على شربها الشعراء ، وشغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم ، وكثر فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب (٢) وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً ، يرفرف عليها علم يسمى غاية . قال لبيد (٣) :

قد بت سامرها وغاية تاجر

وافيت إذ رفعت وعز مدامها

وكان من شيعر تجارة الخمر أن أصبحت كلمة التجارة مرادفاً لبيع الخمر ،

كما قال لبيد : وغاية تاجر ، وقال عمرو بن قميئة (٤) :

إذا سحب الریط والمروط إلى

أدنى تجارى وأنقض اللما

وكان القمار من مفاخر الحياة الجاهلية ، قال الجاهلي (٥) :

(١) أيضاً ص ٤٤ .

(٢) اقرأ كتاب الخصص لابن سيده ج ١١ ص ٨٢ - ١٠١ .

(٣) السبع المعلقة ، معلقة لبيد .

(٤) ديوان الحماسة .

(٥) ديوان الحماسة .

أعيرتنا ألبانها ولحومها

وذلك عار يابن ربيعة ظاهر

نحابي بها أكفاءنا ونهينا

ونشرب في أثمانها ونقامر

وكان عدم المشاركة في مجالس القمار عاراً ، يقول الشاعر (١) :

وإذا هلكت فلا تريد عجزاً

غساً ولا برماً ولا معزلاً

قال قتادة : كان الرجل في الجاهلية يقامر على أهله وماله فيقعده حزناً سلباً

ينظر الى ماله في يد غيره ، فكانت تورث بينهم عداوة وبغضاً (٢) .

وكان أهل الحجاز ، العرب واليهود ، يتعاطون الربا وكان فاشياً فيهم ، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة ، قال الطبري : كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السنين ، يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : تقضيني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضى وإلا حوله إلى السن التي فوق ذلك إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حقة ثم جذعة ثم رابعاً هكذا إلى فوق . وفي العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل وإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً فتكون مائة فيجعلها إلى القابل مائتين ، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه (٣)

وقد رسخ الربا فيهم وجرى منهم مجرى الأمور الطبيعية التي صاروا لا يفرقون بينه وبين التجارة الطبيعية وقالوا إنما البيع مثل الربا ، وقال الطبري إن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمه يقول الغريم

(١) ديوان الحماسة .

(٢) تفسير الطبري : تفسير آية « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » الآية .

(٣) تفسير الطبري « ج ٤ ص ٥٩ » .

لغريم الحق : « زدنى فى الأجل وأزيدك فى مالك » فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك : هذا ربا لا يحل ، فإذا قيل لهما ذلك قالوا : سواء علينا زدنا فى أول البيع أو عند محل المال (١) .

ولم يكن الزنى نادراً وكان غير مستنكر استنكاراً شديداً ، فكان من العادات أن يتخذ الرجل خليلات ويتخذ النساء أخلاء بدون عقد ، وكانوا قد يكرهون بعض النساء على الزنى ، قال ابن عباس : كانوا فى الجاهلية يكرهون إماءهم على الزنى يأخذون أجورهن (٢) .

قالت عائشة : « إن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء ، فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها ، والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم يصيها ، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم فلم يستطيع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع مما جاءها ، وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاظه ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك (٣) .

(١) تفسير الطبرى ، ص ٦٩ .

(٢) تفسير الطبرى ج ١٨ ص ٤٠١ .

(٣) الجامع الصحيح للبخارى كتاب النكاح باب من قال : لا نكاح إلا بولي (٥١٢٧) .

* المرأة في المجتمع الجاهلي *

وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، وتؤكل حقوقها وتبتز أموالها وتحرم إرثها وتعزل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه وتورث كما يورث المتاع أو الدابة، عن ابن عباس قال: « كان الرجل إذا مات أبوه أو حميه فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها أو يحبسها حتى تفتدى بصدقتها أو تموت فيذهب بمالها! » وقال عطاء بن أبي رباح: إن أهل الجاهلية كانوا إذا هلك الرجل فترك امرأة حبسها أهله على الصبي يكون فيهم، وقال السدي: إن الرجل في الجاهلية كان يموت أبوه أو أخوه أو ابنه فإذا مات وترك امرأته فإن سبق وارث الميت فألقى عليها ثوبه فهو أحق بها أن ينكحها بمهر صاحبه أو ينكحها فيأخذ مهرها، وإن سبقته فذهب إلى أهلها فهي أحق بنفسها (١) وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها، يؤخذ مما تؤتي من مهر وتمسك ضراراً للاعتداء (٢)، وتلقى من بعلمها نشوزاً أو إعراضاً وترك في بعض الأحيان كالمعلقة (٣)، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد (٤).

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد، ذكر الهيثم بن عدي - على ما حكاه عنه الميداني - أن الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة، فجاء الإسلام، وكانت مذاهب العرب مختلفة في وأد الأولاد، فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهن من أجلهن،

(١) تفسير الطبري ج ٤ ص ٣٠٨.

(٢) سورة البقرة آية ٢٣١.

(٣) النساء آية ١٣٩.

(٤) الأنعام ١٤٠.

ومنهم من كان يمد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (عرجاء) تشاؤماً منهم بهذه الصفات ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر ، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب فكان العرب يشتريهم بعض سراة العرب وأشرفهم ^(١) . قال صعصعة بن ناجية : جاء الإسلام وقد فديت ثلاثمائة موءودة ^(٢) ومنهم من كان ينذر - إذا بلغ بنوه عشرة - نحر واحداً منهم كما فعل عبدالمطلب ، ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله - سبحانه عما يقولون - فألحقوا البنات به تعالى ، فهو عز وجل أحق بهن ^(٣) .

وكانوا يقتلون البنات ويدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان ، فقد يتأخر وأد الموءودة لسفر الوالد وشغله فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل ، وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبيكات ، وقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق ^(٤) .

* العصبية القبلية والدموية في العرب *

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة ، وكان أساسها جاهلياً تمثله الجملة المأثورة عن العرب : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين .

وكانت في المجتمع العربي طبقات وبيوت ترى لنفسها فضلاً على غيرها ، وامتياراً ، فتترفع على الناس ولا تشاركهم في عادات كثيرة حتى في بعض مناسك الحج ، فلا تقف بعرفات وتتقدم على الناس في الإفاضة والإجازة ^(٥) ، وتنسأ الأشهر الحرم ، وكان النفوذ والمناصب العليا والنسب متوارثاً ، يتوارثه الأبناء عن الآباء ، وكانت طبقات مسخرة ، وطبقات سوقة وعوام ، فكان التفاوت الطبقي من مسلمات المجتمع العربي .

(١) اقرأ بلوغ الأرب في أحوال العرب للآلوسي .

(٢) كتاب الأغاني . (٣) بلوغ الأرب .

(٤) أيضاً . (٥) سورة البقرة آية ١٩٩ .

وكان الحرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية ، وألهمتهم إياه معيشتهم البدوية ، حتى صارت الحرب مسلاة لهم وملهى فقال قائلهم (١) :

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أختانا

هانت عليهم الحرب وإراقة الدماء حتى كانت تثيرها حادثة ليست بذات خطر ، فقد وقعت الحرب بين بكر وتغلب ابني وائل ومكثت أربعين سنة أريققت فيها دماء غزيرة ، وما ذاك إلا لأن كلياً - رئيس معد - رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلط دمها بلبنها وقتل جساس بن مرة كلياً ، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب ، وكان كما قال المهلهل أخو كليب : « قد فنى الحيان وثكلت الأمهات ويتم الأولاد ، دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن (٢) » .

كذلك حرب داحس والغبراء فما كان سببها إلا أن داحساً فرس قيس بن زهير كان سابقاً في رهان بين قيس بن زهير وحذيفة بن بدر فعارضه أسدى بإيعاز من حذيفة فلطم وجهه وشغله ، ففاته الخيل ، وتلا ذلك قتل ثم أخذ بالثأر ونصر القبائل لأبنائها ، وأسر ونزح للقبائل ، وقتل في ذلك ألوف من الناس (٣) .

وكانت الحياة كلها شبكة محبوكة من ترات وثرات فشلت حباثلها في القبائل وأوصى بها الآباء الأبناء ، وحملت العيشة البدوية وقلة أسباب الحياة ، والطمع والجشع ، والأحقاد والاستهانة بحياة الإنسان على الفتك والسلب والنهب ، حتى كانت أرض الجزيرة كفة حابل لا يدرى الإنسان متى يغتال وأين ينهب . وكان الناس يتخطفون من بين عشيرتهم في القوافل ، حتى احتاجت الدول القوية إلى الخفارة الساهرة ، والبذرة القوية (٤) ، فكانت غير كسرى تبذرق من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة ، والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى

(١) ديوان الحماسة .

(٢، ٣) انظر أيام العرب .

(٤) البذرة : الخفارة والحراسة .

تدفع إلى هودّة بن علي الحنفى باليمامة فيبذرقها حتى تخرج من أرض بنى حنيفة ، ثم تدفع إلى تميم وتجعل لهم جعالة فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن وتسلم إلى عمال كسرى باليمن^(١) .

* ظهر الفساد في البر والبحر ،

وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح ماثور عن الأنبياء .

* لمعات في الظلام ،

وكان النور الضعيف الذي يتراءى في هذا الظلام المطبق من بعض الأديرة والكنائس أشبهه بالحباحب الذي يضيء في ليلة شديدة الظلام فلا يخترق الظلام ، ولا ينير السبيل ، وكان الذي يخرج في ارتياد العلم الصحيح ، وانتجاع الدين الحق يهيم على وجهه في البلاد ، ترفعه أرض وتخفضه أخرى ، حتى يأوى إلى رجال شواذ في الأمم والبلاد ، فيلجأ إليهم كما يلجأ الغريق إلى ألواح سفينة مكسرة ، هشمشها الطوفان ، يدل على ندرتهم خبر سلمان الفارسي أكبر الرواد الدينيين في القرن السادس الذي شرق وغرب في الفحص عنهم ، ولم يزل يتنقل من الشام إلى الموصل ، ومن الموصل إلى نصيبين ، ومن نصيبين إلى عمورية ، ويوصى به بعضهم إلى بعض ، حتى أتى على آخرهم فلم يجد لهم خامساً ، وأدركه الإسلام في هذا الظلام ، قال سلمان :

« لما قدمت الشام ، قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة ! قال فجئته ، فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٣٣ .

معك أنخدمك في كنيسةك ، وأتعلّم منك وأصلي معك ، قال : فادخل ، فدخلت معه ، قال فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا إليه منها أشياء ، كمنزله لنفسه ، ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق ، قال : وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصاري ليدفنوه ، فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكمنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً ، قالوا : وما علمك بذلك ؟ قال قلت : أنا أدلكم على كنزها ، قالوا : فدلنا عليه ، قال : فأريتهم موضعه ، قال : فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً ، قال : فلما رأوها قالوا : والله لا ندفعه ابداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاوزوا برجل آخر فجعلوه مكانه ، قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه ، قال : فأحبته حباً لم أحبه من قبل وأقمت معه زماناً ، ثم حضرته الوفاة ، فقلت له يا فلان : إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله ، فإلى من توصى بي ، وما تأمرني ؟ قال : يا بني والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدنوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان ، فهو على ما كنت عليه فالحق به ، قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على أمره ، قال : فقال لي : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى ، فإلى من توصى بي وما تأمرني ؟ قال : يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به ، فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي ، قال : فأقم عندي فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصى بي وما تأمرني ؟ قال : أي بني

والله ما نعلم أحداً بقى على أمرنا آمرك أن تأتية إلا رجلاً
بعمورية فإنه يمثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، قال :
فإنه على أمرنا ، قال : فلما مات وغيب لحقت بصاحب
عمورية وأخبرته خبري ، فقال : أقم عندي ، فأقمت مع
رجل على هدى أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت
كان لى بقرات وغنيمة ، قال : ثم نزل به أمر الله فلما
حُضر قلت له : يا فلان ، إني كنت مع فلان ، فأوصى
بى فلان إلى فلان ، وأوصى بى فلان إلى فلان ، ثم
أوصى بى فلان إليك ، فإلى من توصى بى وما تأمرنى ؟
قال : أى بنى ، والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد
من الناس آمرك أن تأتية ، ولكنه قد أظلك زمان نبى هو
مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى
أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى ،
يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ،
فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل » إلخ (١) .

(١) رواه الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس عن سلمان ورواه الحاكم فى مستدركه ، والرواية لاتصال
سندها وعدالة رواتها من أصح الوثائق التاريخية عن الجاهلية وحالتها الدينية .

الفصل الثاني

النظام السياسي والمالي في العصر الجاهلي

* الملكية المطلقة :

كان العصر الجاهلي مسرحاً للحكم الجائر المستبد ، فقد كانت السياسة في هذا العصر ملكية مطلقة ، قد تقوم على تقديس البيوتات الخاصة ، كما كان في فارس ، فقد كان آل ساسان يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله ، وقد عملوا كل ما في استطاعتهم للتأثير في رعاياهم حتى أذعنوا لهذا الحق الملكي المقدس وصارت لهم عقيدة يدينون بها ، وقد تقوم على تقديس الملوك مطلقاً ، فكان الصينيون يسمون ملكهم الإمبراطور ابن السماء ، ويعتقدون أن السماء ذكر ، والأرض أنثى ، وقد ولد الكائنات ، وكان الإمبراطور ختاً الأول هو بكر هذين الزوجين ^(١) ، وكان الإمبراطور يعتبر كالأب الوحيد للأمة ، له أن يفعل ما يشاء ، وكانوا يقولون له : « أنت أبو الأمة وأمها » . ولما مات الإمبراطور « لى يان » أو « تاي تسونغ » لبست الصين ثوب الحداد ، وحزنت الأمة حزناً شديداً ، فمنها من أثخن وجهه بالإبر ، ومن قطع شعره ، ومن ضرب أذنيه بجانب النعش ، وقد تقوم على تقديس بعض الشعوب والأوطان كما كان في المملكة الرومية ، فكان المبدأ هو تقديس الوطن الرومي ، والشعب الرومي ولم تكن الأمم والبلاد إلا خادمة لمصلحتها وعروفاً يجري منها الدم إلى مركزها ، فكانت الدولة تستهين في ذلك بكل حق ومبدأ ، وتدوس كل شرف وكرامة ، وتستحل كل ظلم وشناعة ، ولا يمنع بلاداً من هذا الحيف والظلم اشتراك في دين وعقيدة ولا إخلاص ووفاء للمملكة ، ولا يعترف لها في زمن من الأزمان بحق حكمها نفسها بنفسها والتمتع بحقوقها في أرضها إنما هي ناقة ركوب في بعض الأحيان ، حلوب في بعضها ، لا يقدم لها العلف إلا ما يقيم صلبها ويدبر ضرعها .

(١) تاريخ الصين لجميز كاركرون .

يقول (Robert Briffault) عن الدولة الرومية :

« لم يكن سبب انقراض الدولة الرومية وسقوطها الأساسى الفساد الزائد (كالرشوة وغيرها) بل كان الفساد والشر وعدم المطابقة بالواقع مما صحب نشوء هذه الدولة من أول يومها وتغلغل فى أحشائها . إن كل مؤسسة بشرية تقوم على أساس زائف منها ولا تستطيع أن تنقذ نفسها بذكاء أو نشاط ، ولما كان الفساد مما قامت عليه هذه الدولة فكان لابد أن تبيد يوماً وتنهار ، لقد رأينا أن الدولة الرومية إنما كانت وسيلة لرفاهية طبقة صغيرة على حساب الجماهير الذين كانت هذه الطبقة تستغلهم وتمتص دماءهم ، لقد كانت التجارة تسير فى رومة بأمانة وعدل وقد كان ذلك مما طبعت عليه هذه الدولة ، وقد كانت فائقة فى قوة الحكم والقضاء ، وفى الكفاءة ، ولكن هذه المحاسن كلها لم تكن لتحفظ الدولة من عواقب الزيف الأساسى والخطأ^(١) .

* الحكم الرومانى فى مصر والشام :

يقول الدكتور الفرد . ج . بتلر عن الحكم الرومانى فى مصر :

«إن حكومة مصر(الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد ، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم فى الحياة أو تهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم ، فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشىء من العطف على الشعب المحكوم^(٢) .»

ويقول مؤرخ عربى شامى عن الحكم الرومانى فى الشام :

« كانت معاملة الرومانى للشاميين بادئ بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم فى داخليتها من المشاغب والمتاعب . ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أنعس

(١) The Making of Humanity, by Robert Briffault p 159.

(٢) فتح العرب لمصر للدكتور الفرد . ج . بتلر ، تعريب محمد فريد أبو حديد .

ما كانت عليه من الرق والعبودية ، ولم تضيف رومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين ، ولا أرضهم أرضاً رومانية ، بل ظلوا غرباء ورعايا ، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال ، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقى ، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع فى الشام (١) .

« حكم الرومان الشام سبعمائة سنة بدأ معهم فى البلاد النزاع والشقاق والاستبداد والأنانية وقتل الأنفس ، وحكم اليونان الشام ٣٦٩ سنة سادت فى عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم وظهرت المطامع اليونانية بأعظم مظاهرها وكان حكمهم من أشد الولايات وأشأم النكبات على الأمة الشامية (٢) » .

وبالاختصار كانت الولايات الرومية والفارسية غير مرتاحة فى حكم الأجانب وكانت الأحوال السياسية والاقتصادية مضطربة حتى فى مراكز الدولة وعواصمها .

* نظام الجباية والخراج فى إيران :

ولم يكن النظام المالى والسياسة المالية فى إيران عادلة مستقرة بل كانت جائرة مضطربة فى كثير من الأحوال ، تابعة لأخلاق الجباة العاملين وأهوائهم والأحوال السياسية والحربية .

يقول مؤلف « إيران فى عهد الساسانيين » :

« كان الجباة لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال فى تقدير الضرائب وجباية الأموال ، ولما كانت الضرائب تختلف كل سنة وتزيد وتنقص لم يكن دخل الدولة وخرجها مقدرين مضبوطين ، وقد كانت الحرب تنشب فى بعض الأحيان وليست عند الدولة أموال تنفقها على الحرب ، فكان يلجئها ذلك إلى ضرائب

(١) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ١ ص ١٠١ .

(٢) أيضاً ج ١ ص ١٠٣ .

جديدة ، وكانت المقاطعات الغربية الغنية - وخاصة بابل - هدف هذه الضرائب دائماً^(١) .

* كنوز الملوك ومدخراتهم :

ولم يكن ما يتفق على أهل البلاد في إيران من مالية الدولة شيئاً كثيراً ، وقد اعتاد ملوك إيران من القديم أن يكتنزوا النقود ويدخروا الطرف والأشياء الغالية^(٢) ، ولما نقل خسرو الثاني في المدائن أمواله إلى بناية أحدثها سنة ٦٠٧ - ٦٠٨ م وكان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين مثقال ذهب وذلك ما يساوي ٣٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبي ، وفي العام الثالث عشر من جلوسه على العرش كان في خزانته ٨٠٠ مليون مثقال ذهب^(٣) .

* الفصل السابع بين طبقات المجتمع :

كان الغنى لأفراد معدودين والفقير لمعظم الأهلين ، يقول مؤلف « إيران في عهد الساسانيين » عن أخصب عهد من عهود إيران وعن أعدل ملك من ملوكها وهو كسرى أنوشروان :

« إن ما قام به كسرى من إصلاح النظام المالي كان في مصلحة مالية المملكة أكبر منه في مصلحة الرعية ، فلم تزل العامة يعيشون في الجهل والضعف كما كانوا في السابق ، وما شاهد الفلاسفة البيزنطيون من فوارق نسبية بين طبقات المجتمع والفصل الشاسع بينها والبؤس الذي كان يعيش فيه رجال الطبقات المنحطة أقلق خاطرهم وانتقدوا المجتمع الفارسي بقولهم : إن الأقوياء فيه يقهرون الضعفاء ويعاملونهم بظلم وبقسوة شديدة^(٤) » .

(١) إيران في عهد الساسانيين ص ١٦١ .

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ١٦٢ .

(٣) إيران في عهد الساسانيين ص ٦١١ .

(٤) إيران في عهد الساسانيين ص ٥٩٠ .

وكانت المناصب وقفاً على بعض البيوتات والسلائل ذات الثروة والجاه والنفوذ عند الحكام .

ويقول (Robert Briffault) عن النظام الطبقي في الدولة الرومية :

« مما جرت العادة أنه إذا أصيبت مؤسسة اجتماعية بالزوال والانحطاط لا يرى القائمون عليها حيلة إلا أن يمنعوها من الحركة والتطور ، لذلك كان المجتمع الرومي (في عهد الانحطاط) خاضعاً لنظام طبقي جائر يزرع تحتة ، وما كان لأحد في هذا المجتمع أن يغير حرفته ، وكان لابد للابن أن يتخذ حرفة أبيه (١) » .

* الفلاحون في إيران *

أثقلت الضرائب المتنوعة المتجددة كاهل الجمهور حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية لأمة لا يحبونها أو لغرض لا يتحمسون له ، وفشت في الناس البطالة والجنايات وطرق غير مشروعة للكسب .

يقول مؤلف « إيران في عهد الساسانيين » :

« كان الفلاحون في شقاء وبؤس عظيم وكانوا مرتبطين بأراضيهم ، وكانوا يُستخدمون مجاناً ويكلفون كل عمل ، يقول المؤرخ « إميان مارسيلينوس » إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسبّرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجره (٢) وكانت علاقة الفلاحين بالملك أصحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالسيادة (٣) » .

(١) The Making of Humanity p 160

(٢) أيضاً ص ٤٢٤ .

(٣) أيضاً ص ٤٢٤ .

* الاضطهاد والاستبداد :

واضطهد اليهود في الشام والعراق واليعقوبيون في مصر اضطهاداً كبيراً واستبد الحكام استبداداً شديداً وعاثوا في البلاد والدماء والأموال والأعراض ، وتصام أهل الحل والعقد عن شكواهم حتى صار الناس يعدون هذه الأوضاع الفاسدة ضربة لازم وقضاء محتوماً ، وصاروا في بعض الأيام يفضلون الموت على الحياة .

* المدنية المصطنعة والحياة الترف :

استحوذت على الناس في الدولتين - الفارسية والرومية - حياة الترف والبذخ وطمع عليهم بحر المدنية المصطنعة والحياة المزورة ، وغرقوا فيه إلى أذقانهم . فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين في غفلتهم لا هم لهم إلا اللذة والتهايم الحياة ، وبذخوا بذخاً عظيماً تخطى القياس ، ودققوا في مرافق المعيشة وفضول المدنية وحواشي الحياة تدقيقاً عظيماً جداً ، فكان لكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسون ألف جواد وشيء لا يحصى من أدوات الترف والقصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة ، وقصره مثال في الأبهة والغنى (١) ، يقول مكاريوس :

« لم يرو في التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة الذين كانت تأتيهم الهدايا والجرايات من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى (٢) ولما خرجوا من العراق في الفتح الإسلامي تركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطف والأدهان ما لا يدري ما قيمته » .

وقد وجد العرب قباً تركية مملوءة سلالاً مختمة بالرصاص ، قال العرب :
فما حسبتها إلا طعاماً فإذا هي آنية الذهب والفضة (٣) .

(١) تاريخ إيران لشاهين مكاريوس طبع ١٨٩٨ ص ٩٠ .

(٢) ايضاً ص ٢١١ .

(٣) تاريخ الطبري .

ووصف المؤرخون العرب بهار كسرى الذى أصابه المسلمون يوم المدائن فقالوا :

« هو ستون ذراعاً فى ستين ذراعاً ، بساط واحد مقدار جريب ، أرضه بذهب ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء الذهب فيه طرق كالصور وفصوص كالأنهار ، وخلال ذلك كالدير وفى حافته كالأرض المزروعة ، والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع من الحرير على قضبان الذهب ، ونواره بالذهب والفضة وأشباه ذلك ، وكانوا يعدونه للشتاء ، إذا ذهبت الرياحين ، فكانوا إذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكانهم فى رياض ^(١) » ، وهذا يدل على ما وصل إليه البذخ والترفة فى المدنية الفارسية .

كذلك كان الشام فى الدولة الرومية وحواضرها ، وكانت الدولتان والمدنيتان الفارسية والرومية .. كفسرى رهان فى البذخ والترفة فى دقائق المدنية ، وقد بذخ الأباطرة ونوابهم وأمراؤهم فى الشام بذخاً عظيماً وحوى بلاطهم وقصورهم ومجالس شربهم ولهوهم من آلات الترف وأسباب الرفاهية شيئاً كثيراً ، وبلغت من الترف والأناقة شأواً بعيداً ، وقد وصف حسان بن ثابت الشاعر المخضرم مجلس جبلة ابن الأيهم الغسانى فقال : لقد رأيت عشرين قيان خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة أهدهن إليه إياس بين قبيصة وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها ، وكان إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك فى صحاف الفضة والذهب وأتى بالمسك الصحيح فى صحاف الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن صائفاً بطن بالثلج ، وأتى هو وأصحابه بكسى صيفية يتفضل هو وأصحابه بها فى الصيف ، وفى الشتاء الفراء الفنك وما أشبهه ^(٢) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٧٨ .

(٢) الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني ج ١٤ ، ص ٢ .

وكان الأمراء والأقبيال والأغنياء ورجال البيوتات الشريفة وأفراد الطبقة الوسطى على آثار الملوك يحاولون أن يقلدوهم فى لباسهم وطعامهم ومجالسهم وترفهم وكانوا يأخذون أنفسهم بعاداتهم ومناهج حياتهم ، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعاً عظيماً ، وتعقدت المدنية تعقداً عظيماً ، وصار الواحد ينفق على نفسه وعلى جزء من لباسه ما يشيع قرية أو يكسو قبيلة ، وكان لا بد منه لكل شريف أو وجيه ، حتى إذا أخل به وأغفله أشير إليه بالبنان وتفادته العيون ، حتى صار ذلك واجباً من واجبات الحياة وشريعة من شرائع المجتمع التى لا يحل العدول عنها . عن الشعبي قال: كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائهم ، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف ، وكان هرمز مئتم شرفه فكانت قيمتها مائة ألف وكانت مفصصة بالجواهر^(١) ، وتما شرف أحدهم أن يكون من بيوتات السبعة ومن الأزدية، كان مرزبان الحيرة أزمان كسرى ، وكان قد بلغ نصف الشرف ، وكانت قيمة قلنسوته خمسين ألفاً^(٢) ويبيع ما على رستم بسبعين ألفاً وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف^(٣) .

درج الناس على هذه المدنية المترفة وعاداتها الفاسدة ورضعوا بلبانها ونشأوا عليها حتى أصبحت لهم الطبيعة الثانية ، وعز عليهم الفصال وشق عليهم أن يتنازلوا إلى الحياة الطبيعية البسيطة حتى فى ساعة عصيبة وفى فاقة واضطرار ، ذكروا ان يزدجرد آخر ملوك فارس لما فر من المدائن أخذ معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم للنمور وألف قيم للبزة وآخرين وكان يستقل هذا العدد^(٤) ، واستسقى الهرمزان ملك الأهواز أمام عمر فأتى به فى قدح غليظ ، فقال : لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا . فأتى به فى إناء يرضاه^(٥) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٦ .

(٢) أيضاً ص ١١ . (٣) أيضاً ص ١٣٤ .

(٤) « إيران فى عهد الساسانيين » لأرتھر كرستن : ص ٦٨١ .

(٥) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦١ .

* الزيادة الباهظة في الضرائب :

كانت نتيجة هذا البذخ والترف الطبيعية الزيادة الباهظة في الضرائب وسن القوانين الجديدة لابتزاز الأموال من طبقات الفلاحين والصناع والتجار وأهل الحرف حتى وصلت إلى حد الإرهاق وأثقلت كاهل الأهلين وأنقضت ظهرهم .

يقول مؤلف « إيران في عهد الساسانيين » :

وقد جرت عادة ملوك إيران بقبول الهدايا والتقديمات من الرعية وكانوا يسمون ذلك « آيين » وكان ذلك علاوة على الضرائب الرسمية ، وكانوا يأخذون من الناس الهدايا جبراً يوم نوروز والمهرجان وكانت مناجم الذهب في أرمينيا ملكاً للملك ولنفقاته الخاصة (١) .

ويقول المؤرخ العربي الشامي :

« كان يقضى على الشعب الشامي أن يؤدي الجزية وعشر غلاته وأتاوة من المال ورسماً على كل رأس ، وللشعب الروماني موارد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراعة الحنطة والمراعى يؤجرونها من شركات المتعهدين يسمونهم العشارين ، يتعاونون من الحكومة حق جباية الخراج ، وفي كل ولاية عدة شركات من العشارين ، ولكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة يظهرون في مظهر السادة ، ويتناولون أكثر مما يجب لهم أخذه ، ويسلبون نعمة الأهلين ، وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق (٢) » .

« أوجز أحدهم السياسة الإمبراطورية في الرومان بقوله :

« الراعى الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفه » فمضى القرنان وأباطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيراً من الأموال ولكنهم يحمونهم من

العدو الخارجي (٣) » .

(١) « إيران في عهد الساسانيين » لأرتھر كرسن : ص ١٦١ .

(٢) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ٥ ص ٤٧ .

(٣) خطط الشام للأستاذ كرد على ج ٥ ص ٤٧ .

* شقاء الجمهور *

وهكذا أصبح أهل البلاد فى كلتا المملكتين طبقتين متميزتين تمام التمييز : طبقة الملوك والأمراء ورجال البلاط الملكى وأسرههم وعشائرههم والمتصلون بهم والأغنياء ، فكانوا يعيشون بين الأزهار والرياحين ويتقلبون فى أعطاف النعيم ، وينعلون أفراسهم عسجداً ، ويكسون بيوتهم حريراً وسندساً .

وطبقة الفلاحين والصناع والتجار الصغار وأهل الحرف والأشغال ، كانوا فى جهد من العيش : يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات ويرسفون فى القيود والأغلال ويعيشون عيشة البهائم ، لا حظ لهم فى الحياة إلا العمل لغيرهم والشقاء لنعيمهم ولا هم لهم إلا الأكل والعلف ، فإذا سئموا هذا العيش المرتعلوا بالمسكرات والملهيات ، وإذا تنفسوا من هذا العناء رتعوا فى المحرمات ، ورغم هذا الجهد فى المعيشة يجهدون أنفسهم فى تقليد رجال الطبقة العليا فى كثير من أساليب حياتهم ، فكان ذلك أشد من الجهد فى سبيل الكفاف من الرزق والبلغة من العيش ، فتنغص حياتهم ، ويتكبر صفوهم ويشغل بالهم .

* بين غنى مطع وفقير منس *

وهكذا ضاعت رسالة الأنبياء ، والأخلاق الفاضلة والمبادئ السامية فى العالم المتمدن المعمور بين غنى مطع وفقير منس ، وأصبح الغنى فى شغل عن الدين والاهتمام بالآخرة والتفكير فى الموت وما بعده بنعيمه وترفه ، وأصبح الفلاح أو العامل فى شغل عن الدين كذلك لهمومه وأحزانه وتكاليف حياته ، وأصبحت الحياة ومطالبها هم الغنى والفقر وشغلها الشغل ، وكانت رضى الحياة تدور حول الناس فى قوة لا يرفعون فيها إلى الدين والآخرة رأساً ، ولا يتفرغون لما يتصل بالروح والقلب والمعانى السامية ساعة .

* تصوير الجاهلية *

وقد صور أحد كبار علماء الإسلام^(١) هذه الحال فأجاد التصوير ، قال :

(١) وهو شيخ الاسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى (م ١١٧٦ هـ) .

« اعلم أن العجم والروم لما تورثوا الخلافة قروناً كثيرة وخاضوا في لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واستحوذ عليهم الشيطان ، وتعمقوا في مرافق المعيشة وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومراقفها ، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها حتى قيل إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبن (١) وحمام وبساتين ، ولا يكون له دواب فارهة وغلمان حسان ، ولا يكون له توسع في المطاعم وتجمل في الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم ، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزق ، وتولد من ذلك داء عضال دخل في جميع أعضاء المدنية وآفة عظيمة ، ولم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، إلا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه ، وأعجزته في نفسه وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرحاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة ، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم والتضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر تستعمل في النضح والدياس والحصاد ، ولا تقتنى إلا ليستعان بها في الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء ، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمله دينه (٢) . »

(١) فسقية .

(٢) حجة الله البالغة « باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم » .

الباب الثاني

من الجاهلية إلى الإسلام

الفصل الأول

منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير

* العالم الذي واجهه محمد ﷺ :

بعث محمد بن عبدالله ﷺ والعالم بناء أصيب بزلزال شديد هزه هزاً عنيفاً ، فإذا كل شيء فيه في غير محله ، فمن أساسه ومتاعه ما تكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكاناً آخر ، ومنه ما تكس وتكوم . نظر إلى العالم بعين الأنبياء فرأى إنساناً قد هانت عليه إنسانيته ، رآه يسجد للحجر والشجر والنهر ، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضرر .

رأى إنساناً معكوساً قد فسدت عقليته ، فلم تعد تسيع البديهيات ، وتعقل الجليات ، وفسد نظام فكره ، فإذا النظري عنده بديهي وبالعكس ، يستريب في موضع الجزم ، ويؤمن في موضع الشك ، وفسد ذوقه فصار يستحلى المر ويستطيب الخبيث ، ويستمرئ الوحيم ، وبطل حسه فأصبح لا ييغض العدو الظالم ، ولا يحب الصديق الناصح .

رأى مجتمعاً هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شيء فيه في غير شكله أو في غير محله ، قد أصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً ، وأصبح المجرم فيه سعيداً حظياً ، والصالح محروماً شقيماً ولا أنكر في هذا المجتمع من المعروف ولا أعرف من المنكر . ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية ، وتسوقها إلى هوة الهلاك .

رأى معايرة الخمر إلى حد الإدمان ، والخلاعة والفجور إلى حد الاستهتار ، وتعاطى الربا إلى حد الاغتصاب واستلاب الأموال ، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع والنفامة . ورأى القسوة والظلم إلى حد الوأد وقتل الأولاد .

رأى ملوكاً اتخذوا بلاد الله دولاً ، وعباد الله خولاً . ورأى أحباراً ورهباناً أصبحوا أرباباً من دون الله ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة، لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح فعادت وبالأعلى أصحابها وعلى الإنسانية، فقد تحولت الشجاعة فتكاً وهمجية، والجلود تبذيراً وإسرافاً، والأنفة حمية جاهلية، والذكاء شطارة وخديعة، والعقل وسيلة لابتكار الجنائيات، والإبداع فى إرضاء الشهوات .

رأى أفراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق، ينتفع بها فى هيكल الحضارة، وكألواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة .

رأى الأمم قطعاناً من الغنم ليس لها راع، والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه، والسلطان كسيوف فى يد سكران يجرح به نفسه، ويجرح به أولاده وإخوانه .

* نواحي الحياة الفاسدة :

إن كل ناحية من نواحي هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح وتشغل باله، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفر على إصلاح ناحية من نواحيها، وظل طول عمره يعالج عيباً من عيوب المجتمع ويعانيه، ولكن نفسية الإنسان معقدة التركيب دقيقة النسيج كثيرة المنافذ والأبواب .، خفية التخلص والتنصل، وإنها إذا زاغت أو اعوجت لا يؤثر فيها إصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها، حتى يغير اتجاهها من الشر إلى الخير ومن الفساد إلى الصلاح، وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التى قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الحشائش الشيطانية فى أرض كريمة، وتحسم مادة الشر ويغرس فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عزوجل .

وكل داء من أدواء المجتمع الإنسانى، وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب اصلاحه حياة كاملة، ويستغرق عمر إنسان بطوله، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولا يزول، فإذا ذهب أحد يطارد الخمر فى بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة، أعياه أمرها وحبطت جهوده، لأن شرب الخمر ليس إلا نتيجة نفسية تعشق اللذة حتى فى السم، وتبتغى النشوة حتى فى الإثم، فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية

ومفاسده الخلقية ، وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة (١) لا تهجره إلا بتغيير نفس عميق ، وإذا أرغمت على تركه بغير هذا التغيير تسلت إلى غيره من أنواع الجريمة أو استباحته بتغيير الأسماء والصور .

* لم يكن الرسول رجلاً إقليمياً أو زعيماً وطنياً .

وكان مجال العمل في بلاد العرب فسيحاً إذا كان الرسول ﷺ رجلاً إقليمياً وسار في قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين ، كان له أن يعقد للأمة العربية لواء تنضم إليه قريش والقبائل العربية ، ويكون إمارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها ، ولا شك أن أبا جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وغيرهما كانوا في مقدمة من ينضم إلى هذا اللواء القومي ، ويقاثلون تحته ويقلدونه الزعامة ، أما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته ؟ أما حكموه في أكبر حادث من حوادث حياتهم المكية ومنحوه أكبر شرف ، إذ حكموه في وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت ؟ أما قالوا له على لسان عتبة ، وهم ما عرفوا الإغراء السياسي : « إن كنت إنما بك الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأساً ما بقيت » (٢) ، وإذا صار له ذلك كان يمكنه أن يرمي الدولة الفارسية بفرسان العرب وشجعانهم ، وينتصر للعروبة المهضومة ، وينتصر من العجم الظالمين ، ويفرز علم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم وفارس ، وإذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز إحدى الإمبراطوريتين في ذلك الحين ، فكان يمكنه أن يغير على اليمن أو الحبشة أو جارة أخرى ويضمها إلى الإمارة العربية الوليدة . وكانت في الحياة العربية نواح اجتماعية واقتصادية كثيرة تحتاج إلى حنكة

(١) منعت حكومة أمريكا الخمر ، وطاردتها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدينة الحاضرة كالجملات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدر أن أنفقت الدولة في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار ، وأن ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ ملايين صفحة ، وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاماً لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه ، وقد أعدم فيها ٣٠٠ نفس ، وسجن ٥٣٢٣٣٥ نفس ، وبلغت الغرامات إلى ١٦ مليون جنيه ، وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه ، ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر وعناداً في تعاطيها ، حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣م إلى سحب القانون وإباحة الخمر في مملكتها بإباحة مطلقة «من كتاب تنقيحات للأستاذ أبي الأعلى المودودي» .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ص ٤٣ ج ٣ .

سياسى وكفاية إدارى وعزيمة عصامى وابتكار عبقرى ، فلو قيض لها رجل من هؤلاء الرجال لكان للعرب شأن كبير وتاريخ جديد .

* لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل .

ولكن محمداً ﷺ لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل ويبدل عدواناً بعدوان ، ويحرم شيئاً فى مكان ويحلّه فى مكان آخر ، ويبدل أمة بأمة أخرى ، لم يبعث زعيماً وطنياً أو قائداً سياسياً ، يجر النار إلى قرصه ويصغى الإناء إلى شقه ويخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان . وإنما أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، إنما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة ووطن دون وطن ، ولكن كان خطابه للنفس البشرية وللضمير الإنسانى ، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق من يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافى واستقلالها السياسى خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته .

* قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها .

ولم يكن ﷺ من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها ، أو يتسللون إليها من نوافذها ، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب ، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتاً فى بعض نواحي البلاد ، ومنهم من يموت ولم ينجح فى مهمته (١) .

(١) إن غاندى الزعيم الهندى الكبير هدف من أول حياته السياسية والروحية إلى مبدأين عظيمين حصر فيهما زعامته السياسية وشخصيته الروحية القوية النادرين فى هذا العصر جعلهما شعاراً لمبدئه : الأول : لا عنف ولا مقاومة ، وقد دعا إلى هذا المبدأ كديانة وفلسفة ، وظل سنين طويلاً يدعو إليه بخطبه ومقالاته وصحفه ، واستنفذ فى ذلك جهوده ولما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسى وعن طريق الدعوة الدينية الأساسية لم تؤثر دعوته فى نفسية أمته تأثيراً عميقاً ، وقد جعلت هذه الأمة دعوته هباء منثوراً فى الاضطرابات الطائفية =

أتى النبي ﷺ بيت الدعوة والإصلاح من بابه ،
 ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك القفل
 المعقد الذى أعيا فتحه جميع المصلحين فى عهد الفترة ،
 وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه ، ودعا الناس
 إلى الإيمان بالله وحده ، ورفض الأوثان والعبادات
 والكفر بالطاغوت بكل معانى الكلمة ، وقام فى القوم
 ينادى : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ! »
 ودعاهم إلى الإيمان برسالته ، والإيمان بالآخرة .



= العظيمة التى وقعت فى بنجاب الشرقية ودلهى عاصمة الهند فى سبتمبر سنة ١٩٤٧م التى قتل فيها من
 المسلمين أكثر من نصف مليون ، وكانت مجزرة هائلة وقع فيها من القسوة والهمجية والاعتداء على الأطفال
 والنساء والأعراض ما لا يكاد يصدقهُ المؤرخون ، حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذى بلغت به أمته حد
 التقديس والتأليه .
 ؟

والمبدأ الثانى : نسخ اللبس المنبوذ ولم ينجح فى مهمته هذه كذلك نجاحاً يعتد به ، فكان ذلك برهاناً ساطعاً
 على أن طريق الأنبياء هو الطبيعي الصحيح فى الإصلاح والتغيير .

الفصل الثاني

رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام

* دفاع الجاهلية عن نفسها ،

ما أخطأ المجتمع الجاهلي فهم هذه الدعوة ومراميها ، وما غم على أهله أمرها ، وأدركوا عندما قرع أسماعهم صوت النبي ﷺ أن دعوته إلى الإيمان بالله وحده سهم مسدد إلى كبد الجاهلية ونعى لها ، فقامت قيامة الجاهلية ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير ، وقاتلت في سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت ، وأجلبت على الداعي ﷺ بخيلها ورجلها ، وجاءت بحدها وحديدها : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لشيء يُراد ﴾ ووجد كل ركن من أركان هذه الحياة ومن أثافى الجاهلية نفسه مههدداً وحياته منذرة ، وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب ، وكان ذلك آية توفيق النبي ﷺ لأنه أصاب الغرض ، وضرب على الوتر الحساس ، وأصاب الجاهلية في صميمها وفي مقتلها ، وثبت النبي ﷺ على دعوته ثبوتاً دونه ثبوت الراسيات ، لا يثنيه أذى ، ولا يلويه كيد ، ولا يلتفت إلى إغراء ، ويقول لعمه : « يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه (١) » .

* في سبيل الدين الجديد ،

مرتب غير صحيح

مكث رسول الله ﷺ ثلاث عشرة حجة يدعو إلى الله وحده والإيمان برسالته واليوم الآخر في كل صراحة ، لا يكنى ولا يلوح ولا يلين ، ولا يستكين ولا يحابي ولا يدهن ، ويرى في ذلك دواء لكل داء ، وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب ، ورموه عن قوس واحدة ، وأضرموه البلاد عليه ناراً ليحولوا بينه وبين أبنائهم وإخوانهم فأصبح الإيمان به والانحياز إليه جد الجد ، لا يتقدم إليه إلا جاد مخلص

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٣ .

هانت عليه نفسه ، وعزم على أن يقتحم لأجله النيران ، وتمشى إليه ولو على حسك السعدان ، فتقدم فتية من قريش لا يستخفهم طيش الشباب ، ولا يستهويهم مطعم من مطاعم الدنيا ، إنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة ، سمعوا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة الجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وقلقت بهم مضاجعهم ، فكأنهم على الحسك ، ورأوا أنهم لا يسعهم إلا الإيمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا إلى النبي ﷺ ، وهو في بلدهم وبين سمعهم وبصرهم ، فكانت رحلة طويلة شاقة لما أقامت قريش بينه وبين قومه من عقبات ، ووضعوا أيديهم في يديه ، وأسلموا أنفسهم وأرواحهم إليه ، وهم من حياتهم علي خطر ، ومن البلاء والحنة على يقين ، سمعوا القرآن يقول : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ؟ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ (١) وسمعوا قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِرِينَ ﴾ البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب ﴾ (٢) فما كان من قريش إلا ما توقعوه ، قد نثرت كنانتها ، وأطلقت عليهم كل سهم من سهامها ، فما زادهم كل هذا إلا ثقة وتجلداً ، وقالوا : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ (٣) ولم يزدهم هذا البلاء والاضطهاد في الدين إلا متانة في عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتاً للكفر وأهله ، وإشعالاً لعاطفتهم وتمحيصاً لنفوسهم فأصبحوا كالتمر المسبوك واللجين الصافي ، وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف بعد الجلاء .

* التربية الدينية :

هذا والرسول ﷺ يغذى أرواحهم بالقرآن ويربى نفوسهم بالإيمان ، ويخضعهم أمام رب العالمين خمس مرات في اليوم عن طهارة بدن ، وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل ، فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحراً من سلطان الماديات ومقاومة للشهوات ونزوعاً إلى رب الأرض والسموات ، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس ، لقد رضعوا حب الحرب وكانهم ولدوا مع السيف ، وهم من أمة ، من أيامها حرب

(١) العنكبوت : ١-٣

(٢) البقرة : ٢١٤ .

(٣) الأحزاب : ٢٢ .

بسوس وداحس والغبراء وما يوم الفجار بعيد ، ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية ويقول لهم: ﴿كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة﴾ (١) فانتهروا لأمره وكفوا أيديهم ، وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس في غير جين وفي غير عجز ، ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم في مكة عن نفسه بالسيف مع كثرة الدواعي الطبيعية إلى ذلك وقوتها ، وذلك غاية ما روى في التاريخ من الطاعة والخضوع ، حتى إذا تعدت قريش في الطغيان وبلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة : وهاجروا إلى يثرب وقد سبقهم إليها الإسلام .

* في مدينة الرسول ﷺ .

والتقى أهل مكة بأهل يثرب ، لا يجمع بينهم إلا الدين الجديد . فكان أروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ ، وكان الأوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعثت . ولا تزال سيوفهم تقطر دماً . فألف الإسلام بين قلوبهم . ولو أنفق أحد ما في الأرض جميعاً ما ألف بين قلوبهم . ثم آخى رسول الله ﷺ بينهم وبين المهاجرين . فكانت أخوة تزرى بأخوة الأشقاء . وتبذل كل ما روى في التاريخ من خلة الأخلاء .

كانت هذه الجماعة الوليدة - المؤلفة من أهل مكة المهاجرين وأهل يثرب الأنصار - نواة للأمة الإسلامية الكبيرة التي أخرجت للناس ومادة للإسلام ، فكان ظهور هذه الجماعة في هذه الساعة العصبية وقاية للعالم من الانحلال الذي كان يهدده ، وعصمة للإنسانية من الفتن والأخطار التي أهدقت بها . لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة بين المهاجرين والأنصار : ﴿إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ (٢) .

* انحلت العقدة الكبرى .

ولم يزل الرسول ﷺ يريهم تربية دقيقة عميقة ، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكى جمرة قلوبهم ، ولم تزل مجالس الرسول ﷺ تزيدهم رسوخاً في الدين وعزوفاً عن الشهوات ، وتفانياً في سبيل المروءة ، وحنيناً إلى الجنة ، وحزناً على العلم وفقهاً في الدين ومحاسبة للنفس ، يطيعون الرسول في المنشط والمكره ، وينفرون في سبيل الله خفافاً وثقالاً . قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعاً وعشرين مرة في عشر سنين . وخرجوا بأمره لقتال العدو أكثر من مائة مرة . فهان عليهم

(١) النساء : ٧٧ . (٢) الأنفال : ٧٣ .

التخلي عن الدنيا وهانت عليهم رزية أولادهم ونسائهم في نفوسهم . ونزلت الآيات بكثير مما لم يألّفوه ولم يتعودوه . وبكل ما يشق على النفس إتيانه في المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتنال أمرها . وانحلت العقدة الكبرى - عقدة الشرك والكفر - فانحلت العقد كلها وجاهدتهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى . وانتصر الإسلام على الجاهلية في المعركة الأولى - فكان النصر حليفه في كل معركة ، وقد دخلوا في السلم كافة بقلوبهم وجوارحهم وأرواحهم كافة ، لا يشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى ، ولا يكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى . حدثوا الرسول عما اختانوا أنفسهم ، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد - نزل تحريم الخمر والكفوس المتدفقة على راحتهم ، فحال أمر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والأكباد المتقدمة ، وكسرت دنان الخمر فسالت في سكك المدينة .

حتى إذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم . وأنصفوا من أنفسهم إنصافهم من غيرهم ، وأصبحوا في الدنيا رجال الآخرة وفي اليوم رجال الغد . لا تجزعهم مصيبة ولا تبطرهم نعمة ولا يشغلهم فقر ولا يطغيهم غنى ولا تلهيهم تجارة ولا تستخفهم قوة . ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً . وأصبحوا للناس القسطاس المستقيم . قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين . وطأ لهم أكناف الأرض وأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وداعية إلى دين الله . واستخلفهم الرسول ﷺ في عمله ولحق بالرفيق الأعلى قرير العين من أمته ورسالته .

* أغرب انقلاب وقع في تاريخ البشر .

لقد كان هذا الانقلاب الذي أحدثه ﷺ في نفوس المسلمين وبواسطتهم في المجتمع الإنساني أغرب ما في تاريخ البشر ، وقد كان هذا الانقلاب غريباً في كل شيء : كان غريباً في سرعته وكان غريباً في عمقه وكان غريباً في سعته وشموله ، وكان غريباً في وضوحه وقربه إلى الفهم . فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ، ولم يكن لغزاً من الألغاز . فلندرس هذا الانقلاب عملياً ، ولنتعرف مدى تأثيره في المجتمع الإنساني والتاريخ البشري .

* تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول *

كان الناس - عرباً وعجماً - يعيشون حياة جاهلية ، يسجلون فيها لكل ما خلق لأجلهم ويخضع لإرادتهم وتصرفهم ، لا يثيب الطائع بجائزة ولا يعذب العاصي بعقوبة ولا يأمر ولا ينهى ، فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم ، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم ، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية . فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر وتولوا إدارة المملكة وتدير شؤونها وتوزيع أرزاقها ، إلى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة ، فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية ، وكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السموات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له : من بنى هذا القصر العتيق ؟ فيسمى ملكاً من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له ، فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه ، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحبه إليهم ، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة ، قاصرة مجملة ، لا تبعث في نفوسهم هبة ولا محبة .

وهذه الفلسفة اليونانية قد عرفت بواجب الوجود في سلوب ، ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة والربوبية والإعطاء والمنع والرحمة ، ولم تثبت له إلا الخلق الأول ، ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ، ونفت الصفات وقررت كليات كلها حط من قدر الخالق وقياس على الخلق ، والسلوب إذا اجتمعت لم تفد فائدة إيجاب واحد ، ولم نعلم مدينة واحدة ولا مجتمعاً ولا نظاماً ولا عملاً ولا بناء قامت على مجرد سلوب ، فتجردت الديانة في أوساط الفلسفة الإغريقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والاتجاء إليه في الحوادث ومحبته بكل القلب ، وهكذا فقدت الديانة السائدة على العالم روحها وأصبحت طقوساً وتقاليد وأشباحاً للإيمان .

انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح ، ذات تأثير في الأخلاق والاجتماع ، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها ، آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى ، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور ، العزيز الحكيم ، الغفور الودود ، الرؤوف الرحيم ، له الخلق والأمر ، بيده

ملكوت كل شيء ، يجبر ولا يجار عليه ، إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه ، يشيب بالجنة ويعذب بالنار ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، يعلم الخبء فى السماوات والأرض ، ويعلم خائئة الأعين وما تخفى الصدور ، إلى آخر ما جاء فى القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه ، فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق الواضح انقلاباً عجيباً ، فإذا آمن أحد بالله وشهد أن لا إله إلا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن ، تغلغل الإيمان فى أحشائه وتسرب إلى جميع عروقه ومشاعره ، وجرى منه مجرى الروح والدم واقتلع جرائم الجاهلية وجذورها ، وغمر العقل والقلب بفيضانه وجعل منه رجلاً غير الرجل ، وظهر منه من روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ومن خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق ، ولا يزال موضع حيرة ودهشة منه إلى الأبد ، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق .

* وخز الضمير ،

وكان هذا الإيمان مدرسة خلقية وتربية نفسية تملئ على صاحبها الفضائل الخلقية من صرامة وإرادة وقوة نفس ومحاسبتها والإنصاف منها ، وكان أقوى وازع عرفه تاريخ الأخلاق وعلم النفس عن الزلات الخلقية والسقطات البشرية ، حتى إذا جمحت السورة البهيمية فى حين من الأحيان وسقط الإنسان سقطة ، كان ذلك حيث لا تراقبه عين ولا تتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفساً لومة عنيقة ووخزاً لا دعاً للضمير وخيلاً مروعاً ، لا يرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون ، ويعرض نفسه للعقوبة الشديدة ويتحملها مطمئناً مرتاحاً تفادياً من سخط الله وعقوبة الآخرة .

وقد حدثنا المؤرخون الثقات فى ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها إلا فى التاريخ الإسلامى الدينى . فمنها ما روى مسلم بن الحجاج القشيرى صاحب الصحيح بسنده عن عبدالله بن بريدة عن أبيه أن معاذ بن مالك الأسلمى ، أتى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله إني ظلمت نفسى وزنيت وإنى أريد أن تطهرنى » فردّه ، فلما كان من الغد أتاه فقال : « يا رسول الله إني قد زنيت » فردّه الثانية ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟ فقالوا : ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم

أيضاً فسأل عنه فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .

قال فجاءت الغامدية فقالت : « يا رسول الله إني قد زينت فطهرني » وأنه ردها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تردني ؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً ، فوالله إني لحبلى ، قال : أما لا فاذهبي حتى تلدى . قال : فلما ولدت أتنه بالصبي في خرقة قالت : هذا قد ولدته . قال : فاذهبي فأرضعيه حتى تطعميه . فلما فطمته أتنه بالصبي ، في يده كسرة خبز ، فقالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها ، فسمع نبي الله سبه إياها فقال : « مهلاً يا خالد ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (١)

* النبات أمام المطامع والشهوات :

وكان هذا الإيمان حارساً لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته . يملك نفسه النزع أمام المطامع والشهوات الجارفة وفي الخلوة والوحدة حيث لا يراها أحد . وفي سلطانه ونفوذه حيث لا يخاف أحداً . وقد وقع في تاريخ الفتح الإسلامى من قضايا العقاف عند المغنم وأداء الأمانات إلى أهلها والإخلاص لله ، ما يعجز التاريخ البشرى عن نظائره ، وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الإيمان ومراقبة الله واستحضار علمه في كل مكان وزمان .

حدث الطبرى قال : لما هبط المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط . ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ، فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس (٢) .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الحدود ؛ باب : من شهد على نفسه بالزنا رقم ١٦٩٢ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٦ .

* الأنفة وعبر النفس *

وكان هذا الإيمان بالله رفع رأسهم عالياً وأقام صفحة عنقهم فلن تحنى لغير الله أبداً لا لملك جبار ولا لحبر من الأحرار، ولا لرئيس ديني ولا دنيوي، وملاً قلوبهم وعبوديتهم بكبرياء الله تعالى وعظمته، فهانت وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفة، فإذا نظروا إلى الملوك وحشمتهم وما هم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف، فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس الإنسان.

عن أبي موسى قال: انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين، وقد قال له عمرو وعمارة: إنهم لا يسجدون لك، فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين والرهبان: اسجدوا للملك. فقال جعفر: لا نسجد إلا لله (١).

* الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوانب *

أرسل سعد قبل القادسية ربي بن عامر رسولا إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللالئ الثمينة العظيمة، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضته على رأسه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتوني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فقال رستم: ائذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عামتها. فقالوا له: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام (٢).

(١) البداية ج ٣ ص: ٦٧.

(٢) البداية ج ٧ ص: ٤٠.

* الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة :

ولقد بعث الإيمان بالآخرة في قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة وحينئذ غريباً إلى الجنة واستهانة نادرة بالحياة، تمثلوا الآخرة وتجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم يرونها رأى عين فطاروا إليها طيران حمام الزاجل لا يلوى على شيء .

تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ ، الجنة ورب الكعبة ، إني أجد ريحها من دون أحد ، قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته بينانه (١) .

قال رسول الله ﷺ يوم بدر : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ؟ فقال عمير بن الحمام الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض . قال : نعم ، قال : بخ بخ قال : فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن يكون من أهلها . قال : فإنك من أهلها . فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل (٢) .

عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري قال : سمعت أبي رضى الله عنه وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف ، فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال : نعم . فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب حتى قتل (٣) .

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه فقال له

(١) متفق عليه ؛ رواه البخاري : الجهاد رقم (٢٨٠٥)، والمغازي (٤٠٤٨) .

(٢) رواه مسلم في الإمامة باب : ثبوت الجنة للشهيد .

(٣) رواه مسلم في الإمامة باب : ثبوت الجنة للشهيد .

بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت ونحن نكفيك وقد رضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن بنى هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك ، والله إنى لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عزوجل أن يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً (١) .

قال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه فقال: أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله ﷺ شيئاً فقسمه ، وقسم للأعرابي فأعطى أصحابه ما قسم له وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه إليه فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء به إلى النبي ﷺ فقال : ما هذا يا رسول الله ؟ قال قسم قسمته لك ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم ، فأمرت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله ليصدقك ، ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به النبي ﷺ وهو مقتول فقال : أهو هو ؟ قالوا : نعم ، قال : صدق الله فصدقه (٢) .

* من الأنانية إلى العبودية ،

وكانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الأفعال والأخلاق والسلوك والأخذ والترك والسياسة والاجتماع ، لا يخضعون لسلطان ولا يقرون بنظام ولا ينخرطون فى سلك ، يسيرون على الأهواء ويركبون العمياء ويخبطون خبط عشواء ، فاصبحوا الآن فى حظيرة الإيمان والعبودية لا يخرجون منها ، واعترفوا لله بالملك والسلطان والأمر والنهى ، ولأنفسهم بالرعية والعبودية والطاعة المطلقة ، وأعطوا

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ١٣٥ .

(٢) زاد المعاد ج ٣ ص ١٩٠ .

من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهي استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالاً ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ولا يرضون ولا يسخطون ولا يعطون ولا يمنعون ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره . ولما كان القوم يحسنون اللغة التي نزل بها القرآن وتكلم بها الرسول ﷺ وعرفوا الجاهلية ونشأوا عليها ، وعرفوا معنى الإسلام معرفة صحيحة وعرفوا أنه خروج من حياة إلى حياة ، ومن مملكة إلى مملكة ، ومن حكم إلى حكم ، أو من فوضوية إلى سلطة ، أو من حرب إلى استسلام وخضوع ، ومن الأنانية إلى العبودية وإذا دخلوا في الإسلام فلا افتيات في الرأي ولا نزاع مع القانون الإلهي ولا خيرة بعد الأمر ولا مشاقة للرسول ولا تحاكم إلى غير الله ولا إصدار عن الرأي ، ولا تمسك بتقاليد وعادات ولا ائتمار بالنفس ، فكانوا إذا أسلموا انتقلوا من الحياة الجاهلية بخصائصها وعاداتها وتقاليدها إلى الإسلام بخصائصه وعاداته وأوضاعه ، وكان هذا الانقلاب العظيم يحدث على أثر قبول الإسلام من غير تأن .

هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف بالبيت . فلما دنا منه . قال رسول الله ﷺ : أفضالة ؟ قال : نعم ، فضالة يا رسول الله ! قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء ، كنت أذكر الله ، فضحك النبي ﷺ ، ثم قال : استغفر الله ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، وكان فضاله يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ، فقلت : يا بئى الله عليك والإسلام (١) .

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣٣٢ .

* الحكمات والبيّنات فى الإلهيات *

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الإنسان بعد موته ، وآتاهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب ، وكفّوهم مؤونة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول ، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، لا تعمل فيهما حواسهم ، ولا يؤدى إليها نظرهم ، وليست عندهم معلوماتها الأولية .

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الأمر جذعاً ، وأبدوا البحث أنفأً وبدأوا رحلتهم فى مناطق مجهولة لا يجدون فيها مرشداً ولا خريئاً ، وكانوا فى ذلك أكثر ضلالاً ، وأشدّ تعباً وأعظم اشتغالاً بالفضول من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الإنسانى فى الجغرافية ، وما حدد وضبط فى الخرائط على تعاقب الأجيال ، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه على قصر عمره ، وضعف قوته ، وفقدان آتته ، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته وخاتته عزيمته ، فرجع بمذكرات وإشارات مختلة ، وكذلك الذين خاضوا فى الإلهيات من غير بصيرة ، وعلى غير هدى ، جاءوا فى هذا العلم بآراء فجّة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر ساذجة ، ونظريات مستعجلة ، فضلوا وأضلوا .

وكذلك منحهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة ومحكمات هى أساس المدنية الفاضلة ، والحياة السعيدة فى كل زمان ومكان ، فحرموها على تعاقب الأعصار ، فبنوا مدنيّتهم على شفا جرف هار ، وأساس منهار ، وعلى قياس واختبار فزاع أساس المدنية وتداعى بناؤها ، وخر عليهم السقف من فوقهم .

وكان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين جداً ، إذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله ﷺ ، فكفّوا المثونة وسعدوا بالثمرة ، ووفروا ذكاءهم وقوتهم وجهادهم فى غير جهاد ، ووفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فيما يعينهم من الدين والدنيا وتمسكوا بالعروة الوثقى ، وأخذوا فى الدين بلب اللباب .

الفصل الثالث المجتمع الإسلامي

* طاقة زهر *

إن هذا الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، والإسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ورد كل فرد في المجتمع البشري إلى موضعه ، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها ، أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، يقول النبي ﷺ : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان (١) » ، ويسمعه الناس يقول : « يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها آبائها ، فالناس رجлан : رجل بر تقى كريم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى (٢) » ، ويقول : « إن أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم يمنعه ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى (٣) » ، وعن أبي ذر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضله بتقوى الله » ويسمعه الناس يقول فيما يناجى به ربه فى آخر الليل : « وأنا شهيد أن العباد كلهم أخوة (٤) ».

* ليس منا من دعا إلى عصبية *

واقطع ﷺ جذور الجاهلية وجراثيمها ، وحسم مادتها وسد كل نافذة من نوافذها ، فقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل عصبية ، وليس

(١) رواه الترمذي : كتاب المناقب ، رقم : ٣٩٥٠ .

(٢) رواه أبو داود : الأدب رقم : ٥١١٦ ، وفي المسند ٣٦١/٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ١٥٨/٤ . (٤) رواه الإمام أحمد في المسند ١٥٨/٥ .

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند ٢٦٩/٤ .

منا من مات على عصبية (١)، وعن جابر بن عبد الله قال: « كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصارى: يا للأنصار، فقال للمهاجرين: يا للمهاجري. فقال النبي ﷺ دعوها إنها منتنة (٢) » وحرم حمية الجاهلية، وقيد ذلك التناصر الذى جرت الجاهلية العربية على إطلاقه، فكان من الأمثال السائرة وشرائع الجاهلية الثابتة. «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، قال النبي ﷺ: « من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذى ردى فهو ينزع بذنبه (٣) » وتغيرت بذلك نفسية العربى وعقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربى لا يسيغ ذلك المثل العربى السائر، فلما قال النبي ﷺ مرة: « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » لم يملك نفسه، فقال: « يا رسول إذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: تمنعه من الظلم فذاك نصرتك إياه (٤) ».

* كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته *

وأصبحت الطبقات والأجناس فى المجتمع الإسلامى متعاونة متعاضدة لا يبغى بعضها على بعض، فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، لهن مثل الذى عليهن بالمعروف، وأصبح كل واحد فى المجتمع راعياً ومسئولاً عن رعيته. الامام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته (٥)، وهكذا كان المجتمع الإسلامى مجتمعاً رشيداً عاقلاً مسئولاً عن أعماله.

* لا طاعة لخلق فى معصية الخالق *

وأصبح المسلمون أعواناً على الحق، أمرهم شورى بينهم، يطيعون الخليفة ما (١) رواه الإمام مسلم: الإمارة رقم ١٨٤٨ و ١٨٥٠، والنسائي: تحريم الدم رقم ٤١١٩ و ٤١٢٠، وأبو داود: الأدب، رقم ٥١٢١.

(٢) رواه البخارى تفسير رقم ٤٩٠٥، ومسلم: بر رقم ٦٤، والمسند ٣/٣٣٨ و ٣٨٥ و ٣٩٣، وعبد الرزاق ٩/٦٨ رقم ١٨٠٤١، والترمذي: تفسير رقم ٣٥٣٤.

(٣) رواه البخارى مظالم رقم ٢٤٤٣ و ٢٤٤٤، إكراه رقم: ٦٩٥٢، ومسلم: بر: ٦٤، والترمذي: فتن: ٦٨، والدارمي من رقائق رقم ٢٧٥٣، والمسند ٣/٩٩ و ٣٠١ و ٣٢٤.

(٤) رواه أبو داود: أدب رقم ٥١١٧، من قول ابن مسعود فهو موقف.

(٥) مأخوذ من الحديث الذي رواه البخارى فى النكاح رقم ٥١٨٨، ومسلم، إمارة ٢٠، والمسند ٥/٢، وعبد الرزاق ١١/٣١٩، وابن حبان ١١/٧، والبيهقي ٦/٢٨٧ و ٧/٢٩١.

أطاع الله فيهم . فإن عصى الله فلا طاعة له عليهم وأصبح شعار الحكم : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ^(١) » وأصبحت الأموال والخزائن التي كانت طعمة للملوك والأمراء ودولة بين الأغنياء مال الله الذي لا ينفق إلا في وجهه ولا يخرج إلا في حقه وأصبح المسلمون مستخلفين فيه ، والخليفة كولي اليتيم إن استغنى استعفى وإن افتقر أكل بالمعروف ، وأصبحت الأرض التي اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاؤون ويضيّقونها على من يشاؤون ، ويقطعها بعضهم بعضاً كما يقطع الثوب ، أصبحت أرض الله التي من ظلم قيد شبر منه طوقه من سبع أرضين .

* حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع .

وكان المجتمع البشري قد فقد نشاطه وأريجته في الحياة وفي كل ما يأتي ويذر وكان مجتمعاً مرهقاً مخنوقاً ، فكان مدفوعاً إلى ساحة الحرب من غير أن ينشط أو يتحمس لأغراض أولى الأمر ، وكان مدفوعاً إلى الصلح ولم يقض من الحرب وطراً ولم يشف نفسه ، وكان الرجال في هذا المجتمع يرغمون على التضحية والإيثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الأمور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة ، لا يحبون القادة ولا يحبهم القادة ، فكانوا مرغمين على أن يطيعوا من لا يحبونه ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من ييغضونه . فانطفأت جمره القلوب وبردت العواطف ، ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل . ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار .

كانت العاطفة القوية - التي يرجع إليها الفضل في غالب عجائب الإنسانية ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ ، تلك التي يسميها الناس (الحب) - تائهة ضائعة لم يظهر منذ قرون من يشغلها ويستثمرها . فضاعت في ألوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلافة الفانية مما تغنى به الشعراء قديماً وحديثاً .

(١) رواه عبد الرزاق ٣٣٥/١١، ومعناه في البخاري ، مغازي ٤٣٤٠ ، وأحكام ٧١٤٥ ، وأحمد كما في

المجمع ٢٢٦/٥ .

فى هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد ﷺ فحل عقاله وفك إيساره ثم حل منه محل الروح والنفس وشغل منه مكان القلب والعين . وهو المبشر الذى جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال ، وأبلغ معانى الحسن والإحسان . من رآه بديهته هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه . يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، فاندفع إليه الحب الصادق كما يندفع الماء إلى الحدور . وانجذبت إليه النفوس والقلوب انجذاب الحديد الى المغناطيس . كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد . وأحبه رجال أمته وأطاعوه حباً وطاعة لم يسمع بمثلهما فى تاريخ العشاق والمتممين . ووقع من خوارق الحب والتفانى فى سبيل طاعته وإيثاره على النفس والأهل والمال والولد ما لم يحدث قبله ولن يحدث بعده .

* نواذر الحب والتفانى :

وطيئ أبو بكر بن أبى قحافة فى مكة يوماً بعد ما أسلم ، وضرب ضرباً شديداً ودنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ويحرفهما لوجهه ونزا على بطن أبى بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبى بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ولا يشكون فى موته ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت : والله ما لى علم بصاحبك . فقال : اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : إن أبى بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، قالت : ما أعرف أبى بكر ولا محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت ، قالت : نعم ، فمضت معها حتى وجدت أبى بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر ، وإننى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم . قال : فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت : هذه أملك تسمع ! قال : فلا شئ عليك منها . قالت : سالم صالح ! قال : أين هو ؟ قالت : فى دار ابن الأرقم ، قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو أتى رسول الله ﷺ ، فأمهلتنا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتنا به يتكئ

عليهما حتى أدخلناه على رسول الله ﷺ (١) .

وخرجت امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله ﷺ فقالت : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ قالوا : خيراً ، هو بحمد الله كما تحبين ! قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فلما رأيته قالت : كل مصيبة بعدك جليل (٢) .

رفعوا خبيئاً رضى الله عنه على الخشبنة ونادوه يناشدونه : أتحب أن محمداً مكانك ؟ قال : لا والله العظيم ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه ، فضحكوا منه (٣) .

وقال زيد بن ثابت : بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لى : إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته وهو بآخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية سهم ، فقلت : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ فقال : على رسول الله ﷺ السلام : قل له : يا رسول الله أجدر ربح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف ، وفاضت نفسه من وقته (٤) .

وترأس أبو دجانة يوم أحد على رسول الله ﷺ بظهره والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك (٥) ، ومص مالك الحدرى جرح رسول الله ﷺ حتى أنقاه قال له : معج . قال : والله ما أمجه أبداً (٦) .

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

(٢) رواه ابن إسحاق وإمام المغازي ، ورواه البيهقي مرسلأ ، والجلل : الحقيرة .

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ٦٣ .

(٤) زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٤ .

(٥) أيضاً ص ١٣٠ .

(٦) أيضاً ص ١٣٦ .

وقدم أبو سفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني. قال: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس (١).

قال عروة بن مسعود الثقفي لأصحابه بعدما رجع من الحديبية: أي قوم، والله لقد وفدت على الملك، على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيماً له (٢).

* عجائب الانقياد والطاعة *

ولم يزل الانقياد والطاعة من جنود « الحب » المتطوعة، فلما أحبه القوم بكل قلوبهم أطاعوه بكل قواهم، يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه وعن الأنصار قبل بدر: « إنني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطعن حيث شئت وصل جبل من شئت ونخذ من أموالنا ما شئت وأعطينا ما شئت وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك (٣)

وكان من شدة طاعتهم له ﷺ أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فما كان من الناس إلا أن أطاعوه وأصبحت المدينة لهؤلاء كأنها مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب. يقول كعب: ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا

(١) سيرة ابن هشام، ذكر الأسباب الموجبة للمسير إلى مكة، ج ٤ ص: ٢٧.

(٢) زاد المعاد، ج ٣ ص ١٢٥.

(٣) أيضاً ص ١٣٠.

حتى تنكرت لى نفس الأرض، فما هى الأرض التى أعرف ، إلى أن قال : حتى إذا طال على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه فوالله ما رد علىّ السلام فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فكست فعدت فنأشدته فسكت ، فعدت فنأشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيني وتوليت حتى تسورت الجدار .

وكان من طاعته أيضاً وهو فى موضع عتاب وجفوة أن رسول رسول الله ﷺ يأتيه ويقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك فقال : أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال : لا بل اعتزلها فلا تقربنها . فقال لامرأته : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الأمر .

وكان من حبه للرسول ﷺ وإشاره على كل أحد فى الدنيا أن ملك غسان يخطب وده ويستلحقه بنفسه ، وتلك محنة عظيمة فى حال الجفوة والعتاب ، ولكنه يرفض ذلك ، قال : « بينما أنا أمشى فى سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام من قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلنى على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له إلىّ حتى جاءنى فدفع إلىّ كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها (١) .

ومن غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ما حدث عند نزول النهى عن الخمر فى مجلس شرب ، فعن أبى بريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا وعندنا باطية (٢) لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم

(١) رواه البخاري : مغازي ٤٤١٨ ، ومسلم : توبة ٥٣ والمسنند ٣/٤٤٥٧ و٦/٤٨٧ .

(٢) الباطية : إناء من زجاج يملأ من الشراب .

عليه وقد نزل تحريم الخمر « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » - إلى قوله : « فهل أنتم متتهون » . فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله : « فهل أنتم متتهون » . قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا : انتهينا ربنا . انتهينا ربنا (١) .

ومن غرائب الطاعة للرسول وإثاره على النفس والأهل والعشيرة ما روى عن عبدالله بن عبدالله بن أبي ، روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله ﷺ عبدالله بن عبدالله بن أبي قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبي أنت وأمي ؟ قال : يقول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فقال : فقد صدق والله يا رسول الله ، أنت والله الأعز وهو الأذل ، أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني ، ولئن كان يرضى الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتيتهما به ، فقال رسول الله ﷺ : لا فلما قدموا المدينة قام عبدالله بن عبدالله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال : أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ ، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله . فقال : يا للخزرج ، ابني يمنعني بيتي ، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي !! فقال : والله لا يأويه أبداً ، إلا بإذن منه . فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله . فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فقال : اذهبوا إليه فقولوا له : خله ومسكنه . فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم (٢) .

(١) رواه ابن جرير بسنده في التفسير عند قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر » الآية ، تفسير الطبري ٧ الآية (٩٠) المائدة .
(٢) تفسير الطبري ج ٢٨ الآية (٨) المنافقون .

الفصل الرابع

كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية

بهذا الإيمان الواسع العميق، والتعليم النبوي المتقن، وبهذه الثرية الحكيمة الدقيقة وبشخصيته الفذة، وبفضل هذا الكتاب السماوي المعجز الذي لا تنقضي عجائبه ولا تخلق جدته، بعث رسول الله ﷺ في الإنسانية المحتضرة حياة جديدة. عمد إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غناها، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر، والإخلاد إلى الأرض، فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغراً لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جماداً فتحول جسماً نامياً وإنساناً متصرفاً. وكأنما كان ميتاً لا يتحرك فعاد حياً يملأ على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائداً بصيراً يقود الأمم: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (١).

عمد إلى الأمة العربية الضائعة وإلى أناس من غيرها فما لبث العالم أن رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر وسوانح التاريخ، فأصبح عمر الذي كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب وينهره، وكان من أوساط قريش جلادة وصرامة، ولا يتبوأ منها المكانة العليا، ولا يحسب له أقرانه حساباً كبيراً، إذا به يفجأ العالم بعبقريته وعصاميته، ويدحر كسرى وقيصر عن عروشهما ويؤسس دولة إسلامية تجمع بين ممتلكاتهما وتفوقهما في الإدارة وحسن النظام فضلاً عن الورع والتقوى والعدل الذي لا يزال فيه المثل السائر.

وهذا ابن الوليد كان أحد فرسان قريش الشبان انحصرت كفاءته الحرية في نطاق محلي ضيق يستعين به رؤساء قريش في المعارك القبلية فينال ثقتهم وثناءهم، ولم يحرز الشهرة الفائقة في نواحي الجزيرة، إذ به يلمع سيفاً إلهياً لا يقوم له شيء إلا حصده، وينزل كصاعقة على الروم والفرس ويترك ذكراً خالداً في التاريخ.

(١) آية ١٢٢: الأنعام.

وهذا أبو عبيدة كان موصوفاً بالصلاح والأمانة والرفق ويقود سرايا المسلمين إذا به يتولى القيادة العظمى للمسلمين ويطرد هرقل من ربوع الشام ومروجها الخضراء ويلقى عليها الوداع ويقول : سلام على سورية سلاماً لا لقاء بعده .

وهذا عمرو بن العاص كان يعد من عقلاء قريش وترسله في سفارتها الى الحبشة تسترد المهاجرين المسلمين فيرجع خائباً إذا به يفتح مصر وتصير له صولة عظيمة .

وهذا سعد بن أبي وقاص لم نسمع به في التاريخ العربي قبل الإسلام كقائد جيش ورئيس كتبية ، إذا به يتقلد مفاتيح المدائن ، وينيط باسمه فتح العراق وإيران .

وهذا سلمان الفارسي كان ابن موبدان في إحدى قرى فارس لم يزل يتنقل من رق الى رق ومن قسوة الى قسوة إذا به يطلع على أمته كحاكم لعاصمة الإمبراطورية الفارسية التي كان بالأمس أحد رعاياها ، وأعجب من ذلك أن هذه الوظيفة لا تغير من زهادته وتقشفه فيراه الناس يسكن في كوخ ويحمل على رأسه الأثقال .

وهذا بلال الحبشي يبلغ من فضله وصلاحه مبلغاً يلقيه فيه أمير المؤمنين عمر بالسيد .

وهذا سالم مولى أبي حذيفة يرى فيه عمر موضعاً للخلافة يقول : لو كان حياً لاستخلفته .

وهذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين إلى مؤته وفيه مثل جعفر بن أبي طالب وخالد بن الوليد ، ويقود ابنه أسامة جيشاً فيه مثل أبي بكر وعمر .

وهذا أبو ذر والمقداد وأبو الدرداء وعمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ، تهب عليهم نفحة من نفحات الإسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين والعلماء الراسخين .

وهذا علي بن أبي طالب وعائشة وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبدالله بن عباس قد أصبحوا في أحضان النبي الأمي ﷺ من علماء العالم، يتفجر العلم من جوانبهم، وتنطق الحكمة على لسانهم ، أبر الناس قلباً وأعظمهم علماً وأقلهم تكلفاً ، يتكلمون فينصت الزمان ، ويخطبون فيسجل قلم التاريخ .

* كتلة بشرية متزنة *

ثم لا يلبث العالم المتمدن أن يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التي استهانت بقيمتها الأمم المعاصرة وسخرت منها البلاد المجاورة ، لا يلبث أن يرى منها كتلة لم يشاهد التاريخ البشرى أحسن منها اتزاناً ، كأنها حلقة مفرغة لا يعرف طرفها أو كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره ، كتلة فيها الكفاية التامة فى كل ناحية من نواحي الإنسانية ، كتلة هى فى غنى عن العالم ، وليس العالم فى غنى عنها ، وضعت مدنيته وأسسست حكومتها وليس لها عهد بها ، فلم تضطر إلى أن تستعير رجلاً من أمة أو تستعين فى إدارتها بحكومة ، أسست حكومة تمد رواقها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين ، وملأت كل ثغر وسدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية والديانة والقوة والأمانة ، تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف فأوجدتها هذه الأمة الوليدة التى لم يمض عليها إلا بعض العقود - كله جهاد ودفاع ومقاومة وكفاح - برجل من الرجال الأكفاء ، فكان منها الأمير العادل والخازن الأمين والقاضى المقسط ، والقائد العابد والوالى المتورع والجندى المتقى ، وكانت بفضل التربية الدينية التى لا تزال مستمرة ، وبفضل الدعوة الإسلامية التى لا تزال سائرة ، مادة لا تنقطع ومعيناً لا ينضب ، لا تزال تسند الحكومة برجال يرجحون جانب الهداية على الجباية ، ولا يزالون يجمعون بين الصلاح والكفاية ، وهنا ظهرت المدينة الإسلامية بمظهرها الصحيح ، وتجلت الحياة الدينية بخصائصها التى لم تتوفر لعهد من عهود التاريخ البشرى .

لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب . أصاب الجاهلية فى مقتلها أو صميمها ، فأصمى رميته ، وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحواً جديداً ويفتتح عهداً سعيداً ، ذلك هو العهد الإسلامى الذى لا يزال غرة فى جبين التاريخ .



الباب الثالث

العصر الإسلامي

الفصل الأول

عهد القيادة الإسلامية

* الأئمة المسلمون وخصائصهم *

ظهر المسلمون وتزعموا العالم وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها ، وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً مترناً عادلاً ، وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم ، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم :

أولاً : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية ، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم ، لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم ، ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، قد جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس وجعل لهم شريعة يحكمون بها بين الناس ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ^(١) وقد قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ ^(٢).

ثانياً : أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس ، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر ، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد ﷺ وإشرافه الدقيق يزكيهم ويؤدبهم ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار على النفس وخشية الله وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها . يقول : « إنا والله لا نولى هذا العمل أحداً سألناه ، أو أحداً حرص عليه » ^(٣) ، ولا يزال يقرع سمعهم : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ ^(٤) فكانوا لا يتهافون على الوظائف

(١) آية : ١٢٢ الأنعام . (٢) آية : ٨ المائدة .

(٣) رواه البخاري : أحكام رقم ٧١٤٩ ، ومسلم : إمارة رقم ١٤ . (٤) آية : ١٨٣ القصص .

والمناصب تهافت الفراش على الضوء ، بل كانوا يتدافعون في قبولها ويتخرجون من تقلدها ، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ويزكوا أنفسهم وينشروا دعاية لها وينفقوا الأموال سعيًا وراءها ، فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس لم يعدوه مغنماً أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد ، بل عدوه أمانة في عنقهم وامتحاناً من الله ، ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ومسئولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائماً قول الله تعالى :

﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ^(١) وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ ^(٢) .

ثالثاً : أنهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصالحته وحده ، ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ، إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده ، كما قال رباعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزجرد : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » ^(٣) . فالأئم عندهم سواء ، والناس عندهم سواء ، الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ^(٤) .

وقد قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص عامل مصر - وقد ضرب ابنه مصرياً ، وافتخر بابائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين ، فاقتص منه عمر - : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ^(٥) . فلم يخل هؤلاء بما عندهم من دين

(١) آية : ٥٨ النساء . (٢) آية : ١٦٥ الأنعام .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ، ج ٧ ص ٤٠ .

(٤) آية ١٣ : الحجرات .

(٥) القصة بتمامها في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

وعلم وتهذيب على أحد ، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغواذى مزنة أثنى عليها السهل والوعر ، وانتفعت بها البلاد والعباد ، على قدر قبولها وصلاحتها (١) .

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتى المضطهدة منها في القديم - أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، أن تساهم العرب في بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين ، حتى قال ابن خلدون : « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية (٢) » ، إلا في القليل النادر ، وإن كان منهم العربي في نسبته ، فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعته عربي (٣) ، ونبع من هذه الأمم في عصور الإسلام قادة وملوك ووزراء وفضلاء ، هم نجوم الأرض ونجباء الإنسانية وحسنات العالم ، فضيلة ومروءة وعبقريّة ودينياً وعملاً ، لا يحصيهم إلا الله .

رابعاً : أن الإنسان جسم وروح ، وهو قلب وعقل وعواطف وجوارح ، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيّاً متزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نمواً متناسباً لائقاً بها ، ويتغذى غذاء صالحاً ، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني ، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية ،

(١) عن ابي موسى عن النبي ﷺ قال : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً فكان منها نقيّة قبلت الماء فأنبثت الكأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعمله وعلمه ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » رواه البخاري : العلم رقم ٧٩ .

(٢) يعنى سواء في ذلك العلوم الشرعية والعلم العقلية .

(٣) المقدمة ص ٤٩٩ .

وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة ، فإذا كان فيهم نقص في عقيدتهم أو في تربيتهم عاد ذلك النقص في مدنيّتهم ، وتضخم وظهر في مظاهر كثيرة ، وفي أشكال متنوعة ، فإذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة وما إليها من لذة ومنفعة محسوسة ، ولا تؤمن إلا بهذه الحياة ولا تؤمن بما وراء الحس أثرت طبيعتها ومبادئها وميولها في وضع المدنية وشكلها ، وطبعتها بطابعها ، وصاغتها في قالبها ، فكمملت نواح للإنسانية واحتلت نواح أخرى أهم منها ، عاشت هذه المدنية وازدهرت في الجص والآجر ، وفي الورق والقماش ، وفي الحديد والرصاص ، وأخصبت في ميادين الحروب وساحات القتال ، وأوساط المحاكم ومجالس اللهو ومجامع الفجور ، وماتت في القلوب والأرواح وفي علاقة المرأة بزوجها ، والولد بوالده والوالد بولده ، والأخ بأخيه والرجل بصديقه ، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورم يملأ العين مهابة ورواء ، ويشكو في قلبه آلاماً وأوجاعاً ، وفي صحته انحرافاً واضطراباً .

وإذا تغلبت جماعة تجحد المادة أو تهمل ناحيتها ولا تهتم إلا بالروح وما وراء الحس والطبيعة ، وتعدى هذه الحياة وتعاندها ، ذبلت زهرة المدنية وهزلت القوى الإنسانية وبدأ الناس - بتأثير هذه القيادة - يؤثرون الفرار إلى الصحارى والخلوات على المدن ، والعزوبة على الحياة الزوجية ، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها فتتطهر الروح ، يؤثرون الموت على الحياة ، لينتقلوا من مملكة المادة إلى إقليم الروح ويستوفوا كمالهم هنالك ، لأن الكمال في عقيدتهم لا يحصل في العالم المادي ، ونتيجة ذلك أن تحتضر الحضارة وتخرب المدن ويختل نظام الحياة ، ولما كان هذا مضطاداً للفطرة لا تلبث أن تثور عليه ، وتنتقم منه بمادية حيوانية ليس فيها تسامح لروحانية وأخلاق ، وهكذا تنتكس الإنسانية وتخلفها البهيمية والسبعية الإنسانية المسوخة ، أو تهجم على هذه الجماعة الراهبة جماعة مادية قوية فتعجز عن المقاومة لضعفها الطبيعي ، وتستسلم وتخضع لها ، أو تسبق هي - بما يعترئها من الصعوبات في معالجة أمور الدنيا - فتعتمد الاستعانة إلى المادية ورجالها وتسند إليهم أمور السياسة وتكفئ هي بالعبادات والتقاليد الدينية ، ويحدث فصل بين الدين والسياسة فتضمحل الروحانية والأخلاق ويتقلص ظلها وتفقد سلطانها على المجتمع البشري والحياة العملية حتى تصير شبحاً وخيالاً أو نظرية علمية لا تأثير لها في الحياة وتؤول الحياة مادية محضة ، وقلما خلت جماعة من الجماعات التي تولت قيادة بني

جنسها من هذا النقص ، لذلك لم تزل المدنية متأرجحة بين مادية بهيمية وروحانية ورهبانية ولم تزل فى اضطراب .

يمتاز أصحاب النبی ﷺ بأنهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة ، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم ، وكان يمكن لهم - بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية واعتدالهم الغريب الذى قلما اتفق للانسان ، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن واستعدادهم المادى الكامل وعقلهم الواسع - أن يسيروا بالأئمة الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية والخلقية والمادية .

* دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة :

وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر فى جميع هذه النواحي من هذا الدور ، دور الخلافة الراشدة فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية فى تنشئة الإنسان الكامل . وفى ظهور المدنية الصالحة . كانت حكومة من أكبر حكومات العالم ، وقوة سياسة مادية تفوق كل قوة فى عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة فى حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ويساير الرقى الخلقى والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة فتقل الجنايات وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة وعلاقة الجماعة بالفرد ، وهو دور كمالى لم يحلم الإنسان بأرقى منه ولم يفترض المفترضون أزهى منه ، ولم يكن إلا بسيرة الرجال الذين يتولون الحكم ويشرفون على المدنية وبعقيدتهم وتربيتهم وخطتهم فى الحكم وسياستهم ، فكانوا أصحاب دين وأخلاق عالية أينما كانوا ، كانوا أعفء أمناء خاشعين متواضعين ، حكاماً كانوا أو رعايا أو شرطة أو جنوداً . يصف شيخ من عظماء الروم جنود المسلمين فيقول : إنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم ^(١) وقال الآخر :

(١) رواه أحمد بن مروان المالكى فى المجالسة .

«هم فرسان بالنهار رهبان بالليل ، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمر ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقضون على من حاربوا حتى يأتوا عليه (١) » . ويقول الثالث : « أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان ، يرشون النبل ويبرونها ويشقفون القنا ، لو حدثت جليستك حديثاً ما فهمه عنك لما غلا من أصواتهم بالقرآن والذكر (٢) » . ويغتم الجند في المدائن تاج كسرى وبساطه وهو يساوى مئات الألوف من الدنانير فلا تعبث به يد ولا تشع عليه نفس ، ثم يسلمونه إلى الأمير ويرسله الأمير إلى خليفة المسلمين فيتعجب ويقول : إن الذين أدوا هذا لأمناء (٣) .

* تأنيير الإمامة الإسلامية في الحياة العامة .

إن هذ الرعيل من أتباع محمد ﷺ كان خليقاً بأن يسعد النوع الإنساني في ظله وتحت حكمه ، وأن يسير بقيادته سديد الخطى رشيد الغاية مستقيم السير ، وأن يعمر ويطمئن العالم في دوره وتخصب الأرض وتأخذ زخرفها ، فإنهم كانوا خير القائمين على مصالحها حارسين لها ، ولا ينظرون إلى هذه الحياة كقفص من حديد أو غل في عنق فيعادونه ويكسرونه ، ولا ينظرون إليها كفرصة من لهو ونعيم ومتعة لا تعود أبداً فينتهزونها ويهتبلونها ، ولا يضيعون منها ساعة ولا يدخرون من طيباتها ، وكذلك لا يعدونها عذاباً وعقوبة بجريمة فيتخلصون منها ، ولا ينظرون إلى الدنيا كمائدة ممدودة فيتهاككون عليها ، وإلى ما في الأرض من نعماء وخزائن وخيرات كأنها مال سائب يتقاتلون عليه ، وإلى الأمم الضعيفة كفريسة يتسابقون في اقتناصها بل يعدون هذه الحياة نعمة من الله هي أصل كل خير وسبب كل بر ، يتقربون فيها إلى الله ويصلون إلى كمالهم الإنساني الذي قدر لهم ، وفرصة من عمل وجهاد لا فرصة بعدها : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ (٤) ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم أيهم أحسن عملاً ﴾ (٥) . ويعدون هذا العالم مملكة لله استخلفهم فيها - أولاً - من حيث أصل الإنسان الذي جعله خليفة في الأرض ﴿ إني جاعد في الأرض خليفة ﴾ (٦) ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ (٧) ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٣ . (٢) البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦ .

(٣) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي . (٤) آية ٢ : الملك .

(٥) آية ٧ : الكهف . (٦) آية ٣٠ : البقرة .

(٧) آية ٢٩ : البقرة .

الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴿١﴾ ، و - ثانياً - من حيث إنه إنسان أسلم لأمر الله وانقاد لحكمه فاستخلفه في الأرض واسترعاه أهلها ﴿٢﴾ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴿٣﴾ ومنحهم حق التمتع بخيرات الأرض من غير إسراف وتبذير ﴿٤﴾ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴿٥﴾ ، ﴿٦﴾ كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ قد من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قد هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴿٩﴾ ، وجعل لهم الولاية على أمم الأرض وجماعات البشر يراقبون سيرها وسيرتها وأخلاقها ورغباتها ، فيرشدون الضال ويردون الغاوى ويصلحون الفاسد ويقيمون الأود ، ويرأبون الصدع ويأخذون للضعيف من القوى ، ويتصفون للمظلوم من الظالم ، ويسيرون في الأرض القسط ويسيطون على العالم جناح الأمن ﴿١٠﴾ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴿١١﴾ ، ﴿١٢﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ﴿١٣﴾ .

وقد وصف عالم ألماني مسلم ميزة المسلم وصفاً دقيقاً . قال :

« إن الإسلام لا ينظر - كالنصرانية - إلى العالم بمنظار أسود ، بل هو يعلمنا أن لا نسرف في تقدير الحياة الأرضية ، وأن لا نغالى في قيمتها مغالاة الحضارة الغربية الحاضرة . إن المسيحية تدم الحياة الأرضية وتكرهها ، والغرب الحاضر - خلاف الروح النصراني - يهتم بالحياة كما يهتم النهم بطعامه ، هو يتلعه ولكن ليس عنده كرامة له ، والإسلام بالعكس ينظر إلى الحياة بسكينة واحترام ، هو لا يعبد الحياة بل يعدها كمرحلة نجتازها في طريقنا إلى حياة عليا ، وبما أنها مرحلة ومرحلة لا بد منها ليس للإنسان أن يحتقرها أو يقلل من قيمة حياته الأرضية . إن مرورنا بهذا العالم في سفر الحياة لا بد منه ، وقد سبق به تقدير الله ، فالحياة الإنسانية لها قيمتها الكبرى ، ولكن لا ينبغي لنا أن ننسى أنها ليست إلا واسطة وآلة وليست قيمتها إلا قيمة الوسائط والآلات ، الإسلام لا يسمح بالنظرية المادية القائلة « إن مملكتي ليست

(١) آية ٧٠ : الإسراء . (٢) آية ٥٥ : النور . (٣) آية ٣٠ : البقرة .
(٤) آية ٣١ : الأعراف . (٥) آية ٣٢ : الأعراف . (٦) آية ١١٠ : آل عمران .
(٧) آية ١٣٥ : النساء .

إلا هذا العالم » ولا بالنظرية المسيحية التي تزدرى الحياة وتقول « ليس هذا العالم مملكتي » وطريق الإسلام طريق وسط بينهما ، القرآن يرشدنا أن ندعو : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (١) فالتقدير لهذا العالم وأشيائه ليس حجر عثرة في سبيل جهودنا الروحية الحصبة ، والرقى المادى مرغوب فيه مع أنه ليس غاية في نفسه ، إن غاية جهودنا ينبغي أن تكون إيجاد أحوال وظروف شخصية واجتماعية - والمحافظة عليها إن وجدت - تساعد في ارتقاء القوة الخلقية في الإنسان ، مطابقة لهذا المبدأ . الإسلام يهدى الناس إلى الشعور بالمسؤولية الخلقية في كل عمل يعمل به كبيراً كان أو صغيراً . إن نظام الإسلام الدينى لا يسمح أبداً بمثل ما أمر به الإنجيل قائلاً : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا ما لله لله » ، لأن الإسلام لا يسمح بتقسيم حاجات حياتنا إلى خلقية وعملية ، ليس هناك إلا خيرة فقط ، خيرة بين الحق والباطل وليس شيء وسطاً بينهما ، لذلك هو يلح على العمل لأنه جزء لازم للأخلاق لا غنى عنه ، ينبغي لكل فرد مسلم أن يعد نفسه مسئولاً شخصياً عن المحيط الذى يحيط به وكل ما يقع حوله ، ومأموراً بالجهاد لإقامة الحق ومحقق الباطل فى كل وقت وفى كل جهة ، فإن القرآن يقول ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٢) ، هذا هو المبرر الخلقى للحركة الإسلامية الجهادية والفتوح الإسلامية الأولى والاستعمار الإسلامى ، فالإسلام استعمارى إن كان لابد من هذا التعبير ، ولكن هذا النوع من الاستعمار ليس مدفوعاً بحب الحكومة والاستيلاء ، وليس من الأثرة الاقتصادية للقومية فى شيء ، ولم يكن يحفز المجاهدين الأولين إلى الجهاد طمع فى خفض من العيش ورخائه على حساب الناس الآخرين ، ولم يقصد منه إلا بناء إطار عالمى لأحسن ما يمكن للإنسان من ارتقاء روحى ، كما أن العلم بالفضيلة حسب تعليم الإسلام يفرض على الإنسان تبعة العمل بالفضائل . الإسلام لا يوافق أبداً على الفصل الأفلاطونى والتفريق النظرى البحث بين الفضيلة والرذيلة ، بل يرى أنه من الوقاحة والرذيلة أن يميز الإنسان نظرياً بين الحق والباطل ، ولا يجاهد لارتقاء الحق وإزاحة الباطل ، فإن الفضيلة - كما يقول الإسلام - تحيا إذا جاهد الإنسان لبسط سلطانها على الأرض وتموت إذا خذلها وتقاعد عن نصرتها (٣) .

(١) آية ٢٠١ : البقرة . (٢) آية ١١٠ : آل عمران

Mohammad Asad " Leopold Weiss", Islam At The Cross (٣) Roads Fifth Edition p. 29.

* المدنية الإسلامية وتأثيرها في الاتجاه البشري :

كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها في القرن الأول لهجرة محمد ﷺ فصلاً جديداً في تاريخ الأديان والأخلاق ، وظاهرة جديدة في عالم السياسة والاجتماع ، انقلب به تيار المدنية ، واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً ، فكانت الدعوة الإسلامية لم يزل يأتي بها الأنبياء ويشير بها المبشرون ويجاهد في سبيلها المخلصون ، ولكن لم يكن يتمكن دعائها من إقامة حكومة قائمة على أساسها ومنهجها متشعبة بمبادئها ، ومن إقامة مدنية مطبوعة بطابعها مبنية على أحكامها مثل ما تمكنوا في هذه المرة ، ولم تنل هذه الدعوة والجهود من النجاح في هذا السبيل مثل ما نالت أخيراً على يد محمد ﷺ وخلفائه الراشدين ، فكان هذا الفتح المبين للإسلام محنة جديدة للجاهلية لم تعهدها من قبل ، ولم تعرف كيف تخرج منها ، عهدتها بها دعوة دينية روحية فإذا هي تصبح نجاة وسعادة وروحاً ومادة وحياة وقوة ومدنية واجتماعاً وحكومة وسياسة . دين سائغ معقول ، كله حكمة وبداهة إزاء أوهام وخرافات وأساطير ، وشرع إلهي ووحى سماوي إزاء أقيسة وتجارب إنسانية وتشريع بشري ، ومدنية فاضلة قوية البنيان محكمة الأساس ، يسود فيها روح التقوى والعفاف والأمانة . وتقدر فيها الأخلاق الفاضلة فوق المال والجاه ، والروح فوق المظاهر الجوفاء ، يتساوى الناس فلا يتفاضلون إلا بالتقوى ، ويهتم الناس بالآخرة فتصبح النفوس مطمئنة والقلوب خاشعة ، ويقل التنافس في أسباب هذه الحياة والتكالب على حطام الدنيا ، ويقل التباغض والتشاحن ، كل ذلك إزاء مدنية صاخبة مضطربة متناحرة متداعية البنيان متزلزلة الأركان ، يظلم الكبير فيها الصغير ، ويأكل القوى فيها الضعيف ، ويتسابقون في اللهو والفجور ، يتنافسون في الجاه والأموال وأسباب الترف والنعيم ، حتى تصبح الدنيا كلها حرباً في حرب ، وتصبح المدنية جحيماً على أهلها . ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ (١) . حكومة عادلة تساوى بين رعيتهما وتأخذ للضعيف من القوى ، وتحرس للناس أخلاقهم كما تحرس لهم بيوتهم وأموالهم ، وتحفظ عليهم دماءهم وأعراضهم ، خيارهم أمراؤهم ، وأزهدهم في العيش أملكهم لأسبابه وأقدرهم عليه ، إزاء حكومة عم فيها الجور والعسف ، وتواضع رجالها على الخيانة والظلم ، وتسابق أهلها في أكل أموال الناس وهتك أعراضهم وسفك دمائهم ، تفسد على الناس أخلاقهم بما تضرب لهم مثلاً بأخلاقها

(١) آية ٢١: السجدة .

شرارهم أمراؤهم وملوكهم ، تشبع دوابهم وكلابهم وتجنوع رعيتهم ، وتكسى بيوتهم ويعرى الناس .

فأصبح الناس لا يجدون عائقاً عن الإسلام ، ولا يواجهون صعوبة وعنتاً في سبيل قبول الإسلام ، ولا يرون للجاهلية مرجحاً ومصلحة ، ويدخل الرجل في الإسلام فلا يخسر شيئاً ولا يفقد شيئاً ويجد برد اليقين وحلاوة الإيمان وعزة الإسلام ودولة قوية يعتز بها وأنصاراً يفدون به بأرواحهم وأنفسهم ، ونفساً مطمئنة وثقة في الحياة بعد الموت ، فصار الناس ينتقلون من معسكر الجاهلية إلى معسكر الإسلام باختيارهم ، وصارت أرض الجاهلية تنتقص من أطرافها ، وكلمة الإسلام تعلو وظله يمتد ، حتى ارتفعت الفتنة وكان الدين لله .

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيماً جليلاً ، فكان الطريق إلى الله من قبل في دولة الجاهلية وغربة الإسلام شاقاً عسيراً محفوفاً بالأخطار ، فأصبح الآن سهلاً يسيراً آمناً مسلوکاً ، وكان يصعب على الإنسان في الوسط الجاهلي أن يطيع الله ، فصعب عليه في الوسط الإسلامي أن يعصى الله ، وكانت الدعوة إلى النار بالأمس ظاهرة منصورة فأصبحت اليوم خافتة مخذولة ، وكانت أسباب سخط الله وعصيانه مكشوفة موفورة فعدت نادرة مستورة ، وكانت الدعوة إلى الله في أرض الله جريمة قد ترتكب سرراً وخفية ، فأصبحت جهراً وعلانية وحررة آمنة لا تلقى معارضة ذات بال ، ولا يخاف أصحابها اضطهاداً في سبيل العقيدة وأذى في سبيل الدين الجديد ﴿ تخافون أن يخطفكم الناس فأوأكم وأيدكم بنصره وورزقكم من الطيبات ﴾ (الأنفال : آية ٢٦) وأصبح أصحابها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يأمرون وينهون بمعنى الكلمة .

صارت طباع الناس وعقولهم تتغير وتتأثر بالإسلام من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعة الإنسان والنبات في فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصية الجافة ترق وتخشع ، وبدأت مبادئ الإسلام وحقائقه تتسرب الى أعماق النفوس وتغلغل في الأحشاء ، وبدأت قيمة الأشياء تتغير في عيون الناس والموازين القديمة تتحول وتخلفها الموازين الجديدة ، وأصبحت الجاهلية حركة رجعية كان من الجمود والغباء المحافظة عليها ، وصار الإسلام شيئاً راقياً عصرياً كان من الظرف والكياسة الانتساب إليه والظهور بمظاهره ، وكانت الأمم بل كانت الأرض

تدنو رويداً رويداً إلى الاسلام ، ولا يشعر أهلها بسيرهم كما لا يشعر أهل الكرة الأرضية بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك فى فلسفتهم وفى دينهم وفى أدبهم وفى مدنيّتهم ، وتشف عن ذلك بواطنهم وضمائرهم وتنم عنه الحركة الإصلاحية التى ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين .

جاء الإسلام بالتوحيد ونعى على الوثنية والشرك ، فهان الشرك منذ ذلك اليوم فى عيون أهله وصغرى ، وصار أهله يخجلون منه ويتبرؤون منه ولا يقرون به ، بعدما كانوا يجتهدون فى إظهاره ويستमितون فى الدفاع عنه ، وأصبح أهل كل دين يؤولون ما فى نظامهم الدينى من شرك أو مظاهر شرك ووثنية ورسومها وتقاليدها ويلوون بذلك ألسنتهم ، ويجتهدون فى التعبير عنه وشرحه بما يقرب إلى التوحيد الإسلامى ويشبهه .

يقول الأستاذ أحمد أمين : « ظهر بين النصارى نزعات يظهر فيها أثر الإسلام من ذلك أنه فى القرن الثامن الميلادى أى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت فى سبتمانيا (Septimania) ^(١) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القس ، وأن ليس للقس حق فى ذلك ، وأن يضرع الإنسان إلى الله وحده فى غفران ما ارتكب من إثم ، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار ، فطبيعى أن لا يكون فيه اعتراف » .

وكذلك كانت حركة تدعو إلى تحطيم الصور والتماثيل الدينية (Iconoclasts) ذلك أنه فى القرن الثامن والتاسع للميلاد أو القرن الثالث والرابع الهجرى ، ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدر الإمبراطور الرومانى « ليو » الثالث أمراً سنة ٧٢٦م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمر آخر سنة ٧٣٠م يعد الإتيان بهذا وثنية ، وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ، على حين كان البابا جريجورى الثانى والثالث وجرمانوس

(١) سبتمانيا مقاطعة فرنسية قديمة فى الجنوب الغربى لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط .

بطريك القسطنطينية والإمبراطورة إيريني من مؤيدي عبادة الصور ، وجرى بين الطائفتين نزاع شديد لا محل لتفصيله ، وكل ما نريد أن نذكره أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعوة إلى نبذ الصور والتماثيل كانت متأثرة بالإسلام ، ويقولون : إن كلوديوس (Claudius) أسقف تورين (الذي عين سنة ٨٢٨ م وحوالي ٢١٣ م) والذي كان يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها في أسقفيته ، ولد وربى في الأندلس الإسلامية ، وكرهية الإسلام للتماثيل والصور معروفة ، روى البخارى ومسلم عن عائشة رضی الله عنها قالت : قدم رسول الله ﷺ من سفر ، وقد سترت سهوة لى بقرام فيه تماثيل ، فلما رآه هتكه ، وتلون وجهه ، وقال : يا عائشة أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين (١) » والأحاديث في هذا الباب مستفيضة .

وكذلك وجدت طائفة من النصارى (٢) شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوجدانية وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام (٣) .

ويمكن لمن يطالع تاريخ أوروبا الدينى وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلى فى نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفى السائد ، أما دعوة « لوثر » الإصلاحية الكبيرة ، فقد كانت - على علاقتها - أبرز مظهر للتأثر بالإسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون .

وترى كذلك تأثيراً للعقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية فى أخلاق الأمم اجتماعها وتشريعها فى أوروبا النصرانية وفى الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامى (٤) تراه وتلمسه فى الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة وحقوقها والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر ، إلى غير ذلك مما سبق إليه الإسلام وامتازت به شريعته ومدنيته .

(١) السهوة : النافذة بين الدارين ، والقرام : الستر .

(٢) Hain's Christianity of Islam in Spain p. 116

(٣) ضحى الإسلام ج ١ ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) Influence of Islam on inclidin culture by doctor Tara Chand

يقول الباحث الهندي المعروف (K.M. Panikkar) سفير الهند في مصر سابقاً وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ودياناته:

« من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام في الديانة الهندية كان عميقاً في هذا العهد (الإسلامي) ، إن فكرة عبادة الله في الهناك مدينة للإسلام ، إن قادة الفكر والدين في هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بأن الإله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة . وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة "Bhagti" ودعوة « كبير ^(١) » .

ويقول رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو في كتاب (Discovery of India)

« إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندي ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ ، وحسب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها ، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندي كي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية».

ويقول كاتب عصرى فاضل وهو (N.C. Mchta) في كتابه « الحضارة الهندية والإسلام » (Indian Civilization and Islam) :

« إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلاً من نور قد إنجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المذنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلى ، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية ، لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة ، شأنه في الأقطار الأخرى ، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا القطر (الهندي) مرتبطاً بالحكومة فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب ، وبقيت هباته وأيديه الجميلة مخفية عن الأنظار».

(١) A Survey of Indian. History p. 132

ولا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش
فى العالم المتمدن المعمور أن تدعى أنها لم تتأثر بالإسلام
والمسلمين فى قليل ولا كثير .

يقول (Robert Briffault) فى كتابه (The Making of
: Humanity)

« ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة
الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير ^(١) » .
ويقول فى موضع آخر :

« لم تكن العلوم الطبيعية (التى يرجع فيها الفضل إلى
العرب) هى التى أعادت أوربا إلى الحياة ، ولكن الحضارة
الإسلامية قد أثرت فى حياة أوربا تأثيرات كبيرة ومتنوعة منذ
أرسلت أشعتها الأولى إلى أوربا ^(٢) » .

فلو جرت الأمور هكذا وتمتعت الأمم الإنسانية بقيادة
الجماعة التى خلقت بقيادتها وأعطيت القوس باربيها ، وجرت
المياه فى مجاريها ، لكان للعالم الإنسانى تاريخ غير التاريخ
الذى نقرؤه حافلاً بالزلازل والنكبات ناطقاً بطول بلاء الإنسانية
ومحنها ، لكان له تاريخ مجيد جميل يغتبط به كل إنسان ويقر
عيناً ، ولكن جرت الأقدار بغير ذلك ، وبدأ الانحطاط فى
المسلمين أنفسهم .

★ ★ ★

(١) P. 190

(٢) P. 202

الفصل الثاني

الانحطاط في الحياة الإسلامية

* الحد الفاصل بين العصرين *

قال أحد الأدباء : « أمران لا يحدد لهما وقت بدقة ، النوم في حياة الفرد ، والانحطاط في حياة الأمة ، فلا يشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا » إنه لحق في قضية أكثر الأمم ، ولكن بدأ التدلي والانحطاط في حياة الأمة الإسلامية أوضح منه في حياة الأمم الأخرى ، ولو أردنا أن نضع إصبعنا على الحد الفاصل بين الكمال والزوال لوضعنا على ذلك الخط التاريخي الذي يفصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أو ملوكية المسلمين .

* نظرة في أسباب نهضة الإسلام *

كان زمام القيادة الإسلامية - والعالمية بالواسطة - بيد الرجال الذين كان كل فرد منهم معجزة جليلة لمحمد ﷺ ، إيماناً وعقيدة وعملاً وخلقاً وتربية وتهذيباً وتركيزاً نفس وسمو سيرة ، وكمالاً واعتدالاً ، لقد صاغهم النبي ﷺ صوغاً ، وصبهم في قالب الإسلام صباً ، فعادوا لا يشبهون أنفسهم إلا في الأجسام لا في الميول والنزعات ، ولا في الرغبات والأهواء ، ولو دقق مدقق لما رأى في سيرتهم وأخلاقهم مأخذاً جاهلياً ينافي روح الإسلام والنفسية الإسلامية ، ولو تمثل الإسلام بشراً لما زاد على أن يكون كأحدهم ، وكانوا كما قلنا أمثلة كاملة وأقيسة تامة للدين والدنيا والجمع بينهما ، فكانوا أئمة يصلون بالناس ، وقضاة يفصلون قضاياهم ، ويحكمون بينهم بالعدل والعلم ، وأمنة لأموال المسلمين وخزنتهم ، وقواداً يقودون الجيوش ويحسنون تدبير الحروب ، وأمراء يباشرون إدارة البلاد ويشرفون على أمور المملكة ويقيمون حدود الله ، وكان الواحد منهم في آن واحد تقياً زاهداً وبطلاً مجاهداً ، وقاضياً فهماً ، وفقياً مجتهداً وأميراً حازماً وسياسياً محنكاً ، فكان الدين والسياسة يتمثلان في شخص واحد وهو شخص الخليفة وأمير المؤمنين ، حوله جماعة ممن تخرجوا - إن صح التعبير - في هذه المدرسة ، المدرسة النبوية ، أم المسجد النبوي ، أفرغوا في قالب واحد يحملون روحاً واحدة ، وتلقوا تربية واحدة يستشيرهم الخليفة ويستعين بهم ، فلا يقطع أمراً ذا بال حتى يشهده فسررت روحهم

فى المدنية ونظام الحكم وحياة الناس واجتماعهم واخلاقهم ، وانعكست ميولهم ورغباتهم فى المدنية وظهرت خصائصهم فيها ، فلا عدااء بين الروح والمادة ولا صراع بين الدين والسياسة ولا تفريق بين الدين والدنيا ، ولا تجاذب بين المصالح والمبادئ ، ولا تراحم بين الأغراض والأخلاق ، ولا تناحر بين الطبقات ، ولا تنافس فى الشهوات .

* شروط الزعامة الإسلامية :

إن الزعامة الإسلامية تقتضى صفات دقيقة ، واسعة جداً نستطيع أن نجعلها فى كلمتين « الجهاد » و « الاجتهاد » ، فهاتان كلمتان خفيفتان بسيطتان ، ولكنهما جامعتان عامرتان بالمعاني الكثيرة .

* الجهاد :

أما الجهاد فهو بذل الوسع وغاية الجهد لنيل أكبر مطلوب ، وأكبر وطر للمسلم طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه ، والإسلام لأوامره ، وذلك يحتاج الى جهاد طويل شاق ضد كل ما يراحم ذلك من عقيدة وتربية وأخلاق وأغراض وهوى وكل من ينافس فى حكم الله وعبادته من آلهة فى الأنفس والآفاق ، فإذا حصل ذلك للمسلم وجب عليه أن يجاهد لتنفيذ حكم الله وأوامره فى العالم حوله وعلى بنى جنسه ، فريضة من الله وشفقة على خلق الله ، ولأن الطاعة الانفرادية قد تصعب وتمتنع أحياناً بغير ذلك ، وذلك ما يسميه القرآن « الفتنة » . ومعلوم أن العالم كله بما فيه من جماد ونبات وحيوان وإنسان خاضع لمشيئة الله وأحكامه التكوينية وقوانينه الطبيعية ﴿ وله أسلم من فى السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ (١) ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والحبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ﴾ (٢) فيستعين أن جهاد المسلم إنما هو لتنفيذ شريعته التى جاء بها الأنبياء ، وإعلاء كلمته ونفاذ أحكامه ، فلا حكم إلا لله ولا أمر إلا له ، وهذا الجهاد مستمر ماض إلى يوم القيامة ، وله أنواع واشكال لا يأتى عليها الحصر ، منها القتال ، وقد يكون أشرف أنواعه ، وغايته أن لا تبقى فى الدنيا قوتان متساويتان متنافستان تتجاذبان الأهواء والأنفس ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (٣) .

ومن مقتضيات هذا الجهاد أن يكون الإنسان عارفاً بالإسلام الذى يجاهد لأجله وبالكفر والجاهلية التى يجاهد ضدها ، يعرف الإسلام معرفة صحيحة ويعرف

(١) آية ٨٣: آل عمران . (٢) آية ١٨: الحج . (٣) آية ١٩٣: البقرة .

الكفر والجاهلية معرفة دقيقة ، فلا تخدعه المظاهر ولا تغره الألوان ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنما ينقض الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية ، ولا يجب على كل مسلم أن تكون معرفته دقيقة بالكفر والجاهلية ومظاهرها وأشكالهما وألوانهما ، ولكن على من يتزعم الإسلام ويتولى قيادة الجيش الإسلامى ضد الكفر والجاهلية ، أن تكون معرفته بالكفر والجاهلية فوق معرفة عامة المسلمين وأوساطهم .

كذلك يجب أن يكون استعدادهم كاملاً وقوتهم تامة ، يقارعون الحديد بالحديد بل بأقوى من الحديد ، ويقابلون الريح بالإعصار ، ويواجهون الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه ، وبكل ما امتدت إليه يدهم ، وبكل ما اكتشفه الإنسان ووصل إليه العلم فى ذلك العصر ، من سلاح وجهاز واستعداد حربى ، لا يقصرون فى ذلك ولا يعجزون : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ (الأنفال : الآية ٦٠) .

* الاجتهاد :

اما الاجتهاد فنريد به أن يكون من يرأس المسلمين قادراً على القضاء الصحيح فى النوازل والحوادث التى تعرض فى حياة المسلمين وفى العالم وفى الأمم التى يحكمها ، وفى المسائل التى تفاجئ وتتجدد ، والتى لا يستقصيها فقه مدون ومذهب مأثور وفتاوى مؤلفة ، ويكون عنده من معرفة روح الإسلام وفهم أسرار الشريعة والاطلاع على أصول التشريع الإسلامى وقوة الاستنباط - انفراداً أو اجتماعاً - ما يحل به هذه المشاكل ويرشد الأمة فى الغمة .

ويكون عنده من الذكاء والنشاط والجد والعلم ما يستخدم به ما خلق الله فى هذا الكون من قوى طبيعية ، وما بث فى الأرض وتحت الأرض من خيرات ومنابع ثروة قوة ، وأن يسخرها لمصلحة الإسلام بدل أن يستخدمها أهل الباطل لأهوائهم ، ويتخذوها وسيلة للعلو فى الأرض ، ويسخرها الشيطان لتحقيق أغراضه والإفساد فى الأرض .

* انتقال الإمامة من الأكفاء إلى غير الأكفاء ،

ولكن من الأسف ومن سوء حظ العالم البشرى أن تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يكونوا له أكفاء ، ولم يعدوا له عدة ، ولم يأخذوا له أهبة ، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية كما تلقى الأولون وكثيرون فى عصرهم وجيلهم ، ولم يسيغوا تعاليم

الإسلام إساعة تليق بقيادة الأمة الإسلامية والاضطلاع بزعامتها ، ولم تنق رؤوسهم ولا نفوسهم من بقايا التريبة القديمة ، ولم يكن عندهم من روح الجهاد فى سبيل الإسلام ومن قوة الاجتهاد فى المسائل الدينية والديوية ما يجعلهم يضطلعون بأعباء الخلافة الإسلامية - وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز (م ١٠١ هـ) .

* تحريفات الحياة الإسلامية ،

فظهر من ذلك ثلمات فى ردم الإسلام لم تسد إلى الآن ، ووقعت تحريفات فى الحياة الإسلامية .

* فصل الدين عن السياسة ،

وقع فصل بين الدين والسياسة عملياً ، فإن هؤلاء لم يكونوا من العلم والدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء وأهل الدين فاستبدوا بالحكم والسياسة ، واستعانوا - إذا أرادوا واقتضت المصالح - بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين ، واستخدموهم فى مصالحهم واستغنوا عنهم إذا شاؤوا وعصروهم متى شاءوا ، فتحررت السياسة من رقابة الدين ، وأصبحت قيصرية أو كسروية مستبدة ، وملكاً عضوضاً ، وأصبحت السياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، وأصبح رجال الدين والعلم بين معارض للخلافة وخارج عليها ، وحائد منعزل اشتغل بخاصة نفسه وأغمض العين عما يقع ويجرى حوله ، يائساً من الإصلاح ، ومنتقداً يتلهف ويتنفس الصعداء مما يرى ولا يملك من الأمر شيئاً ، ومتعاون مع الحكومة لمصلحة دينية أو شخصية ، ولكل ما نوى ، وحينئذ انفصل الدين والسياسة ، وعادا كما كانا قبل عهد الخلافة الراشدة ، أصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدى ، وأصبحت السياسة مطلقة اليد حرة التصرف نافذة الكلمة صاحبة الأمر والنهى ، ومن ثم أصبح رجال العلم والدين طبقة متميزة ، ورجال الدنيا طبقة متميزة ، والشقة بينهما شاسعة وفى بعض الأحيان بينهما عدا و تنافس .

* النزعات الجاهلية فى رجال الحكومة ،

ولم يكن رجال الحكومة حتى الخلفاء أمثلة كاملة فى الدين والأخلاق ، بل كان فى كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها ، فسرت روحهم ونفسياتهم فى الحياة العامة والاجتماع ، وأصبحوا أسوة للناس فى أخلاقهم وعوائدهم وميولهم ، وزالت

رقابة الدين والأخلاق وارتفعت الحسبة ، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطاتها ، لأنها لا تستند الى قوة ولا تحميها حكومة ، وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب ، والدواعي إلى خلافها متوافرة قوية ، فتنفسست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها ، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب وانغمسوا في الملذات والشهوات واستهتروا استهتاراً ، ونظرة في كتاب الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هنالك من رغبة جامحة إلى اللهو ، وتهافت على الملاهي والملذات ، ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها ، وبهذه السيرة ، وبهذه الأخلاق المنحطة ، ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع أمة أن تؤدي رسالة الإسلام ، وأن تقوم في الدنيا مقام خلفاء الأنبياء ، وتذكر بالله والآخرة وتحض على التقوى والدين ، وأن تكون أسوة للناس في أخلاقها ، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمناً طويلاً: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾^(١).

* سوء تمثيلهم للإسلام *

وكان هؤلاء في كل ما يأتون ويذرون ممثلين لأنفسهم وسياستهم فقط ، لا يمثلون الإسلام ، ولا سياسته الشرعية ، لا قانونه الحربي ، ولا نظامه المدني ، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا في النادر ، ففقدت رسالة الإسلام تأثيرها وقوتها في قلوب غير المسلمين ، وضعفت ثقتهم به . وفي لفظ مؤرخ أوروبي - بدأ الإسلام بالانحطاط ، لأن البشرية بدأت تشك في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة .

* قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة *

إن العلماء المفكرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية التجريبية وبالعلوم العملية المثمرة المفيدة اعتناءهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الإلهية التي تلقوها من اليونان وما هي إلا وثنياتهم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية ، وأضفوا عليها لباساً من الفن ، وما هي إلا ظنون وتخمينات وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى ، وقد أغنى الله المسلمين عنها وكفاهم هذا البحث والتنقيب ، وعملية تجزئة وتحليل في مسائل ذات الله وصفاته وما يتعلق بها أشبه بالتحليل الكيميائي بما أنزل إليهم بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم ، ولكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة ، وظلوا قروناً طويلة يجاهدون من هذه العلوم والمباحث في غير جهاد ، ويضيعون ذكاءهم في مباحث فلسفية وكلامية لا تجدى نفعاً ولا تأتي بنتيجة ، وليس

(١) آية ٣٨: الأحزاب .

لها دعوة في الدنيا والآخرة ، وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخر لهم قوى الطبيعة ويسخرونها لمصلحة الإسلام ويسيطون بها سيطرة الإسلام المادية والروحية على العالم كله .

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروح وفلسفة الإشراق ومسائل وحدة الوجود ، وبذلوا فيها قسطاً كبيراً من أوقاتهم وجهودهم وذكائهم .

أما ما وصل إليه المسلمون في العلوم الطبيعية والتجريبية ، فإنه وإن كان أرقى من العصور السابقة وأكثر ثروة في العلم والاختبار ، إلا أنه لا يتناسب مع فتوحهم الواسعة في دوائر علمية أخرى ، ولا يتلاءم مع المدة الطويلة التي تمتعوا بها في التاريخ ولم يظهر فيها من النوايا والعبريين مثل ما ظهر في موضوعات أخرى .

وإن ما خلفوه من كتب في الطبيعيات والكونيات والتجارب العلمية ، وإن كانت مما استفادت به أوروبا في نهضتها وأقرت بقيمتها ، إلا أنها تتضاءل جداً أمام هذه المكتبة الهائلة الزاخرة التي أنتجتها أوروبا في القرنين السابع عشر والثامن عشر فقط ، فمهما افتخرنا بآثار علماء الأندلس وحكماء الشرق ، فإنها لا تعد شيئاً بجانب الإنتاج الغربي الضخم في العلم والحكمة والتجربة والاختبار ، لا في الكمية ولا في الكيفية ، ولا في الإبداع ولا في الابتكار ، ولا في التدقيق العلمي ولا في الإتقان الفني ، وإذا أردت أن تعرف مقدار عناية الشرق الإسلامي بالناحية الروحية ونسبتها إلى الناحية العلمية والتجريبية فاقارن بين كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن عربي مثلاً وبين أكبر كتاب في الطبيعيات والحكمة ، تر فرقاً هائلاً في ضخامة المادة والعناية بالموضوع والجهاد في سبيله ، وبذلك تعرف ذوق الشرق الغالب عليه .

* الضلالات والبعد .

وكاد يحجب توحيد الإسلام النقي حُجُب من الشرك والجهل والضلالة ، وطرأت على النظام الديني بدع شغلت مكاناً واسعاً من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح ، وعن الدنيا ، وميزة المسلمين بين أمم الأرض وفضلهم إنما هو من هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، وميزة هذا الدين وإعجازه في صحته وحفظه ، لأنه يمتاز بأنه وحى الله وشريعته ووضع المعجز وشرعه الحكيم ﴿ تنزيلاً من حكيم حميد ﴾ (فصلت : الآية ٤٢) . فإذا عملت فيه عقول الناس ودخلت فيه أعمال الناس وأهواؤهم لم يكن له على الأديان التي حرفها أهلها ، والنظم التي نسجتها أيدي

الناس إلا بمقدار ما فيه من الوحي المحفوظ والعلم المعصوم ، ولم يكن ضامناً لسعادة الدنيا والآخرة ولم يكن حقيقاً بأن تخضع له العقول وينجذب إليه الناس .

* إنكار الدين على المسلمين وإهأبته بهم :

ولا يغربن عن البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حياً محفوظاً من التحريف والتبديل ، مهيباً بالمسلمين ناعياً عليهم انحرافهم عن طريقه ، ولم يزل مناره عالياً وضوءه مشرقاً ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (١) ، ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان في نفوس القراء ثورة على الشرك والبدع ، وعلى الجهالة والضلالة ، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها ، وثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك ، ولم يزل ينهض بتأثيرهما في كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي ، وفي كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي رجال يقومون في هذه الأمة على طريقة الأنبياء ، يجددون لها أمر دينها ، وينفخون فيها روح الجهاد ، ويفتحون لها باب الاجتهاد ، ويسعون لإقامة حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة ، فمنهم من استشهد في هذا السبيل ، ومنهم من استطاع أن يمثل دوراً قصيراً يذكر بالخلافة الراشدة : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ (٢) ، وهم مصداق الحديث الشريف : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله » (٣) فتاريخ الجهاد والتجديد في الإسلام متصل لا تقطعه فترة ، ومشاعل الإصلاح متسلسلة بعضها من بعض لم تطفئها العواصف (٤) .

الهجرة

* حسن بلاء العالم الإسلامي في القرن السادس :

في القرن السادس الهجري من الله على العالم الإسلامي - الذي بدت عليه أمارات الضعف والشيخوخة بعد السلاجقة وتوزعه ملوك وأمراء في الأنحاء - بقيادة

(١) آية ١٦ : المائدة . (٢) آية ٢٣ : الأحزاب .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک ٤/٤٤٩ .

(٤) اقرأ في هذا الموضوع كتاب المؤلف « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » طبع في دمشق .

كبار حفظ الله بهم شرف الإسلام وعزته ، وأعاد بهم الحياة في العالم الإسلامي المنهار ، بدأت الغزوات الصليبية - التي كانت تهدف أولاً إلى الاستيلاء على الأماكن المقدسة عند المسيحيين - تتحدى الإسلام والمسلمين كلهم ، وتهدد الجزيرة العربية ومهد الإسلام والدول المجاورة للشام ، واستولى الصليبيون الأوربيون فعلاً على القدس وعلى عامة مدن الشام وقلاعه ، وطمعوا في مدينة الرسول ﷺ ، وكانوا أكبر خطر على الإسلام والمسلمين بعد فتنة الردة ، هنالك قيض الله للإسلام عماد الدين أتابك زنكي (م ٥٤١ هـ) الذي قارع الصليبيين وهزمهم في معارك كثيرة وفتح الرها ، وقام بعده ولده العظيم الملك العادل نور الدين محمود زنكي (م ٥٦٩ هـ) وصمم على إجلاء الصليبيين من الشام واسترداد القدس للمسلمين ، ومات رحمة الله عليه قبل أن يكمل مهمته وخلفه في ذلك أحد رجاله ومرشحيه الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر ، وهو الرجل الذي هياه الله لهذه المهمة العظيمة وجمع فيه من خصال الحزم والعزم والإخلاص والتجرد للغاية والحرص على الجهاد والتفاني في سبيله وعلو المهمة في نصر الإسلام وقتال أهل الكفر والبغى ، وحسن القيادة وقوة التنظيم والصلاح والديانة والفتوة الفائقة والإنسانية السامية ومكارم الأخلاق ما لا يجتمع إلا في أفذاذ الرجال في العالم ، فكان بذلك معجزة من معجزات الإسلام ودليلاً على أن الإسلام لم ينته دوره ولم يفقد الحيوية والإنتاج ، وقد توحد العالم الإسلامي من بين نهر الفرات وبين النيل للمرة الأولى بعد مدة طويلة ليقاتل أوروبا التي تدفقت جيوشها واندفع ملوكها وأمراؤها وقوادها الكبار ليهاجموا العالم الإسلامي ، وقد اجتمع تحت لواء صلاح الدين للجهاد أجناس كثيرة من المسلمين لم تجتمع قبل ، والتهبت شعلة الجهاد والغيرة الإسلامية بعد مدة طويلة ، واستخدم صلاح الدين للجهاد كل ما وصل إليه العالم الإسلامي من العلم والاختراع وصناعة الحرب يومئذ ، هو كل ما أوتى من الذكاء والصبر والتفكير وهزم الصليبيين بحطين عام ٥٨٣ هـ هزيمة منكرة وكسر شوكتهم وفتح القدس في العام نفسه واستولى على فلسطين كلها وانحصر الصليبيون في «صور» فقط ، وألقت أوروبا أفلاذ أكبادها ، وجاءت بحدها وحديدتها واجتمعت جيوشها الكثيفة تحت قيادة القائد الكبير رتشارد Richard ملك انكلترا وكانت الحرب بين الصليبيين والمسلمين سجلاً حتى وقعت الهدنة سنة ٥٨٨ هـ (٢ سبتمبر ١١٩٢ المسيحي) وجلا معظم الغزاة الصليبيين عن فلسطين ورجع رتشارد إلى

ملكه، وبعد ذلك بسنة استأثر الله بصلاح الدين .

ويحسن بنا أن ننقل هنا ما علق المؤرخ الإنكليزي Stanley Lave على هذه الهدنة في كتابه عن صلاح الدين ، وبه نستطيع أن نعرف قوة العالم الإسلامي ووحدته تحت قيادة صالح الدين :

« انتهت الحرب المقدسة التي استمرت خمسة أعوام ، لقد كان المسلمون قبل انتصارهم في معركة حطين في يولييه سنة ١١٨٧ م لا يملكون قيراطاً من الأرض غربى نهر الأردن ، أما في سبتمبر سنة ١١٩٢ م لما وقع الصلح في الرملة فقد ملكوا البلاد كلها إلا سلسلة ضيقة تمتد من صور إلى يافا كان المسيحيون لا يزالون يملكونها ، ولم تكن هذه الهدنة مما يخجل لها صلاح الدين ويتأسف ، لقد بقي معظم ما فتحه الصليبيون في حوزة الإفرنج ، ولكن كانت النتيجة تافهة جداً بالنسبة إلى خسائر الأموال والنفوس . فقد زحفت أوروبا كلها إلى الأرض المقدسة ، لما استفزها البابا للغزو الصليبي ، وبذل القيصير فريدريك وملوك إنكلترا وفرنسا وصقلية وليوبولد النمساوى والدوق البرجندي والكونت الفلاندرى ومئات من النبلاء المشاهير وأمرأء الشعوب المسيحية وملك حكومة القدس المسيحية وملوك الحكومات النصرانية في فلسطين وفرنسا طبقة الداوية وطبقة الإسمتار وأبطالها ، لقد بذل هؤلاء كلهم كل ما في وسعهم للاستيلاء على القدس ولتزهدهر الحكومة المسيحية التي كان مركزها القدس ، والتي أشرفت على الانقراض ، ولكن ماذا كان مصير هذه الجهود كلها ؟ مات القيصير فريدريك في هذه المدة ، ورجع ملوك إنكلترا وفرنسا إلى بلادهم ودفن كثير من زملائهم الأمراء والنبلاء في أرض إيليا وبقي القدس في حوزة صلاح الدين ، كما كان ، ولم يكن من حظ المسيحيين إلا إمارة عكة الصغيرة على الساحل .

لقد وقف العالم المسيحي وقفة رجل واحد إزاء المسلمين ، ولكنه لم يستطع أن يزحزح صلاح الدين عن مكانه ، كان جيش صلاح الدين قد أعياه الجهاد الطويل والمتاعب العظيمة ، وقد ظل أعواماً طوالاً مرابطاً مناضلاً مكافحاً عدواً قوياً جداً ولكن لم يسمع من جندي واحد أنين أو شكاة . إنهم لم يتأخروا يوماً في الحضور ولم يضمنوا قط بالنفائس والنفوس كلما دعاهم صلاح الدين إلى الجهاد وكلما استنفروهم للقتال ، وربما شكوا أحد الأمراء التابعين له في بعض أودية دجلة البعيدة من هذه النجدة التي لا تكاد تنتهى ولكنهم قدموا بعوثلهم وحضروا لجيوشهم لنصرة

السلطان كلما طلبوا . وقد قاتل الجيش الموصلى بكل بطولة وحماسة فى حرب أرسوف الأخيرة وكان السلطان واثقاً بأنه سيأتيه المدد من جيوش مصر والعراق وكذلك من جيش الشام الشمالى والمركزى . وكان التركمان والعرب والمصريون مسلمين وخدمة أوفياء للسلطان وحضروا كالعبيد كلما طلبهم السلطان وقد مزج السلطان هذه العناصر المختلفة مزجاً غريباً وألف بينهم رغم ما فيها من اختلاف فى الجنس والقومية وما بين أفرادها من خلافات داخلية ومنافسات قبلية فكانوا كالجسد الواحد . وقد عانى السلطان بعض الصعوبة فى توحيد هذه الأجnas ، وقد ظهرت فى بعض المناسبات بوادر الخلاف فقد تمرد الجيش فى يافا مرة ، ولكن رغم ذلك كله بقيت هذه الأمم المختلفة الأجnas إلى خريف سنة ١١٩٢م خاضعة لأمر السلطان وظلت تجاهد فى سبيل الله من سنة ١١٨٧م العام الذى طلبها فيه صلاح الدين للجهاد ، وفى خلال هذه المدة الطويلة لم يسجل التاريخ حادثة عصت فيها مقاطعة أو ثارت فيها دولة تابعة أو رئيس من الرؤساء ، وكانت الآمال الكبيرة التى عقدت بنصيحتهم ومثابرتهم تعبى الراسخين فى الوفاء والجن الأقوياء ، إنما علمنا قريباً من أقربائه فى العراق ثار عليه ، ولكن السلطان من عليه بالعفو ، وهذا الرجل ، وبذلك يعلم ما كان للسلطان من نفوذ غريب فى دولته ورعيته ، وانتهت الحرب التى استمرت خمسة أعوام وانتهت محنها ومتاعبها والسلطان هو الملك الوحيد من جبال الكرد إلى صحراء النوبة ، وكان ملك بلاد الكرد وملك آرمينيا وسلطان قونية وقيصر قسطنطينية وراء هذه الحدود يحرسون على صداقة صلاح الدين ومساعدته وما قبل صلاح الدين أن يكون عليه منة لأحد من هؤلاء ، ولم يحضروا قط لنجدته إنما حضروا لتهنئته .

وكان صلاح الدين بطل هذه المعركة ومركز هذه الدائرة ، وكان أخوه العادل هو الشخصية الثانية التى ظهرت على مسرح القتال ، ولا نعرف أحداً من القواد والأمراء استولى عليه ، وكان عنده مجلس حربى يستشير به فى أمور الحرب ، وقد وقع نادراً أن غلب رأى هذا المجلس الخاطئ على رأى السلطان الصحيح ، كما كان أمام صبور وعكة ، ولكن لم يكن أحد من أعضاء هذا المجلس مستأثراً به دون غيره ، لقد كان الإخوة والأبناء ، وأبناء الإخوان ، والزملاء القدماء ، والولاة الجدد ، والعقلاء ، والقضاة الأذكياء ، والمعتمدون الأوفياء ، والمتعصبون ، والوعاظ ، والعلماء كلهم متفقين على الجهاد ، وقاتلوا تحت لوائه جنباً بجنب ، وخدموه بكل ما

عندهم من قوة وكفاية ونصيحة ، وكان كل يعلم أن صلاح الدين سيد الجميع وأميرهم ، وكان قلب واحد وإرادة واحدة تسيطر عليهم في أزمات مختلفة وساعات عصيبة وحروب طاحنة ، هو قلب صلاح الدين القوي وإرادته الحديدية» اهـ .

* فقر القيادة في العالم الإسلامي بعد صلاح الدين :

مات صلاح الدين بعدما قضى مهمته إلى حد بعيد ، وانجلى الخطر القريب العاجل الذي كان يهدد كيان الإسلام ومركزه ، وتراجع سيل الصليبيين وقد تعلموا دروساً مفيدة ودرسوا جوانب الضعف والقوة في كلتا الجبهتين ، رجعوا ليستعدوا للصليبية الجديدة في القرن التاسع عشر المسيحي ، وعاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى من انقسام وتنافس ، وتطاحن وغفلة ، ولم يرزق العالم الإسلامي بعد ذلك قائداً مخلصاً للإسلام ، مؤثراً لمصلحته على هواه ، متجرداً للجهاد ، محبباً تجتمع حوله القلوب مثل صلاح الدين الذي استطاع بحول الله وقوته وبمواهبه العظيمة أن يدحر أوربا كلها ، ويحفظ للإسلام ملكه وشرفه ، وعم الانحطاط في العالم الإسلامي واستفحل مع الأيام . (لقد قام خطر نهضة الحفوية وسقطت إمارة بصرى)

نتائج القرون المنحلة .

وظلت خلية الإسلام تعمل في أدوار الانحطاط أيضاً ، ويظهر من الملوك والفاخرين أفراد هم أنموذج الصحابة والسلف الصالح في سيرتهم وأخلاقهم ، في دينهم وتقواهم ، وينهض في العالم الإسلامي رجال يتجمل التاريخ بذكرهم .

وكان المسلمون - رغم انحرافهم عن سيرتهم الأولى وطريقهم المثالي - أقرب إلى طريق الأنبياء وأطوع لله من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم ، وكان وجودهم ودولتهم أكبر عائق للجاهلية في انتشارها وازدهارها ، وكانوا رغم نقائصهم أكبر قوة في العالم تهابها الدول ، وتحسب لها كل حساب .

* انهيار صرح القوة الإسلامية :

ولم تزل تضعف هذه القوة وتهن بدون أن يشعر بذلك الأجانب حتى إذا خضعت شوكة المسلمين في القرن السابع لما مزق التتار حكومة خوارزم شاه - المملكة الإسلامية الأخيرة - وسقطت بغداد في أيديهم زال ذلك الشبح الخفيف

وسقط المجدار (١) فعانت الطيور والوحوش فى الحقل ، وتجاسر
الناس على المسلمين وبلادهم.

ورث التتار والمغول تراث المسلمين وخلفوهم فى
الحكومة ، وناهيك به بؤساً وشقاء للإنسانية وخراباً للعالم أن
يتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية ليس عندها دين ولا علم
ولا ثقافة ولا حضارة .



(١) المجدار : ما ينصب فى الزرع لطرد الطير والوحش .

الفصل الثالث

دور القيادة العثمانية

خلافه انجليزي مثل
الله وله ٢١ حبيب والى
الها سبعة ولدت
الملك لا تملك علم

* العثمانيون على مسرح التاريخ *

فى ذلك الحين ظهر الترك العثمانيون على مسرح التاريخ ، وفتح محمد الثانى ابن مراد ، وهو ابن أربع وعشرين سنة القسطنطينية العظمى عاصمة الدول البيزنطية المنيعة سنة ٧٥٣ هـ (١٤٥٣ م) فتجدد رجاء الإسلام وانبعث الأمل فى نفوس المسلمين ، وكان الترك وعلى رأسهم آل عثمان موضعاً للثقة فى قيادة الأمم الإسلامية وفى استرداد قوة المسلمين ومكانتهم فى العالم ، وكان فتحهم للقسطنطينية التى استعصت على المسلمين ثمانية قرون ^(١) دليلاً على كفاءتهم وقوتهم ، وبلوغهم درجة الاجتهاد فى صناعة الحرب ، وحسن قيادتهم العسكرية وتفوقهم على الأمم المعاصرة فى آلات الحرب واستخدامهم لمهمتهم قوة العلم والعمل ، وكل ذلك ما لا غنى للأمة عنه .

* تفوق محمد الفاتح فى فن الحرب *

وقد كان محمد الفاتح - كما يقول درابر - يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربى ، وكان قد أعد لهذا الفتح عدته ، واستفاد كل ما فى عصره من معدات حربية .

قال البارون « كارادفو » (Barron Carra de vaux) فى كتابه « مفكرو الإسلام » فى الجزء الأول منه عند ترجمة محمد الفاتح :

« إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر لمجرد ضعف دولة بيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ، ويستخدم له كل ما

(١) غزا الأسطول العربى القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطاة سنة ٤٤ للهجرة وفق سنة ٦٦٤ للمسيح ، وحاصر يزيد بن معاوية القسطنطينية سنة ٥٢ هجرية وفق سنة ٦٧٢ مسيحية ، وحاصرها العرب أربع مرات على الأقل بعد ذلك ، ولم يفتحوها لمنعتها .

كان في عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد بالإيجاد ، فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ وانتدب مهندساً مجرباً ركب مدفعاً كان وزن الكرة التي يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل : إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه ، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه ، ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل ، ومع مدفعية هائلة ، وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر (١٢٠) سفينة حربية ، وهو الذي - من قريحته - تصور سحب جانب من الأسطول من البر إلى الخليج وأزلق على الأخشاب المطلية بالشحم (٧٠) سفينة أنزلها في البحر من جهة قاسم باشا (١) .

* مزايا الشعب التركي :

وقد تفرد الشعب التركي المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذ واستحق بها زعامة المسلمين :

أولاً - أنه كان شعباً ناهضاً متحمساً طموحاً فيه روح الجهاد ، وكان سليماً - بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة في الحياة - من الأدواء الخلقية والاجتماعية التي أصابت الأمم الإسلامية في الشرق في مقتلها .

ثانياً - أنه كان متوفراً لديه القوة الحربية التي يقدر بها على بسط سيطرة الإسلام المادية والروحية ، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها ، ويتبوأ بها قيادة العالم ، فقد بادر العثمانيون في صدر دولتهم لاستعمال المعدات الحربية وخصوصاً النارية منها واهتموا بالمدافع ، وأخذوا بالحديث الأحدث من آلات الحرب ، عنوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش وتعبئتها حتى صاروا في صناعة الحرب أئمة بغير نزاع ، والمثل الكامل والقذوة لأوربا .

(١) من حواشي الأمير شكيب أرسلان على « حاضر العالم الإسلامي » الجزء الأول ، ص ٢٢٠ ، الطبعة

الثانية .

وكانوا يحكمون في ثلاث قارات : أوروبا ، وآسيا ، وإفريقية ، ملكوا الشرق الإسلامي من فارس حتى مراکش ، ودوخوا آسيا الصغرى ، وتوغلوا في أوروبا ، حتى بلغوا أسوار « فيينا » وكانوا سادة البحر المتوسط من غير نزاع قد جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنبي حوله ، وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالي أن السلطان يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة ، فلا يباح دخوله لأجنبي ، وأنشأوا أسطولاً عظيماً لا قبل لأوروبا به حتى اجتمعت لسحقه كل من عمارات البابا والبندقية وإسبانيا والبرتغال ومالطة عام ٩٤٥ هـ - ١٥٤٧ م - ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئاً .

قد جمعت الإمبراطورية العثمانية في عهد سليمان القانوني الكبير بين السيادة البرية والبحرية ، وبين السلطتين السياسية والروحية .

بلغت حدود الدولة العثمانية على ملك سليمان الطونة والصاوة (النهرية) في الشمال ونبع النيل والمحيط الهندي في الجنوب ، وسلسلة جبال القفقاس في الشرق وجبال أطلس في الغرب وهي مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف ميل مربع .

وكان الأسطول العثماني مؤلفاً مما يزيد على ٢٠٠٠ مركب حربي ، وكان القسم الشرقي من بحر سفيد وبحر الأدرياتيك ومرمرة وأزاق والأسود والأحمر وفارس في حوزته وتحت سيطرته .

ودخل كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومة في ضمن حدود الدولة العثمانية (١) ، وكانت أوروبا كلها ترتعد منهم فرقاً ، ويدخل ملوكها الكبار في ذمة ملوكهم ، ويمسك أهل الديار عن قرع أجراس كنائسهم احتراماً للترك إذا نزلوا بها وأمر البابا أن يحتفل بعيد ، وأن تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة أيام لما أتاه نعي محمد الفاتح .

(١) فلسفة التاريخ العثماني لـ محمد جميل بيهم . ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

ثالثاً - كانوا فى أحسن مركز للقيادة العالمية ، كانوا فى شبه جزيرة البلقان بحيث يشرفون منها على آسيا وأوروبا ، وكانت عاصمتهم واقعة بين البحرين الأسود والأبيض ، وواصلت بين البرين آسيا وأوروبا ، فكانت خير عاصمة لأكبر دولة تحكم على آسيا وأوروبا وإفريقية ، حتى قال نابليون : « لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها » .

وكانت أوروبا لها الخطر الكبير والشأن العظيم فى المستقبل القريب ، تزخر فيها القوى الحيوية وتعيش فى صدورهما عوامل الرقى ، فكان فى استطاعة الترك - لو وفق الله - أن يتقدموا فى ميدان العلم والعقل ويسبقوا أم أوروبا النصرانية ويصبحوا أئمة العالم يقودونه إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوروبا زمام العالم وتقوده إلى النار والدمار .

* انحطاط الأتراك فى الأخلاق وجمودهم فى العلم وصناعة الحرب .

ولكن من سوء حظ المسلمين - فضلاً عن سوء حظ الأتراك - أخذ الترك فى الانحطاط والتدلى ودب إليهم داء الأمم من قبلهم : الحسد والبغضاء واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد أخلاقهم وخيانة الأمراء وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة ، إلى غير ذلك من أخلاق الأمم المنحطة مما هو مبين فى كتب التاريخ التركى ، وليس هذا موضع تفصيله ، وكان شر ما أصيبوا به الجمود فى العلم والجمود فى صناعة الحرب وتنظيم الجيوش ، وقد نسوا قول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تَرَاهُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾ (١) إلخ . وقول النبى ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها » (٢) ، وكان خليقاً بهم - لخرج مركزهم السياسى والجغرافى ، وقد أحاطت بهم الدول الأوروبية إحاطة السوار بالمعصم - أن يجعلوا وصية القائد الإسلامى الكبير عمرو بن العاص رضى الله عنه للمسلمين فى مصر نصب أعينهم : « واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم » ولكن الترك وقفوا وتقدم الزمان ، وتخلفوا وسبقت الأمم الأوروبية .

(١) آية ٦٠ : الأنفال .

(٢) رواه الترمذى - العلم - رقم : ٢٨٢٧ .

* الجمود العلمى فى تركيا :

وقد وصفت الكاتبة خالدة أديب هانم هذا الجمود العلمى فى تركيا وصفاً يحسن بنا أن ننقله هنا قالت :

« ما دامت فلسفة المتكلمين تهيمن على الدنيا ظل علماء الإسلام فى تركيا يقومون بواجبهم ويحسنون القيام به ، وكانت المدرسة السليمانية ومدرسة الفاتح مركزين للعلوم والفنون السائدة فى ذلك الزمان ، لكن لما نشط الغرب من عقال الفلسفة الإلهية والمباحث الدينية الكلامية ووضع أساس العلم الحديث والحكمة الجديدة فأحدث انقلاباً فى العالم لم تعد جماعة العلماء تقدر على الاضطلاع بأعباء التعليم والقيام بواجبات المعلمين . كان يعتقد هؤلاء أن العلم لا يزال حيث كان فى القرن الثالث عشر المسيحى لم يتجاوز ذلك المقام ولم يتقدم ، ولم تزل هذه الفكرة الخاطئة سائدة على نظامهم التعليمى إلى القرن التاسع عشر المسيحى » .

« إن فكرة علماء تركيا والبلاد الإسلامية الأخرى هذه ليست من الدين فى شىء ، إن الفلسفة الإلهية أو علم الكلام الذي كان عند المسلمين أو النصارى ، إنما كان مبنياً على فلسفة الإغريق ، وكان الغلبة فيه لأفكار أرسطاطاليس الذي كان فيلسوفاً وثنياً ، ويجدر بى فى هذا المقام أن أقارن بإجمال بين عقلية العلماء المسيحيين والمسلمين » .

« لم يتعرض القرآن الكريم بالتفصيل لمسألة خلق العالم الطبيعى ، والقسط الأوفى فى تعليمه والأهمية الكبرى للحياة الخلقية والاجتماعية ، ومقصوده الأكبر فصل ما بين الحسن والقبيح والخير والشر ، إنه جاء بشريعة للعالم ، وكلما ذكر مسألة من مسائل ما بعد الطبيعة أو المعارف الروحية قلما نرى فيها تقيداً أو إشكالاً ، إن أساس تعليمه التوحيد ، فكان الإسلام ديناً سمحاً بسيطاً ، وهو أفسح صدرًا للنظريات الجديدة عن العالم الطبيعى من الأديان الأخرى بكثير ، ولكن هذا التسامح وهذه البساطة التى كانت تساعد فى التحقيق العلمى الجديد لم تطل مدتها فى حياة المسلمين . قيد العلماء والمتكلمون فى القرن التاسع الهجرى الإلهيات - فضلاً عن الفقه - بسلاسل وقيود ، وأوصدوا باب التحقيق والاجتهاد ، فى ذلك الوقت تغلغت أفكار أرسطاطاليس فى الفلسفة الإسلامية » .

« بالعكس من ذلك الدين المسيحى - الذى هو أولى بأن يسمى دين الراهب

بولس - فإن « سفر بدء التكوين » يحتوى على تفصيل للعالم الطبيعي ، وإذ آمن النصرى بأنه كلام الله كان الواجب عليهم أن يقرروا صدقه ، ولما كانت المشاهدة لا تؤيدهم فى هذا التأويل لجأوا إلى الاستدلال وتمسكوا بأهداب أرسطاطاليس ، لأن منطقته يعمل عمل السحر » .

« لما بدأ الغرب فى دراسة الطبيعة بواسطة المشاهدة والاختبار والتحليل والتجزئة سقط فى أيدي رجال الكنيسة ، ولما وصل العلماء بطرق عملية إلى اكتشافات مهمة خاف علماء النصرانية على سيادة الكنيسة أن تنقرض ، فحدث صراع عنيف بين الدين والعلم ، وذهب كبار علماء الطبيعة الذين كانوا عاكفين على دراستهم وتحقيقهم ضحية علمهم » .

« واضطرت الكنيسة النصرانية بعد المعارك الدموية بين الدين والعلم أن تواجه الواقع ، فأدخلت علوم الطبيعة فى برنامج مدارسها وكلياتها ، وأصبحت جامعاتها التى لم تكن تختلف بالأمس عن مدارس المسلمين ، مركزاً للعلوم الطبيعية والعلوم الحديثة ، ولم تهجر مع هذا فلسفتها ، وكان نتيجة ذلك أن ظل للكنيسة سلطان على فريق من الطبقة المثقفة ، وكان للقسس الكاثوليك والبروتستانت مشاركة فى العلوم الحديثة ، وكانوا يقدرّون على أن يباحثوا الناشئة فى كل موضوع .

« وكان العلماء فى تركيا العثمانية على الضد من ذلك ، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة ، بل منعوا الأفكار الجديدة أن تدخل فى منطقتهم ، وإذ كانوا متصرفين بزمان تعليم الأمة الإسلامية ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم ، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمى ، وكانت مشاغلهم السياسية قد طغت فى دور الانحطاط ، وكانت لا تسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة والاختبار ، فلم يكن لهم إلا أن يلحوا على فلسفة أرسطاطاليس ، وبينوا علمهم على الاستدلال فلم تزل المدارس الإسلامية فى القرن التاسع عشر المسيحى ، كما كانت فى القرن الثالث عشر المسيحى ^(١) » .

(١) « صراع الشرق والغرب فى تركيا » : محاضرات فى الإنجليزية لخالدة أديب ألفتها فى الجامعة الملكية

الإسلامية ، الخطبة الثانية « انحطاط العثمانيين » ص ٤٠ - ٤٣ .

Conflict of East and West in Turkey by Halide Edib p. 40 - 43

* الانحطاط الفكري والعلمي العام *

ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مقتصرين على تركيا وأوساطها
 علمية والدينية فحسب ، بل كان العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه مصاباً بالجدب
 العلمي ، وشبه شلل فكري ، قد أخذته الإعياء والفتور ، واستولى عليه النعاس . ولعل
 القرن التاسع - إذا لم نقل القرن الثامن - آخر قرون النشاط والتوليد والابتكار في
 الدين والعلم ، والأدب والشعر والحكمة ، والقرن العاشر أول قرون الخمود والتقليد
 والمحاكاة ، وترى هذا الخمود عاماً شاملاً للعلوم الدينية والفنون الأدبية والمعاني
 الشعرية والإنشاء والتاريخ ومناهج التعليم ، فلا تجد في كتب التراجم التي ألفت
 للعصور الأخيرة من تطلق عليه لقب العبقري ، أو النابغة أو المحقق على الأقل ، أو من
 جاء في فن من الفنون بشيء طريف مبتكر ، أو زاد في العلم زيادة حسنة ، إذا
 استثنينا بعض الأفراد في أطراف العالم الإسلامي ، كالشيخ أحمد بن عبدالأحد
 السرهندي (م ١٠٢٤ هـ) صاحب الرسائل الخالدة في الشريعة والمعارف الإلهية ،
 والشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) صاحب حجة الله البالغة
 وأزالة الخفاء والفوز الكبير ورسالة الإنصاف ، وابنه الشيخ رفيع الدين (م ١٢٣٣ هـ)
 صاحب تكميل الأذهان وأسرار المحبة ، والشيخ إسماعيل بن عبد الغنى بن ولي الله
 الدهلوي (م ١٢٤٦ هـ) صاحب منصب الإمامة والعبرات والصراط المستقيم^(١)
 ولا نقرأ في شعر هذه العصور الأخيرة على كثرة ما نظم وقيل فيها شعراً
 مطبوعاً يعلق بالذهن ، أو إنشاء مترسلاً ينشرح له الصدر ، ترى أدباً فاتراً بارداً قد
 أفسده التألق في الحلية اللفظية والمبالغة والتهويل في الألفاظ والمعاني وكثرة التملق في
 المدح والغزل بالذكر في الشعر ، والتكلف حتى في الرسائل الإخوانية والأغراض
 الطبيعية والسجع البارد حتى في كتب التاريخ والتراجم .

(١) انظر تراجمهم في كتاب نزهة الخواطر للعلامة عبدالحى الحسنى المجلد الخامس والسادس والسابع .

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين ، وغصت بالخواشي والتقارير والتلخيصات والمتون التي ضمن فيها مؤلفوها على القرطاس ، وتعمدوا التعقيد والغموض ، وكأنهم ألفوها في صناعة الاختزال ، وكل ذلك ينبئ عن الانحطاط الفكري والعلمي الذي حل بالعالم الإسلامي وتغلغل في أحشائه .

* معاصرو العثمانيين في الشرق *

وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان في الشرق ، إحداهما الدولة المغولية التي أسسها بابر التيموري (سنة ٩٣٣ هـ - ١٥٤٦ م) وكان معاصراً للسلطان سليم الأول وتوالى على عرشها ملوك من أعظم المسلمين شوكة وأبهة وقوة حربية واتساع مملكة ، وكان أعظمهم أورنك زيب ، وكان آخر الملوك التيموريين الأقوياء وأوسعهم وأعظمهم فتوحاً وأمتنهم ديانة وأعرفهم بالكتاب والسنة ، وقد عاش أكثر من تسعين سنة وحكم خمسين وتوفى (سنة ١١١٨ هـ) أي في فجر القرن الثامن عشر المسيحي ، وهو عصر مهم جداً في تاريخ أوروبا ولكنه لم يكن هو ولا سلفه على شيء من الاتصال بما كان يجري في أوروبا وما تتمخض به من حوادث جسام ، وما يفور في صدره من عوامل الرقي والنهضة ، وكانوا ينظرون إلى من يغشاهم من تجار أوروبا وأطبائها أو سفراء دولها - على قلة ورودهم من هذه البلاد النائية - نظر الاستخفاف والاحتقار .

وكانت تصاقب دولتهم في أفغانستان الدولة الصفوية ، وكانت راقية متحضرة ولكنها شغلت بنزعتها الشيعية وبالهجوم على الدولة العثمانية مرة والدفاع عن نفسها مرة أخرى .

وانحصر هاتان الدولتان في قطريهما وكانتا بمعزل عما يقع في الشرق الأدنى فضلاً عن الغرب ، وفي البلاد الإسلامية فضلاً عن البلاد الأجنبية ، أما التحالف والتكتل فلم يكن يخطر من أحد منهم على بال ، وذلك مما طبعت عليه الدول الشرقية والحكومات الشخصية ووصى بها الآباء الأبناء ، وكذلك دراسة أحوال أوروبا العلمية والحربية واقتباس العلوم والصنائع من الخارج فلم يكن يدور بخلد إنسان في ذلك العصر .

*** نمضة أوربا الجاهلية وسيرها العشيت فى علوم الطبيعة****والصناعات .**

وكان القرن السادس عشر والسابع عشر المسيحى من أهم أدوار التاريخ الإنسانى الذى له ما بعده ، قد استيقظت فيه أوربا من هجعتها الطويلة ، وهبت من مرقدها مجنونة تتدارك زمان الغفلة والجهل وتعدو إلى غايتها عدواً ، بل تطير إليها بكل جناح ، تسخر قوى الطبيعة وتفضح أسرار الكون ، وتكشف عن بحار وقارات كانت مجهولة وتفتح فتوحاً جديدة فى كل علم وفن وفى كل ناحية من نواحي الحياة ونبغ فى هذه المدة القصيرة رجال ومبتكرون فى كل علم وعبقريّة أمثال كوبرنيكس (Copernicus) وبرونو (Brunoe) وغليليو (Galilio) وكبلر (Ke-pler) ونيوتن (Newton) ، وغيرهم الذين نسخوا النظام القديم وأسسوا نظاماً حديثاً واكتشفوا عوالم فى العلم ، ومن الرحالين المكتشفين أمثال كلميس (Columbus) وفاسكودى غاما (Vasco Dagama) ومجلن (Maglin). كان تاريخ الأمم فى هذا الدور فى صياغة وسبك ، وكانت نجوم الأمم والشعوب بعضها فى أقول وبعضها فى طلوع ، يصير الأقل منها طالعاً والظالم أقل ، وكانت ساعة فى ذلك الزمان تساوى يوماً بل أياماً ، ويوم يساوى عاماً بل أعواماً ، فمن ضيع ساعة فقد ضيع زمناً.

*** تخلف المسلمين فى مرافق الحياة .**

ولكن المسلمين لم يضيعوا ساعات وأياماً بل ضيعوا أحقاباً وأجيالاً انتهزت فيها الشعوب الأوربية كل دقيقة وثانية ، وسارت سيراً حثيثاً فى كل ميدان من ميادين الحياة وقطعت فى أعوام مسافة قرون .

ومما ينبئ عن مقدار خمول تركيا فى ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل فى تركيا إلا فى القرن السادس عشر المسيحى ، ولم تدخل المطابع فى العاصمة والمهاجر الصحية فى هذه الدولة إلا فى القرن الثامن عشر ، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربى . وفى آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات ، حتى لما شاهدوا بالوناً يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء ، قد سبقتها دول أوربا الصغيرة فى الأخذ بأسباب المدنية والرفاه العام ، وحتى سبقتها مصر فى اتخاذ السكك الحديدية واستعمال القطارات بأربعة أعوام وفى استعمال طوابع البريد ببضعة أشهر .

* تخلفهم في صناعة الحرب :

ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب ، بل كان هذا الانحطاط عاماً شاملاً ، حتى تخلفوا عن أوروبا في صناعة الحرب التي كان التركي في الزمن الأخير ابن بجدرتها وأبا عذرتها ، قد أقر بفضلهم وتبريزهم فيها العالم ولكن سبقتهم أوروبا باختراعتها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت جيوشها الجيوش العثمانية هزيمة منكرة (سنة ١٧٧٤م) وظهر سبقها في ميدان القتال أيضاً فانتبعت الدولة العثمانية بعض الانتباه ، وانتدبت الماهرين الأوروبيين لتنظيم الجيش وتربية العساكر ، وعنى السلطان سليم الثالث في فجر القرن التاسع عشر بالإصلاح ، وكان عصامياً قد نشأ وتعلم خارج البلاط - خلافاً لسابقه - وأنشأ مدارس جديدة وكان يعلم بنفسه في مدرسة الهندسة ، وألف جيشاً على الطراز الحديث ، وأدخل تعديلات وتحسينات في النظام السياسي ، وقد بلغ الشعب حداً كبيراً من الجمود والمحافظة على القديم في كل شيء حتى ثار عليه الجيش القديم واغتاله ، وخلفه محمود الثاني الذي حكم من سنة ١٨٠٧م إلى سنة ١٨٣٩م ، ومن بعده عبدالمجيد الأول (١٨٣٩م - ١٨٥١م) فخلفا سليماً الثالث في مهمته وتقدمت تركيا بعض التقدم .

قارن هذا الشوط الذي قطعته تركيا الإسلامية في ميدان الرقي والتقدم ، بالأشواط التي قطعتها أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر تجد الفرق هائلاً ، فلم يكن جريهما في الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب ، إلا أن الأرنب ساهر دائب في عمله ، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفى إغفاءة .



العصر الأوربي

الفصل الأول

أوروبا المادية

* طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها :

قبل ان ننظر ماذا أثر تحول القيادة من الأمم الإسلامية إلى الأمم الأوربية فى عقلية العالم وأخلاق الشعوب والأمم والمدنية والاجتماع واتجاهات الإنسانية وميولها وماذا جنى منه النوع الإنسانى وهل كان ربحه أكثر من خسارته ورزئه أو بالعكس؟..... يجب علينا أن نعرف طبيعة الحضارة الغربية ووضعها وروحها وفلسفة حياة هذه الأمم وكيف نشأت ؟ .

ليست الحضارة الغربية فى القرن العشرين المسيحى وليدة هذه القرون المتأخرة التى تلت القرون المظلمة فى أوروبا أو حديثة كما يتوهم كثير من الناس ، بل يرجع تاريخها إلى آلاف من السنين ، فهى سلبية الحضارة اليونانية والحضارة الرومية قد خلفتهما فى تراثهما السياسى والعقلى والمدنى ، وورثت عنهما كل ما خلفتا من ممتلكات ونظام سياسى وفلسفة اجتماعية ، وتراث عقلى وعلمى ، وانطبعت فيها ميولهما ونزعاتهما وخصائصهما ، بل انحدرت إليها فى الدم ، فقد كانت الحضارة اليونانية أول مظهر رائع - حفظه لنا التاريخ - للعقلية الأوربية وأول حضارة - سجلها التاريخ - قامت على أساس الفلسفة الأوربية تجلت فيها النفسية الأوربية ، وعلى أنقاضها قام صرح الحضارة الرومية تحمل روحاً واحدة هى الروح الأوربية ، وظلت الشعوب الأوربية طيلة قرون محتفظة بخصائصها وطبيعتها ، وارثة لفلسفتها وعلومها وآدابها وأفكارها ، حتى برزت بها فى القرن التاسع عشر فى ثوب براق يوهمك - بطلاوته وزهو ألوانه - أنه جديد النسيج ولكن لحمته وسداه من نسيج اليونان والرومان .

إذاً يحسن بنا أن نتعرف بالحضارة اليونانية والرومية أولاً وأن نعرف طبائعهما وروحهما ، حتى نكون على بصيرة فى انتقاد الحضارة الغربية والحكم عليها فى القرن العشرين .

* خصائص الحضارة الإغريقية :

اليونان أمة موهوبة ، من أنجب أمم العالم وأذكاهها وأكثرها استعداداً للعلم والأدب ، ومن أخصبها أذهاناً وعقولاً ، وقد مثلت فى العالم دوراً خالداً بفلسفتها وأدبها ووفرة من نبغ فيها من العلماء والحكماء والعسكريين تزهو بآثارهم مكتبات العالم .

والذى يعنينا الآن هو أن نعرف طبيعة الحضارة التى أنشأوها ، فإذا نظرنا فيها نظرة تحليل وانتقاد وصرفنا النظر عما تشترك فيه مع الحضارات من مظاهر وظواهر وبحثنا عن طبيعتها وخصائصها وجدنا من المزايا التى تمتاز بها عن المدينيات الأخرى - خصوصاً المدينيات الشرقية - ما يلى :

(١) الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس .

(٢) قلة الدين والخشوع .

(٣) شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها .

(٤) النزعة الوطنية .

ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المتشعبة فى كلمة مفردة وهى « المادية » فكانت الحضارة اليونانية شعارها « المادية » وهى التى ينم بها كل ما يتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة وشعر ودين ، فلم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته إلا فى شكل آلهة نحتوا لها تماثيل وبنوا لها معابد وهياكل ، فللرزق إله وللرحمة إله ، وللقهر إله ، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادى ونسجوا حولها نسائج من أساطير وخرافات ، وصوروا المعانى المجردة وتصوروها فى أجسام وأشكال ، فللمحب إله وللجمال إله ، وليس نظام العقول العشرة والأفلاك التسعة فى فلسفة أرسطاطاليس إلا رشفة من رشفات هذه المادية التى لا تتخلى عنها الطبيعة اليونانية .

وقد سلم العلماء الأوربيون بغلبة المادية فى الحضارة اليونانية ، ونوهوا بها فى كتبهم وبحوثهم العلمية ، وقد ألقى العالم الألمانى الدكتور « هاس » (Hass) ثلاث

محاضرات فى جنيف عنوانها « ما هى المدنية الأوربية ؟ » وهو من العلماء الذين يرون أن المدنية الغربية لم تتأثر بالشرق ، وأنها مدنية مفردة ممتازة ، ونلخص هنا كلامه فيما نحن بصدده :

« المدنية اليونانية هى مركز المدنية الغربية الحاضرة ، وكان المهم عند رجالها نشوء قوى الإنسان نشوءاً مناسباً ، وكان المثل الكامل عندهم الجسم الجميل المتناسب وليس هذا إلا اعتداداً بالمحسوسات اعتداداً كبيراً ، وكان أكبر عنايتهم بالرياضة البدنية والألعاب الرياضية والرقص وغيره ، وكان التثقيف الذهني الذي يحتوى على الشعر والغناء والتمثيل والفلسفة وعلوم الطبيعة لا يتجاوز حداً خاصاً حتى لا يكون ارتقاء الذهن على حساب الجسم ، وكان الدين خلواً من الروحانية المعنوية ، لم يكن فيه علم الدين ولا طبقة رجال الدين . أما اللون الروحي الذي فى تقاليد « أفس » وغيرها فإنما هو مستعار من الشرق ولا يصح أن ينسب إلى المدنية اليونانية .

ولاحظ كثير من العلماء الأوربيين رقة الدين فى اليونان وقلة الخشوع والجد فى أعمالهم وكثرة اللهو والطرب فى حياتهم . يقول ليكى فى كتابه « تاريخ أخلاق أوربا » : « إن الحركة اليونانية كانت عقلية وذهنية محضة ، وكانت الحركة المصرية بالعكس من الأولى ، روحية باطنية . وينقل « أبوليس » المؤلف الرومى قوله : « إن المصريين يعظمون آلهتهم بالرقص والغناء » ويعلق عليه بقوله : « لا ريب أن التاريخ اليونانى يصدق ذلك ويؤيده ، فلا نعلم ديناً من الأديان يراحم دين اليونان وتقاليده فى كثرة الأفراح والأعياد والألعاب وفى قلبه الخشية والخشوع ، فلم يكن اليونان يعظمون الله تعالى إلا كما يعظمون شيوخهم وعظماءهم ، وكانوا يكتفون فى تعظيمه وتمجيده برسوم عادية وتقاليد جارية .

وكان لليونان فلسفة إلهية وعقائد يستغرب معها الخشوع لله وعبادته والتضرع له والاتجاء إليه والاطراح على عتبته ، فإن من ينفى الصفات عن الله تعالى ويعطله وينفى عنه الاختيار والأفعال والخلق والأمر فى هذا الكون ، ويربط هذا العالم بما يسمونه « العقل الفعال وحركات الأفلاك » فإنه بطبيعة هذه العقيدة لا يقصد الله فى حياته العملية إلا تقليداً ، ولا يرحوه ولا يهابه ولا يحبه ولا يخشع لعظمته ، ولا يستغيث به فى شدته ولا يسبح بحمده ويعيش كأنه لا إله ولا رب ، فإذا سمعنا أن اليونان لم يكونوا خاشعين لله وكانت عباداتهم وأعمالهم الدينية

أجساداً بغير أرواح ، وأنهم كانوا يعظمون الله كما كانوا يعظمون شيوخهم وكبارهم لم نستغربه البتة ، وإنما نتعجب إذا سمعنا عكس ذلك ، وقد أثرت شدة الاعتداد بالحياة الدنيا والمبالغة في قيمتها ، وكذلك الولوع بالتمائيل والصور والغناء والموسيقى التي يسميها اليونان الفنون الجميلة ولهج الأدباء والمؤلفون بالحرية الشخصية التي لا تعرف قيوداً ولا تقف عند حد ، تأثيراً سيئاً في أخلاق اليونان ومجتمعها ، فانتشرت الفوضى في الأخلاق وحدثت ثورة على كل نظام ، وأصبح شعار الرجل الجمهوري (وهو كناية عن الحر والمتنور) الجرى وراء الشهوات العاجلة ، وانتهاب المسرات ، والتهام الحياة التهام الجائع النهم . يصف سقراط - كما ينقل عنه أفلاطون في كتابه « المملكة » الرجل الجمهوري فكأنما يصف ناقد من نقاد هذا القرن فتي القرن العشرين في إحدى عواصم المدينة الغربية :

« إذا قيل له : إن بعض المسرات من الرغبات التي هي طيبة وتستحق الاحترام وبعضها من الشهوات التي هي قبيحة ، وإن الأولى ينبغي أن يعمل بمقتضاها وتحترم والأخرى مما ينبغي أن يمنع عنها ويقام عليها الحجر ، لم يقل هذا الرجل هذا القانون الصحيح ولا يسمح بسماعه ، فإذا عرضت عليه هذه الحقائق أنفض إليه رأسه مستهزئاً وأكد أن جميع الشهوات سواء وتستحق الاحترام بغير فرق بينها ، وهكذا يعيش ويقضى أيامه مرضياً شهواته التي تعتريه أحياناً ، ذات يوم تراه سكران ثملاً مصغياً إلى الغناء ، وفي يوم آخر تراه صائماً يجتريء بالماء ، وتارة يدخل في التربة والتمرين ، وأخرى تراه كسلان عاطلاً يهمل كل شيء ، ومرة تراه يعيش عيش فيلسوف ، وأحياناً يدخل في السياسة وينهض ويخطب بمقتضى الوقت ، ربما يمدح بعض رجال الحرب والجندي ويميل إليهم أو يشرع في التجارة لأنه يغبط التاجر الرابع ، ليس لحياته نظام ولا ضبط ولكنه يعد هذه الحياة هنيئة ناعمة سارة ويواصلها إلى النهاية » .

أما الوطنية فهي من لوازم الطبيعة الأوربية ، وهي أظهر وأقوى في أوروبا منها في آسيا ، وقد أغرى بذلك الطبيعة الجغرافية وأوحته ، لأن المناطق الطبيعية في آسيا واسعة جداً وتشمل على مناخات وعلى أجيال وأنواع كثيرة للبشر ، وهي غنية مخصبة في وسائل المعيشة ، فالمملكة في القارة الآسيوية تجنح بحكم الطبيعة إلى السعة والعموم ، وظهرت في أرضها وازدهرت أوسع ممالك عرفها التاريخ ، أما في

أوروبا فالتنازع على البقاء فيها شديد ، والكفاح للحياة دائم مستمر ، لتزاحم العمران وضيق المناطق وقلة وسائل المعيشة ، وقد حصرت الجبال والأنهار الأجناس الأوربية ، فى نطاق ضيق طبعى دائم ، وبالأخص الجزء الأوسط الغربى والجزء الجنوبى من أوروبا ، لا يسمح لممالك واسعة عظيمة ، وقد شاعت طبيعة هذه القارة أن تكون منشأ لممالك ضيقة صغيرة ، لذلك كان التصور السياسى فى أوروبا فى القديم لا يكاد يجاوز ممالك بلدية لا تزيد منطقتها على أميال مستقلة استقلالاً تاماً ، وأكبر مظهر لهذا التصور أرض اليونان حيث وجدت من فجر التاريخ عشرات من مدن صغيرة مستقلة .

فلا عجب إذا كان اليونان يدينون بالوطنية ويتحلونها وقد سلم « ليكى » أن الفكرة الوطنية هى الفكرة السائدة فى اليونان ، وكانت الفكرة العالمية التى قد نطق بها بعض حكمائهم كسقراط وانكساغورس شاذة لم تنل أنصاراً وانتصاراً فى يونان فكان نظام ارسطاطاليس الأخلاقى مبنياً على التمييز بين اليونانى وغير اليونانى ، وكان حب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق التى أجمع عليها حكماء اليونان ، وأن ارسطاطاليس لم يكتف بحب وطنه والولاء له فحسب ، بل قال : إن اليونانيين ينبغى لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم ، وقد راجت هذه الفكرة الوطنية الضيقة فى الأوساط اليونانية وتغلغت فى الأحشاء ، حتى لما قال فيلسوف إنه لا يخص مواطنيه بمواساته بل سيكون بره عاماً لجميع اليونانيين استشرفه الناس عجباً ونظروا إليه شزراً .

* خصائص الحضارة الرومية .

خلف اليونان الروم وفاقوهم فى القوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة وصفات الجندية ، ولكن لم يلحقوا بهم بعد فى العلم والفلسفة والآداب والشعر والتهديب واللباقة والمدنية التى كان للإغريق فيها فضل وتقدم على جميع الأمم المعاصرة وعلى الروم أيضاً الذين كانوا لا يزالون فى دورهم العسكرى ، فخصعوا لهم علمياً وتطفلوا على مائدتهم واقتبسوا من علومهم وفلسفتهم وأفكارهم .

يقول ليكى :

« إن اليونان كانت لهم ثروة علمية ضخمة أنتجوها وزادوا فيها على مر القرون والعصور ، وكانت رومة لا تزال فى طورها الجندى لا تملك أثراً من الآثار

الأدبية ، بل كانت لغتها قاصرة فى التعبير عن الأفكار والمعانى العالية ، فغلب الروم بتخلفهم وقصورهم فى العلم ، وانقلبوا صاغرين للمدنية اليونانية التى غلب أهلها فى السياسة ، ولم يزالوا مأخوذِينَ بسحرهم فى كل قسم من أقسام العلم ، فكان المؤرخون الأقدمون فى الروم يؤلفون كتبهم باليونانية ، واستمرت اليونانية لغة التأليف والعلم بعد ما بدأ شعراء الروم ينظمون الشعر فى اللاتينية » .

ولم يكن هذا الخضوع خاصاً فى عالم التأليف والأدب فحسب ، بل غلبت المدنية الإغريقية المدنية الرومية فى الأخلاق والسجايا والعشرة والاجتماع وفى العواطف والنزعات ، وفى كل ناحية من نواحي الحياة العامة ، وأصبح الروم يقلدون الإغريق ويتنبلون بذلك ويتظرفون .

وهكذا انتقلت الفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية ، بل النفسية اليونانية إلى الروم ، وجرت منهم مجرى الروح والدم ، ولم يكن الروم - بطبيعتهم الأوربية - يختلفون عن اليونان فى الخصائص الفطرية كثيراً ، بل هناك شبه عظيم بين الأمتين ، إيمان بالحسوس وغلو فى تقدير الحياة وشك فى دين ، وضعف فى يقين ، واضطراب فى العقيدة ، واستخفاف بالنظام الدينى وطقوسه ، واعتزاز بالقومية وتعصب لها ، وحب مفرط للوطن ، زد إلى ذلك كله اعتداداً بالقوة واحتراماً زائداً لها يبلغ العبادة والتقدیس .

يظهر من التاريخ أنه لم يكن للرومان إيمان راسخ فى دينهم ، وإنى أعذرهم فى ذلك ، فإن النظام الدينى الوثنى الخرافى الذى كان سائداً فى رومية يقتضى بطبيعته الشك والاضطراب وضعف الإيمان ، فكلما تقدموا فى العلم وتنورت أفكارهم ، ازدادوا استخفافاً به ، وقد قضوا من أول يوم أن الآلهة لا دخل لهم فى السياسة وأمور الدنيا .

يقول (سيسرو Cicero) :

لما كان الممثلون ينشدون فى دور التمثيل أبياتاً معناها أن الآلهة لا دخل لها فى أمور الدنيا يصغى إليها الناس ويسمعونها بكل رغبة .

ويقول الراهب (أغستين Augustine) :

« إن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزأون بهم فى دور

التمثيل» وقد فقد الدين الرومى سلطانه الروحى على معتنقيه ، وبردت العاطفة الدينية فى قلوب الناس حتى تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها فى بعض الأحيان ، فإن التاريخ يحدثنا أنه لما غرق أسطول للأمبراطور أغسطس Augustus استشاط غضباً ، وحطم تمثال نيتون Neptune إله البحر ، ولما مات جرمينيكس Germanicus رجم الناس أنصاب الآلهة (التى كانوا يذبحون عليها) (١)

فلم يكن للدين تأثير فى أخلاق الأمة وسياستها ومجتمعها ، ولم يكن يملك عليهم شعورهم وميولهم ويراقب عليهم أخلاقهم ونزعاتهم ، ولم يكن ديناً عميقاً يحكم على الروح وينبعث من أعماق القلب ، بل كان تقليداً من التقاليد ، كانت السياسة تقتضى البقاء عليه ولو بالاسم والرسم ، يقول ليكى :

« إن الدين الرومى كان أساسه على الأثرة ، ولم يكن يرمى إلا الى رفاهة الأفراد وسلامتهم من المصائب والمتاعب ، والشاهد على ذلك أنه ظهر فى رومية مئات من الأبطال والعظماء ، ولكن لم ينهض فيها زاهد فى الدنيا عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع مثلاً فى تاريخ الروم للتضحية والإيثار إلا تجده لا تأثير فيه للدين ولكن مبنياً على الوطنية (٢) » .

والظاهرة التى يمتاز بها الروم من بين أم الأرض المعاصرة بل بعدها ، والتى أصبحت لها ديناً تدين به وشعاراً تعرف به هى روح الاستعمار والنظر المادى البحت إلى الحياة ، وذلك ما ورثته أوروبا المعاصرة عن سلفها الروميين وخلفتهم فيه .

وقد أجاد وصفه العالم الألمانى المسلم الأستاذ محمد أسد فى كتابه النفيس الإسلام على مفترق الطرق ، قال :

« إن الفكرة التى كانت تسيطر على الإمبراطورية الرومانية هى احتكار القوة لها واستغلال الأمم الأخرى لمصلحة الوطن الرومى فقط ، لم يكن رجالها والقائمون

(١) تاريخ أخلاق أوروبا :

History of European morals (Thepagan empire) .

(٢) المصدر نفسه .

عليها يتحاشون من أى ظلم وقسوة فى سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة ، أما ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن إلا للروم فقط ، إن هذه السيرة لا يمكن أن تقوم إلا على إدراك مادى محض للحياة والحضارة ، وإن كانت ماديتهم قد هذبت بذوق عقلى ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحية ، إن الروم لم يدينوا بالدين جدياً أبداً ، كانت آلهتهم التقليدية محاكاة شاحبة لأساطير الإغريق وخرافاتهم ، وقد آمنوا بهذه الأرواح محافظة على الرابطة الاجتماعية التى كانت تربطهم وتوحدهم ، فلم يكونوا يسمحون لهذه الآلهة بالتدخل فى حياتهم العملية كان لها أن يأذنوا أن تتكهن بالغيب - إذا سئلت عن ذلك - على لسان الكهان ولكن لم يحلوا لها أبداً أن تفترض شرائع أخلاقية على الناس (١) .

* الانحطاط الخلقى فى الجمهورية الرومية :

وفى نهاية دور الجمهورية سال بالروم سيل الانحطاط الخلقى والبهيمية ، وفاض بحر الترف فى العيش والبذخ فيضاناً عظيماً - غاص الروم فيه الى القاع وسالت فيه النظم الأخلاقية التى كان الروم معروفين بها كالغناء ، وتزعزع البناء الاجتماعى حتى كاد ينهدم ، وقد صوره « دراير » الأمريكى بقلمه البليغ :

« لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهديب إلى أسفل الدرجات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف و من لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان الا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهر بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويعحف بهم خدام فى ملابس جميلة خلاصة وغادات رومية حسان وغوان عاريات كاسيات غير

(١) Islam at the Cross Roads p. 38-39.

متعففات تدل دلالاً ، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط فى دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هنالك شئ يستحق العبادة فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التى يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان فى ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملك ويعين إيرادات الإقطاع وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة فكان نظام رومة المدنى يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذى نراه فى حضارة اليونان فى عهد انحطاطها (١) .

* تنصر الروم ،

وها هنا حادثة عظيمة يجب أن يسجلها المؤرخ وينوه بها ، وهى اعتلاء النصرانية عرش رومة الوثنية ، وكان ذلك بجلوس قسطنطين الذى اعتنق النصرانية على سرير الأباطرة سنة ٣٠٥م فانتصرت فيه النصرانية على الوثنية ونالت فجأة ما لم تكن تحلم به من ملك عريض ودولة مترامية الأطراف وكلمة لا تعلوها كلمة . ولما كان قسطنطين إنما توصل إلى الملك على جسر من أشلاء النصارى وأنهار من دمائهم التى أريقَت فى الذب عنه والنصر له ، عرف لهم الجميل وبذل لهم وجهه ، ووطأ لهم أكتافهم وقلدهم مفاتيح ملكه .

* خسارة النصرانية فى دولتها ،

ولكن انتصر النصارى فى ساحة القتال وانهزموا فى معترك الأديان ، ربخوا ملكاً عظيماً وخسروا ديناً جليلاً ، لأن الوثنية الرومية مسخت دين المسيح ومسخته أهله ، وكان أكثر مسخاً له وتحريفاً هو قسطنطين الكبير حامى ذمار النصرانية ورافع لوائها .

يقول « درابر » :

« دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (٣٣٧ م) .

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك ولكنها لم تتمكن من أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها ، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ، ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء - هنالك يختلف الإسلام عن النصرانية ، إذ قضى الإسلام على منافسه (الوثنية) قضاء باتاً ، ونشر عقائده خالصة بغير غش .

وإن هذا الإمبراطور الذي كان عبداً للدنيا والذي لم تكن عقائده الدينية تساوى شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين - النصراني والوثني - أن يوحدهما ويؤلف بينهما ، حتى إن النصراني الراسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطة ، ولعلمهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طمست ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة ، وسيخلص الدين النصراني عاقبة الأمر من أذناس الوثنية وأرجاسها » .

* الرهبانية العاتية ،

فلم تستطع هذه النصرانية الملقحة بالوثنية المشوهة التي فقدت روحها وجمالها أن تغير من سيرة الروم المنحطة وأن تبعث فيهم حياة جديدة ، حياة دينية نقية طاهرة وأن تفتح عهداً زاهراً في تاريخ الروم ، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلها كانت شراً على الإنسانية والمدنية من بهيمية رومة الوثنية ، وقد جن جنون هذه الرهبانية في العالم النصراني وتخطى حدود القياس ، وإنا نلتقط أمثلة من كتاب تاريخ أخلاق أوروبا وهو قليل من كثير جداً .

« زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة ، وعظم شأنهم واستفحل أمرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس ، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقة ، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركة الرهبانية ما روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصح

خمسون ألفاً من الرهبان ، وفي القرن الرابع المسيحي كان راهب واحد يشرف على خمسة آلاف راهب ، وكان الراهب « سرايين » يرأس عشرة آلاف ، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر .

* عجائب الرهبان *

ظل تعذيب الجسم مثلاً كاملاً في الدين والأخلاق إلى قرنين ، وروى المؤرخون من ذلك عجائب ، فحدثوا عن الراهب ماكارىوس (Makarius) أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرص جسمه العارى ذباب سام ، وكان يحمل دائماً نحو قنطار من حديد ، وكان صاحبه الراهب يوسيبس (Eusebius) يحمل نحو قنطارين من حديد ، وقد أقام ثلاثة أعوام في بئر نرح ، وقد عبد الراهب يوحنا (St.Jhon) ثلاث سنين قائماً على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طول هذه المدة ، فإذا تعب جداً أسند ظهره إلى صخرة ، وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً ، وإنما يسترون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ، ويأكل كثير من الكلاً والحشيش ، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتأثمون عن غسل الأعضاء ، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في النجاسات والدنس ، يقول الراهب اتھينس : إن الراهب أتوني لم يقترب إثم غسل الرجلين طول عمره ، وكان الراهب أبراهام لم يمس وجهه ولا رجله الماء خمسين سنة ، وقد قال الراهب الإسكندري بعد زمن متلفاً : وأأسفاه ! لقد كنا في زمن نعد غسل الوجه حراماً فإذا بنا الآن ندخل الحمامات ، وكان الرهبان يتجولون في البلاد ويختطفون الأطفال ويهربونهم إلى الصحراء والأديار وينزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربونهم تربية رهبانية والحكومة لا تملك من الأمر شيئاً ، والجمهور يؤيدونهم ويحبذون الذين يهجرون آباءهم وأمهاتهم ويختارون الرهبانية ويهتفون باسمهم ، وعرف كبار الرهبان ومشاهير التاريخ النصراني بالمهارة في التهريب ، حتى روى أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا رأين الراهب امبروز (Ambrose) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئاً وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس (١) .

(١) اقرأ تاريخ أوروبا « ليكي » Lecky : History of European Morals IV.

* تأثير الرهبانية في أخلاق الأوربيين *

كان نتيجة هذه الرهبانية أن خلال الفتوة والمروءة التي كانت تعد فضائل ، عادت فاستحالت عيوباً ورذائل ، وزهد الناس في البشاشة وخفة الروح والصراحة والسماحة والشجاعة والجرأة وهجروها ، وكان من أهم نتائجها أن تزلزلت دعائم الحياة المنزلية ، وعم الكنود والقسوة على الأقارب ، فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حناناً ورحمة ، وعيونهم من الدمع ، تقسو قلوبهم وتجمد عيونهم على الآباء والأمهات والأولاد ، فيخلفون الأمهات ثكالي والأزواج أيامي والأولاد يتامى ، عالة يتكففون الناس ، ويتوجهون قاصدين الصحراء ، همهم الوحيد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة لا يباليون ماتوا أو عاشوا ، وحكى « ليكى » من ذلك حكايات تدمع العين وتخزن القلب (٢) .

وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن ، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهم في الطريق والتحدث إليهن ولو كن أمهات وأزواجاً أو شقيقات تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية ، وروى « ليكى » من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً .

* عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة *

ولا يتوهم أحد أن هذه الرهبانية الغالية قد عدلت من شره المادية الرومية وكبحت من جماحها وغلواتها في البهيمية والشهوات ، فإن هذا لم يكن ولا يكون في الغالب وتأباه الفطرة الإنسانية ويكذبه التاريخ ، فإن الذى يوجد الاعتدال ويخفض من المادية الجامحة ويجعل منها حياة معتدلة هو النظام الروحي الدينى الخلقى الحكيم الذى يوافق الفطرة الإنسانية الصحيحة ، والذى لا يتصدى لأن يزيل الفطرة الإنسانية ، بل يوجهها توجيهاً نافعاً ، فإنها لا تنزول ولكن تميل من شر إلى

History of European Morals. Part II Chapter IV, from Constantine to Charlemagne.

خير ، وهكذا فعل الإسلام ، وهكذا فعل سيدنا محمد ﷺ ، فقد صرف شجاعة العرب من المنافسات القبلية والتقاتل وأخذ الثأر والأحقاد القديمة إلى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله ، وصرف تبذيرهم وسماحتهم إلى الإنفاق في سبيل الله ، وشغلهم عن الجاهلية بالدين الإسلامي ، وأبدل الشيء بالشيء ، وأعطى النفس حقها من النشاط والترويح ، فإن النفوس كما قال عالم من علماء المسلمين لا تترك شيئاً إلا بشيء ، وإن النفوس قد خلقت لتعمل لا لتترك (١) ، وإن الأنبياء قد بقوا بشيء وايتكميل الفطرة وتكريرها لا بتبديلها وتغييرها (٢) .

قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال ما هذان اليومان؟ قالوا : كنا نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما ، يوم الأضحى ويوم الفطر (٣) ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان لما يسألت به الأنصار يوم بعث قالت : وليستا بمغنيات ، فقال أبو بكر : أمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ وذلك يوم عيد ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بكر إذا سئل قوم عيداً وهذا عيدنا ، وفي رواية أنه قال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد الأضحية .

أما النصرانية الرومية فقد حاولت عبثاً تغيير الفطرة وإزالتها وجاءت بنظام لا تطيقه الفطرة الإنسانية ولا تسيغه ، وحملت النفوس ما لا طاقة لها به وراغبت فيه كرد فعل ضد المادية الطاغية واحتملت كارهة ، ثم تخلصت منه وتنازلت عليه ولم تقدر النصرانية - بإسرافها في الرهبانية والزهد ومكابرتها للفطرة والواقع - أن تصلح ما فسد من أخلاق الناس وعوائدهم ، وتمسك بضيق المدينة الساقطة إلى الهاوية وتمنعها من التردى ، فكانت حركة الفجور والإباحة وحركة الغلو في الزهد

(١) من كلام شيخ الاسلام الحافظ ابن تيمية م ٧٢٧هـ في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم ومخالفة أصحاب الجحيم » ص ١٤٣ .

(٢) ابن تيمية في كتابه « النبوات » .

(٣) رواه أبو داود : الصلاة رقم ١١٣٤ .

(٤) رواه البخاري : الصلاة رقم ٩٥٢ ، والبيهقي ٢٢٤/١٠ ، وابن ماجه نكاح ١٨٩٨ .

والرهبانية تسيران في البلاد النصرانية جنباً إلى جنب ، بل الأصح أن الرهبانية كانت معتزلة في الصحارى والخلوات لا سلطان لها على الحياة ، وحركة الخلاعة والإباحة كانت زاخرة طامة في المدن والحوضر .

* بين الرهبانية العاتية ، والمادية الجامحة ،

يصور « ليكى » ما كان عليه العالم النصراني في ذلك العصر من التآرجح بين الرهبانية والفجور فيقول :

« إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس واجتماعهم ، وكانت الدعارة والفجور والإخلاد إلى الترف والتساقط على الشهوات والتملق في مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء والمسابقة في زخارف اللباس والحلى والزينة في حديثها وشدهتها ، كانت الدنيا في الحين تتأرجح بين الرهبانية القسوى والفجور الأقصى ، وإن المدن التي ظهر فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور ، وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته . وقد ضعف رأى الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحداث والفضيحة بين الناس ، وكأن الضمير الإنساني ربما يخاف الدين ووعيده ، ولكنه آمن واطمأن ، لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان ، لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة ، ولكن قل الظلم والاعتداء والقسوة والخلاعة ، مع انحطاط في حرية الفكر والحماسة القومية ^(١) » .

* الفساد في المراكز الدينية ،

ولم تكن الرهبانية والنظام الدينى السلبى إلا مصادمة للفترة ، فبقيت مقهورة بعوامل الديانة الجديدة وسلطانها الروحى وساعدتها عوامل أخرى ، ثم قهرت الطبيعة وتسرب الضعف والانحراف في المراكز الدينية حتى صارت تزاخم المراكز

الدينية وربما تسبقها فى فساد الأخلاق والدعارة والفجور ، لذلك وقفت الحكومة المآدب الدينية التى كانت ترمى إلى عقد الألفة والأخوة بين المسيحيين وأعياد الشهداء والأولياء وذكرياتهم التى وجدت فيها الخلاعة والفجور حمى ومرتعاً ، واتهم القسوس بكبائر ومنكرات .

ويقول الراهب « جروم » (Jarum) :

« إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزرى بترف الأمراء والأغنياء المترفين ، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطاً عظيماً واستحوذ عليهم الجشع وحب المال وعدوا طورهم ، حتى كانوا يبيعون المناصب والوظائف كالسلع ، وقد تباع بالمزاد العلنى ، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران ، ويأذنون بنقض القانون ، ويمنحون شهادات النجاة وإجازات حل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد ، ويرتشون ويرابون ، وقد بذروا المال تبذيراً حتى اضطر البابا انوسنت الثامن أن يرهن تاج البابوية . ويذكر عن البابا ليو العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال ، وأنفق نصيبه ودخله ، وأخذ إيراد خليفته المترقب سلفاً وأنفقه ، ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفى البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم ^(١) » .

* تنافس البابوية والإمبراطورية ،

وبدأ النزاع والمنافسة بين البابوية والإمبراطورية فى القرن الحادى عشر ، فاشتدت بعنف وحمى وطيسها ، وانتصرت فيها البابوية أولاً حتى إن هنرى الرابع ممثل الإمبراطورية اضطر سنة ١٠٧٧م أن يتقدم بخضوع نحو البلاط البابوى فى قلعة كانوسا ولم يسمح له البابا بالدخول إلا بعد أن شفع له الرجال ، فسمح له بالمشول بين يديه ، فدخل الإمبراطور صاغراً حافياً لابساً الصوف وتاب على يديه فغفر له البابا زلته ، وكانت الحرب بين البابوية والإمبراطورية بعد ذلك سجلاً حتى ضعفت البابوية ، وبقي الناس هذه المدة الطويلة يتنازعهم عاملان دينى ودينوى ويقوا يرحلون تحت نيرين إمبراطورى وبابوى .

وكان البابوات يتمتعون فى هذه العصور الوسطى بنفوذ واسع وسلطان عظيم لم يكن للملوك والأباطرة ، وكان يمكن لهم أن يتقدموا بأوربا تقدماً صحيحاً فى العلم والمدنية تحت ظل الدين ، لأن نوابهم وممثليهم كانوا يتجولون فى البلدان الأوربية وينزلون من أهلها فى جناب مريع وظل ظليل ، ويتفاهمون معهم بلغة واحدة ويتدخلون فى أمور سياسية مهمة ، ووجدوا فى كل بقعة أنصاراً لهم من ذوى الرأى والسياسة يتكلمون بلغة واحدة ويساعدونهم فى مهمات الدولة .

* شقاء أوربا برجال الدين *

ولكن رجال الدين من سوء حظ النصرانية ومن سوء حظ الأمم التى دانت بها أساؤوا استعمال هذا السلطان الهائل فاستغلوه لأنفسهم ونفوذهم وجاههم ، وبقيت أوربا تتسكع فى دياجير الجهل والخرافة والانحطاط ، وأصبحت المدنية بحكمهم ورهبانيتهم فى صميمها ، فلم يتضاعف عدد سكان القارة الأوربية فى ألف سنة ، ولم يتضاعف عدد سكان إنكلترة فى خمسمائة سنة ، ولا شك أن من أسبابها حياة العزوبة التى كان القسوس والرهبان يزينونها للناس ويرغبون فيها ، ولم يشأ الكهان والأساقفة أن يساهم الأطباء فى مرافقهم وغلاتهم فانتشرت الأوبئة والأمراض فى طول القارة وعرضها ، وتعرف من رحلة انيس سلوئيس الذى اشتهر بعد بلقب (Pus the Second) التى قام بها فى الجزائر البريطانية حوالى سنة ١٤٣٠م ما كانت عليه هذه الجزائر من بؤس وانحطاط فى المدنية وفقير مدقع .

* جنائية رجال الدين على الكتب الدينية *

ولكن من أعظم أخطاء رجال الدين فى أوربا ومن أكبر جنائياتهم على أنفسهم وعلى الدين الذى كانوا يمثلونه أنهم دسوا فى كتبهم الدينية المقدسة معلومات بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية ربما كانت أقصى ما وصلوا إليه من العلم فى ذلك العصر ، وكانت حقائق راهنة لا يشك فيها رجال ذلك العصر ، ولكنها ليست أقصى ما وصل إليه العلم الإنسانى ، وإذا كان ذلك فى عصر من العصور غاية ما وصل إليه علم البشر فإنه لا يؤمن عليه التحول والتعارض ، فإن العلم الإنسانى متدرج مترق ، فمن بنى عليه دينه فقد بنى قصراً على كتيب مهيل من الرمل . ولعلمهم فعلوا ذلك بنية حسنة ولكنه كان أكبر جنائية على أنفسهم وعلى الدين ، فإن ذلك ، كان سبباً للكفاح المشعوم بين الدين والعقل والعلم الذى انهزم فيه

الدين ذلك الدين المختلط بعلم البشر الذى فيه الحق والباطل والخالص والزائف - هزيمة منكرة ، وسقط رجال الدين سقوطاً لم ينهضوا بعده ، وشر من ذلك كله وأشأم أن أوروبا أصبحت لا دينية .

ولم يكتف رجال الدين بما أدخلوه في كتبهم المقدسة ، بل قدسوا كل ما تناقلته الألسن واشتهر بين الناس وذكره بعض شراح التوراة والإنجيل ومفسريها من معلومات جغرافية وتاريخية وطبيعية ، وصبغوها صبغة دينية وعدوها من تعاليم الدين وأصوله التى يجب الاعتقاد بها وبذ كل ما يعارضها ، وألفوا فى ذلك كتباً وتآليف ، وسموا هذه الجغرافية التى ما أنزل الله بها من سلطان الجغرافية المسيحية (Christian Topography) وعضوا عليها بالنواجذ وكفروا كل من لم يدن بها .

* اضطهاد الكنيسة للعلم *

وكان ذلك فى عصر انفجر فيه بركان العقلية فى أوروبا ، وحطم علماء الطبيعة والعلوم سلاسل التقليد الدينى فزيفوا هذه النظريات الجغرافية التى اشتملت عليها هذه الكتب وانتقدوها فى صرامة وصراحة ، واعتذروا عن عدم اعتقادها والايان بها بالغيب ، وأعلنوا اكتشافاتهم العلمية واختباراتهم ، فقامت قيامة الكنيسة وقام رجالها المتصرفون بزمam الأمور فى أوروبا وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم فى سبيل الدين المسيحى ، وأنشأوا محاكم التفتيش التى تعاقب - كما يقول البابا - أولئك الملحدون والزنادقة الذين هم منتشرون فى المدن وفى البيوت والأسراب والغابات والمغارات والحقول ، فجدت واجتهدت وسهرت على عملها ، واجتهدت أن لا تدع فى العالم النصرانى عرقاً نابضاً ضد الكنيسة ، وانبتت عيونها فى طول البلاد وعرضها ، وأحصت على الناس الأنفاس ، وناقشت عليهم الخواطر حتى يقول عالم نصرانى : « لا يمكن لرجل أن يكون مسيحياً ويموت حتف أنفه » ، و يقدر أن من عاقبت هذه المحاكم يبلغ عددهم ثلاثمائة ألف ، أحرقت منهم اثنان وثلاثون ألفاً كان منهم العالم الطبيعى المعروف برونو ، نقت منه الكنيسة آراء من أشدها قوله بتعدد العوالم ، وحكمت عليه بالقتل ، واقرحت بأن لا تراق قطرة من دمه ، وكان ذلك يعنى أن يحرق حياً ، وكذلك كان .

وهكذا عوقب العالم الطبيعى الشهير غاليليو (Galilio) بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس .

* نورة رجال التجديد *

هنالك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم ، وأصبحوا حرباً لرجال الدين وممثلي الكنيسة والمحافظين على القديم ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب ، وعادوا الدين المسيحي أولاً والدين المطلق ثانياً ، واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية ، وزعماء الدين المسيحي ، - وبلطف أصبح ، الديانة والبوليسية - حرباً بين العلم والدين مطلقاً ، وقرر الشائرون أن العلم والدين ضربتان لا تتصلحان ، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان ، فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر ، ومن آمن بالأول كفر بالثاني ، وإذا ذكروا الدين ، ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقَت في سبيل العلم والتحقيق ، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم ، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة ، وجباه مقطبة ، وعيون ترمى بالشرر ، وصدور ضيقة حرجة ، وعقول سخيصة بليدة ، فاشمأزت قلوبهم وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه ، وتواصوا به وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم .

* تقصير النافرين وعدم تثبتهم *

ولم يكن عند هؤلاء النافرين من الصبر والمثابرة على الدراسة والتفكير ، ومن الوداعة والهدوء ، ومن العقل والاجتهاد ما يميزون به بين الدين ورجاله المحتكرين لزعامته ، ويفرقون بين ما يرجع إلي الدين عن عهدة ومسئولية ، وما يرجع الى رجال الكنيسة من جمود وجهل واستبداد وسوء تمثيل ، فلا ينبذوا الدين نبذ النواة ، ولكن الحفيظة وشتان رجال الدين والاستعجال لم يسمح بالنظر في أمر الدين والتراث في شأنه كغالب الثوار في أكثر الأعصار والأمصار .

ولم يكن عندهم من صدق الطلب والنصيحة لأنفسهم وأمتهم وسعة الصدر ما يحملهم على النظر في الدين الإسلامي الذي كان يدين به أُمم معاصرة لهم ، الدين الذي يخلصهم من هذه الأزمة و ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحد لهم الطبقات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ (آية ١٥٧ : الأعراف) . ولكن حمية الجاهلية والسدود التي أقامتها الحرب الصليبية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي ودعاية الكهنة ورجال الكنيسة ضد الإسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام ، وعدم تجشم التعب

والمطالعة ، وقلة الحرص على النجاة الأخروية والاهتمام بما بعد الموت ، زد الى ذلك تفريط المسلمين فى التبشير الإسلامى ، ونشر الإسلام فى أوربا ، كل ذلك منعهم من الرجوع الى الدين الإسلامى والأخذ به فى ساعة كانوا يحتاجون إليه حاجة السليم إلى راق والمسموم إلى ترياق .

* اتجاه الغرب إلى المادية *

وعلى كل فقد وقع المحذور وانصرف اتجاه الغرب إلى المادية بكل معانيها ، وبكل ما تتضمنه هذه الكلمة من عقيدة ووجهة نظر ونفسية وعقلية وأخلاق واجتماع وعلم وأدب وسياسة وحكم ، وكان ذلك تدريجياً ، وكان أولاً يبطئ وعلى مهل ، ولكن بقوة وعزيمة ، فقام علماء الفلسفة والعلوم الطبيعية ينظرون فى الكون نظراً مؤسساً على أنه لا خالق ولا مدبر ولا أمر ، وليس هناك قوة وراء الطبيعة والمادة تنصرف فى هذا العالم وتحكم عليه وتدبر شئونه ، وصاروا يفسرون هذا العالم الطبيعى ، ويعللون ظواهره وآثاره بطريق ميكانيكى بحث ، وسموا هذا نظراً علمياً مجرداً وسموا كل بحث وفكر يعتقد بوجود إله ويؤمن به طريقاً تقليدياً لا يقوم عندهم على أساس العلم والحكمة ، واستهزأوا به واتخذوه سخرياً ، ثم انتهى بهم طريقهم الذى اختاروه وبحشهم ونظرهم إلى أنهم جحدوا كل شئ وراء الحركة والمادة ، وأبوا الإيمان بكل ما لا يأتى تحت الحس والاختبار ، ولا يدخل تحت الوزن والعد والمساحة ، فأصبح - بحكم الطبيعة وبطريق اللزوم - الإيمان بالله وبما وراء الطبيعة ، من قبيل المفروضات التى لا يؤيدها العقل ولا يشهد بها العلم .

إنهم لم يجحدوا بالله إلى زمن طويل ، ولم يكاشفوا الدين العداء ، ولم يجحدوا به كلهم ، ولكن منهج التفكير الذى اختاروه ، والموقف الذى اتخذوه فى البحث والنظر لم يكن ليتفق والدين الذى يقوم على الإيمان بالغيب وأساسه الوحي والنبوة ودعوته ولهجه بالحياة الأخروية ، ولا شئ من ذلك يدخل تحت الحس والاختبار ويصدق الوزن والعد والمساحة ، فلم يزالوا يزدادون كل يوم شكاً فى العقائد الدينية .

* افتضاج المادية فى الدور الأخير *

ولكن رجاء النهضة الأوربية ظلوا قروناً يجمعون بين النظر المادى الجاحد والحياة المادية ، والطقوس الدينية المسيحية ، بالتقليد أو بتأثير المحيط الذى لا يزال فى

العالم المصنوعي ، أو بمصالح خلقية واجتماعية كانت تقتضى البقاء ولو بالاسم على نظام ديني يربط بين أفراد الأمة ويحفظها من الفوضى ، حتى اقتضحوا فى الأخير وصعب الجمع بينهما بسرعة سير الحضارة المادية ، وتخلف الدين والتقاليد وعجزها عن مسايرتها وما فى الجمع بينهما من متاعب وضياح للوقت وتكلف هم فى غنى عنه ، فظهر الحشمة ورموا برقع النفاق .

• جهود المادية ودعاتها •

وكان من الكتاب والمؤلفون والأدباء والمعلمون والاجتماعيون والسياسيون فى كل ناحية من نواحي أوربا ينفخون صورا المادية ، وينفثون بأقلامهم سموها فى عقل الجمهور ، ويفسرون الأخلاق تفسيراً مادياً ، تارة ينشرون الفلسفة النفعية ، وطوراً ينادون بالثقة الأبيقورية .

والذين ينادون بالثقة الأبيقورية أمثال ميكيا فيلى الفلورنسى (١٤٦٩ - ١٥٢٧ م) دعوا من قبل الى فصل الدين عن السياسة ، وتقسيم الأخلاق الى شخصية واجتماعية ، وقرروا أن الدين لا يربط بين الناس لا بد منه - قضية شخصية لا ينبغى أن تتدخل فى أمور السياسة والدولة ، وأن الدولة عندهم أعز وأهم من كل شئ ، وأن النصرانية إنما موضوعها الحياة الدنيوية ، وأن المتدينين والصالحين لا يفيد وجودهم الدولة ، وإن كان يفيد الكنيسة . لأنهم يتقيدون بأحكام الدين ، ولأنهم لا يستطيعون أن يحدوا عن أحكام الدين وسياسى الأخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك ، وأن الملوك والأمراء يجب عليهم أن يخلقوا بأخلاق الثعالب ، ولا يحتشموا من نقض العهود والكذب والخيانة والغش والنفاق إذا كان فى ذلك أدنى مصلحة للدولة إلى غير ذلك ، ونجحت هذه الدعوة وساعدتها عوامل كثيرة من الوطنية والقومية التى خلفت الديانة القديمة .

وأحدث الأدباء والمؤلفون وأصحاب البراعة والقريحة والذكاء ، وخصوصاً فى ثورة فرنسا بعدها ، الثورة على الأخلاق القديمة ، والنظم الاجتماعية ، وزينوا للناس الإنم ، ونشروا دعوة الإباحة ، وإطلاق الطباع من كل قيد ، والفرد من كل مسئولية . دعوا إلى التهام الحياة البهيمية ، وإرضاء الشهوات ، وانتهاج المسرات ، واستعمال الطيبات ، وغلوا وأسرفوا فى تقدير قيمة هذه الحياة ووجدوا كل شئ سوى الثقة العاجلة والنفع المادى الظاهر المحسوس .

* نسخة صادقة من الحضارة اليونانية :

فأصبحت الحياة فى أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين نسخة صادقة من الحياة فى يونان وروما الوثنيتين الجاهليتين ، وعادت الطبيعة الأوربية (التى كانت النصرانية الشرقية قد قهرتها) جذعة .

ولا غرابة فى ذلك ، فالأوروبيون إنما ينحدرون من أولئك اليونان والرومان ، والسلائل الأوربية الأخرى ترى ديناً خلواً من الروحانية ، كما لاحظ الدكتور « هاس » فى ذكر الحضارة اليونانية .

وترى رقة الدين وقلة الخشوع والجد فى أعماله ، وكثرة اللهو والطرب فى الحياة ، كما ذكر « ليكى » عن الديانة اليونانية ، وهو نتيجة الوضع الدينى الذى وصلت إليه أوربا ، فإنه لا يتفق والخشوع لله والجد فى عبادته ، ونتيجة تلك النظريات والغايات التى وصل إليها علماء الطبيعة والحكمة فى أوربا وأعلنوها ، تلقاها الجمهور بالقبول وحلت محل الدين .

وترى كذلك تهافتاً على ملذات الحياة تهافت الظمان على الماء والفراس على النار ، والحرص على اقتطاف جنى الحياة وثمارها باليدين ، كما وصف به سقراط الرجل الجمهورى اليونانى فى عصره .

وكذلك ترى شكاً فى الدين واضطراباً فى العقيدة واستخفافاً بالنظام الدينى وطقوسه وتقاليده ، كما رأيت فى روما بعد التنور .

* ديانة أوربا اليوم المادية لا النصرانية :

فمما لا شك فيه أن دين أوربا اليوم الذى يملك عليها القلب والمشاعر ويحكم على الروح هو المادية لا النصرانية كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الأوربية واتصل بالأوروبيين عن كذب لا عن كتب ، بل وعن كتب أيضاً - ولم ينخدع بالمظاهر الدينية التى تزيد فى أبهة الدولة والتى يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوعاً ، ولم ينخدع بزيارتهم للكنائس وحضورهم فى تقاليدها .

وقد بين ذلك فى وضوح وصراحة الأستاذ الألمانى المهتدى محمد أسد السابق ذكره فى كتابه : « الإسلام على مفترق الطرق » قال :

« لا شك أنه لا يزال في الغرب أفراد يعيشون ويفكرون على أسلوب ديني ويبدلون جهدهم في تطبيق عقائدهم بروح حضارتهم ، ولكنهم شواذ . إن الرجل العادي في أوربا ، ديمقراطياً كان أو فاشياً ، رأسمالياً كان أو اشتراكياً ، عاملاً باليد أو رجلاً فكرياً ، إنما يعرف ديناً واحداً ، وهو عبادة الرقي المادي والاعتقاد بأنه لا غاية في الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل ، وبالتعبير الدارج « حرة مطلقة » من قيود الطبيعة ، أما كنائس هذا « الدين » فهي المصانع الضخمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية ودور الرقص ومراكز توليد الكهرباء ، وأما كهنتها فهم رؤساء الصيارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة والطيارون والمبرزون الذين يضربون رقماً قياسيماً ، ونتيجة هذه النهماء للقوة ، والشره للذة ، النتيجة اللازمة ظهور طوائف متنافسة مدججة بالسلاح ، والاستعدادات الحربية ، مستعدة لإبادة بعضها بعضاً إذا تصادمت أهواؤها ومصالحها ، أما في جانب الحضارة فنتيجتها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في القائدة العملية ، والمثل الكامل عنده والفارق بين الخير والشر هو النجاح المادي لا غير (١) . »

« إن الحضارة الغربية لا تجحد الله في شدة وصراحة ، ولكن ليس في نظامها الفكري موضع لله في الحقيقة ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة إليه (٢) . »

ربما يقلل من قيمة هذه الشهادات على مركز الدين في الحياة الأوربية ومدى تأثيره كون صاحبها قد انتقل من النصرانية إلى الإسلام ومن أوربا إلى الشرق الإسلامي ، فها هنا شهادة أصرح منها وأدل على اضمحلال الدين الرسمي في أكبر مراكزه ، واستنكاف أهله من الانتساب إليه لأحد كبار المعلمين في « لندن » وكتاب الإنكليزية البارزين .

(١) Islam At the Cross Roads, P. 50. Fifth Edition .

(٢) Islam At the Cross Rodas. p. 40 .

قال الأستاذ جود (Joad) رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن فى كتابه (Guide to Modern Wickedness) :

« سألت عشرين طالباً وتلميذة كلهم فى أوائل العقد الثانى من أعمارهم : كم منهم مسيحى بأى معنى من معانى الكلمة ، فلم يجب بـ « نعم » إلا ثلاثة فقط ، وقال سبعة منهم : إنهم لم يفكروا فى هذه المسألة أبداً ، أما العشرة الباقية فقد صرحوا أنهم معادون للمسيحية ، أنا أرى أن هذه النسبة بين من يؤمن بالمسيحية ويدين بها وبين من لا يؤمن فى هذه البلاد ليست شاذة ولا غريبة ، نعم إذا وجه هذا السؤال إلى مثل هذه الجماعة قبل خمسين سنة أو عشرين ، كانت الأجوبة مختلفة ، بناء على ذلك الذين يتفقون فى رأى مع (Canon Barry) ويزعمون أن نهضة مسيحية كبيرة يمكن أن تنقذ العالم سيكونون قليلاً جداً ، فإنى لا أرى لرأيه هذا مؤيداً ومبرراً إلا أن يكون ذلك رغبته وهواه ، فإن الأهواء كثيراً ما تخلق الأفكار ، ولكنها لا تولد الشهادات والوثائق ، وإن الأحوال والآثار فى هذه البلاد لتدل على أن الكنيسة النصرانية ستموت فى القرن الآتى ، وإليك ما يؤيد هذا الرأى نقلاً من صحيفة يومية :

اخترع رجل فى السابعة والسبعين من عمره طريقة تحول بها نسخ الكتاب المقدس العتيقة إلى حشو البنادق والحرير الصناعى والدائن وأوراق النقد الثمينة ، وإن آله قد نصبت فى (Cardiff Factory) وفى ثمانية مصانع أخرى وتصنع بنسخ التوراة القديمة أسلحة حربية وقد استثمر المخترع بالآلة ثروة عظيمة بعد ما عاش فى ضنك من العيش .

ويختم الأستاذ مقالته هذه بجملة من التوراة - ولا أجمل منها - لمخاطبة القسوس ورجال الدين أمثال (كينين بيرى) وغيره « فليسمع من له أذنان (١) » .

Guide to Modern Wickedness P. 114-115. (١)

ويقول هذا المؤلف فى كتابه الثانى (Philosophy for our Times)

« لم يزل سائداً على عقلية انكلترا منذ قرون شره المال والتملك ، وكانت رغبة نيل الثروة أقوى عامل فى حياة البلاد وأكبر باعث على العمل ، لأن الثروة وسيلة للتملك ، وضخامته ووفرته مقياس لكفاءة الإنسان ، ولم يزل الناس يتلقون من طرق السياسة والأدب والتمثيل والسينما والإذاعة اللاسلكية ، وفى بعض الأحيان من منابر الكنائس فى ظل عام وشهر - التحريضات على جمع المال واقتنائه والإقناع بأن الأمة المتقدمة هى التى ارتقت فيها عاطفة الشره والتملك .

إن هذه العبادة للمال تناقض عقائدنا الدينية ، لأن الدين يمدح الفقر ويذم الغنى ، ويقول : إن الفقير أقدر على الصلاح من الغنى ، ومع أن الحكمة والنعيم الدينى متفقان على أن الفقر أوفق لعبادة الله ودخول الجنة ، ولكن الناس لم يرغبوا إلى تصديق الدين فى ذلك والعمل بأحكامه ، ولم يزالوا يؤثرون الثروة الحاضرة على نعيم الجنة الموعود ، لعلمهم يظنون أنهم إذا تابوا فى آخر عهدهم بالدنيا فإنهم يحرزون حسنى الآخرة ، كما ظفروا بحسنى الدنيا بأموالهم المودعة فى المصارف .

وقد أعرب عن فكرتهم هذه (Sammuel Butler) فى كتابه بقوله : « إن بعض المؤلفين يقولون : إنا لا نستطيع أن نجتمع بين عبادة الله وعبادة المال ، وأنا أسلم أن الأمر ليس بميسور ، ولكن متى تكون المهمات فى الدنيا ميسورة سهلة ؟

فمهما اختلفنا فى المبادئ فإن الحقيقة الراهنة أن كلنا راسخ فى تقليد بتلر واتباعه ، فنحن مشغوفون بحب المال ، وعقيدتنا أن الثروة هى المقياس الصحيح لعظمة الفرد والحكومة ، وكانت سبباً لظهور مبدئين لهام الأهمية التاريخية الكبرى .

أحدهما : مبدأ عدم التدخل الاقتصادى الذى كان سائداً على القرن التاسع عشر ، ويدعى أصحاب هذا المبدأ أن الإنسان يبنى عمله على أعظم نفع يجلبه ، وأن ليس الباعث على الأعمال الالتذاذ بالعواطف القلبية بل الالتذاذ بالثروة .

والمبدأ الثانى الذى يسود القرن العشرين : هو مبدأ التنظيم الاقتصادى المنسوب الى ماركس ، ويقوم هذا المبدأ على أن نظام الإنسان الاقتصادى إنما يتأسس على حوائج الإنسان المالية ، وهذا النظام هو الذى يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحكومة ، ولم يكن هذان المبدآن لينالا القبول الذى نالاه لولا شغف الناس فى بلادنا بالمال والاهتمام الزائد به .

ويقول في مكان آخر من هذا الكتاب :

« إن نظرية الحياة التي تسود على هذا العصر وتحكم عليه : هي النظر في كل مسألة وشأن من ناحية المعدة والجيب . (stomach and pocket view of life)

وقد أجاد الصحفي الأمريكي المشهور (Jhon Gunther) تمثيل هذه النفسية في كتابه في « داخل أوروبا » (Inside Europe) بقوله :

« إن الإنجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا (Bank of England) ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة » .

* مظاهر الطبيعة المادية في أوروبا *

إن هؤلاء الذين لا يؤمنون بحياة أخرى ولا يعتقدون وراء اللذة والتمتع بالحياة والعلو في الأرض غاية عليا ، ولا يذكرون الله إلا نادراً ، ولا يرجون له وقاراً ، كيف يرجي منهم أن يتضرعوا إلى الله إذا مسهم الضر ، ويخبتوا إليه وينيبوا إذا دهمهم الخطر كما ذكر الله عن المشركين الذين كانوا يؤمنون بالله : ﴿ وإذا غشيهم موج كظلل دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذا لنكونن من الشاكرين ﴾ (١) ولكن هؤلاء - يامعانهم في المادية والتمسك بالأسباب الظاهرة والتعلل بها واستغنائهم عن الله - قد وصلوا من القسوة والغفلة إلى حيث صدق عليهم قول الله : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ (٢) وقوله عز وجل : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ (٣) فلا تكاد تشعر في خطب الزعماء والوزراء في أوروبا برقة قلب وانكساره وإخبات إلى الله في أدهى ساعات الحرب وأمرها ، ولا تشاهد شيئاً من ذلك في أخلاق الشعب وأعماله وأفراحه ، وبعد ذلك مفكرو الغرب وأدباؤه من باب التجلد وقوة القلب وإباء الضيم ، وقد افتخر أحد زعماء الإنجليز وكبار رجال السياسة في البرلمان الإنجليزي بأن رجال الشعب الإنجليزي لم يستسلموا للحوادث والنوازل ، واستشهد على ذلك بأن المشتغلين بالرقص واللهو في سنغافورة لم يتحولوا عن مكانهم ولم يؤخروا أدوار الرقص والغناء ، وطيارات اليابان تمطر المدينة شأبيب القنابل . ويحكى هندي عن سهرة شهداها قال : « بينما نحن في الرقص إذ سمعنا الإنذار بالغارة الجوية فساد الهدوء في المكان ، ثم قال أحد أصحاب المجلس :

(١) آية ٣٢ لقمان . (٢) آية ٤٢ الأنعام . (٣) آية ٧٦ المؤمنون .

ماذا ترون ؟ هل يستمر الرقص أم يؤخر ؟ فأجابت فتاة : بل نستمر راقصين ، وهكذا كان ، ودوت الحارة فضلاً عن النادى الذى كنا فيه بالأغاني (١) . ويقول : « من العادات اليومية أنه يعلن فى السينما : تبدأ الغارة الجوية ولكن يستمر هذا الفصل ومن أراد أن يذهب إلى الخبأ فطريقه أسفل إلى اليسار ، ولكن الناس يستمرون جلوساً ولا أحد يرح من مكانه ويبدأ الفصل (٢) » ويقول كاتب إنجليزى تعليقاً على صورة نشرت فى (Statesman) الصحيفة الإنجليزية اليومية الكبرى فى الهند فى ٢٤ من يناير ١٩٤٢ م : « من الغريب أن أجمل التمثيليات إنما ظهرت أيام الحروب الكبرى فى التاريخ ، كذلك الشأن فى بريطانيا اليوم فالناظر يرى الملاهى والسينما والتمثيليات والصور ما لم يكن يرى أجمل وأبدع منها قبل الحرب ، والمتفرج يجد فى ملاهى لندن كل ما يسليه ويرضى ذوقه » ، وفى عدد آخر من هذه الجريدة الصادر فى ١٥ من ديسمبر ١٩٤٣ م « إن صناعة الأفلام فى « لندن » و « لشبونة » و « موسكو » إلى تقدم وفى إزدهار » ، ولا تجد مثلاً لهذا التجلد والعكوف على اللذة واللهو فى أشد ساعات الحرج وفى آخر ساعات العمر إلا فى يونان وروما فى العهد القديم .

وقد روى مراسل روتر كيف استقبل المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية العام المقبل وودع العام الراحل وذلك فى يوم عصيب من أيام الحرب يلجأ فيه الإنسان الى الله ويفيق السكران ويخشع القاسى ، وإليك نص البرقية :

« واشنطن ، اليوم الأول من يناير (عام ١٩٤٢ م) البارحة لما كان العام الجديد يلتقى بالعام المنصرم وكان المستر تشرشل رئيس الوزراء مسافراً من كندا إلى الولايات المتحدة فى قطار رسمى خرج رئيس الوزراء مستصحباً سير شارليس بورتل بغتة ودخل مطعم القطار والسيجار فى فمه وكأس شمبانية فى يده ، وتعجب ممثلو الصحف الذين كانوا سائرين معه ، تناول المستر تشرشل الكأس مبتسماً وقال : « باسم عام ١٩٤١ م ذلك العام القائد إلى الاجتهاد والتعب والفتح » فى ذلك الوقت لفظ العام الراحل نفسه الأخير ، وتنفس العام الجديد ، وأعلنت الساعة بوفوده . وهنا الصحفيون ورؤساء القطار المستمر تشرشل ، وأخذ رئيس الوزراء يد سير شاليس

(١) الغارات الجوية : أشرف الدهلوى ص ٧١.

(٢) أيضاً ص ٧٠.

بورتل بيد. وأخذ يد كاربورل هارنر بيده الأخرى ، وأخذ كل واحد بيد الآخر ، وبدأوا يغنون في رقصة وانطلق المستر تشرشل إلى الباب وقال :
ليهنكم جميعاً ورزقنا الله الفتح ، وجعلت الجماعة تغني في حدة وتصفيق ، وخط رئيس الوزراء حرف V وانصرف إلى عربته سعيداً مسروراً .

قارن هذه الطبيعة المادية بالنفسية الدينية وتعاليم الدين وعمل المتدينين وسيرتهم في الحروب والأخطار ففي القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، وفي سيرة ابن هشام في وقعة بدر الكبرى قال ابن اسحاق : ثم عدل رسول الله ﷺ الصفوف ورجع إلى العرش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ليس معه غيره ، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد .

والمادية لأسباب حتمية طبيعية وتاريخية وعلمية قد أصبحت شعرا الحضارة الغربية والحياة الغربية منذ عهد عريق في التاريخ ، ولم تزدها النشأة الجديدة والنهضة العلمية والسياسية في أوربا إلا حدة وقوة ، وقد لاحظ هذا الامتياز كثير من علماء الغرب والشرق ، فمن علماء الشرق الأستاذ الأملعي الرحالة ذو النظر الثاقب عبدالرحمن الكواكبي في مستهل هذا القرن فقد قال في كتاب « طبائع الاستبداد »:

« الغربي مادي الحياة ، قوى النفس شديد المعاملة ، حريص على الاستثثار حريص على الانتقام ، كأنه لم يبق عنده شيء من المبادئ العالية والعواطف الشريفة التي نقلتها له مسيحية الشرق ، فالجرماني مثلاً جاف الطبع يرى أن العضو الضعيف الحياة من البشر يستحق الموت ، ويرى كل الفضيلة في القوة وكل القوة في المال ، فهو يحب العلم ولكن لأجل المال ويحب المجد ولكن لأجل المال ، واللاتيني منه مطبوع على العجب والطيش ، يرى العقل في الانطلاق ، والحياة في خلع الحياء ، والشرف في الزينة واللباس ، والعز في التغلب على الناس » .

وهذا تصوير صادق للطبيعة الأوربية وتحليل صحيح للنفسية الغربية ، ولا نظن المرحوم الكواكبي قد تحامى الكلام على غير الجنسيتين الألماني واللاتيني إلا تفادياً من الوقوع في العنت ، فجعل الألماني واللاتيني مثلاً لسائر الأوربيين .

*** الغايات المادية للحركات الروحية العلمية ***

وترى هذا الروح المادى فى جميع نظم أوروبا السياسية والاجتماعية والخلقية التى ابتكرتها أو جددها شعوبها لهذا العهد ، حتى إن الحركة الروحية التى شغلت الناس كثيراً فى أوروبا فى الزمن الأخير إنما روحها المادية ، فقد أصبحت صناعة وفناً كسائر الصناعات والفنون فى أوروبا ، غايتها مشاهدة عجائب إقليم الروح والاطلاع على أسرارها والتحدث إلى أرواح الموتى وترويح النفس والتلهى ، وليست من تركية النفس وتصفية القلب والخشوع لله والعمل الصالح والاستعداد للموت والصبر على مكاره الحياة وهضم النفس فى شئ ، خلافاً للحركة الروحية والتصوف فى الشرق الإسلامى .

كذلك الأعمال التى يضحى فيها الناس بنفوسهم وأرواحهم فى الغرب إنما ترجع فى الغالب إلى غايات مادية كحسن الأحدث و انتشار الصيت و خلود الذكر فى التاريخ والتبريز على الناس وأن يتمجد به شعبه ويفتخر ويتشرف به وطنه ويغبط خلافاً للأعمال التى يبتغى بها وجه الله ، فالمسلم يخاف أن يشرب عمله شئ من الرياء والسمعة فيحبطه ويسمع قول الله تعالى : ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ؟ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صَنِيعاً ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنّاً ﴾ (١) وقوله عز وجل : ﴿ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتٍ إِلَى نُورٍ ﴾ (٢) وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل رياء : أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » (٣) . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : « اللهم اجعل عملى كله صالحاً واجعله كله لوجهك خالصاً ولا تجعل لغيرك فيه شيئاً » ، واجتهاد الصالحين من هذه الأمة فى إخفاء عبادتهم وصدقاتهم معروف فى كتب التاريخ والسير .

*** التصوف المادى الغربى ووحدة الوجود الاقتصادية ***

وقد بلغ النظر المادى والفكر المادى فى أوروبا درجة الاستغراق فيه والفتاء ونسيان ما سوى القيم المادية ، ولنضرب بذلك مثلاً بكارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣ م مؤسس الفلسفة الشيوعية .

(١) آية ١٠٣ : الكهف . (٢) آية ٢٣ : الفرقان .

(٣) رواه البخاري - العلم رقم ١٢٣ ، ومسلم - الإمارة رقم ١٥٠ ، وابن ماجه - الجهاد رقم ٢٧٨٣ .

يرى كارل ماركس أن النظام الاقتصادي هو روح الاجتماع وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادي ، هو يقول : إن في كل عصر وفي كل دور من أدوار التاريخ طريقة خاصة للإنتاج الصناعي وعلى وفقها تتعين العلاقات الاجتماعية ، ولكن بعد قليل لا تبقى هذه العلاقات الاجتماعية متوافقة متناسبة مع طرق الإنتاج ويجتهد بعض الناس لتشكيل هذه العلائق تشكيلاً جديداً ، وهذه هي التي تعرف في التاريخ بالانقلابات والثورات ، والمؤرخ يجهد ماهيته ولكن لا غرابة في ذلك ، فإن الذين يشتركون في هذه الثورات قد لا يشعرون أنفسهم بالغاية التي يقاتلون لأجلها ، ولكن يمكن لنا أن نحل هذه الألغاز ونعلم أن الارتقاء السياسي والتعديلات والتحسينات في النظم السياسية وما يطرأ عليها من التغيير والتطور ليست إلا صوراً جديدة للعلائق الاجتماعية تظهر لتجعل هذه العلائق متناسبة متوافقة بطرق الإنتاج الجديدة من جديد ، ولما كان الاختلاف بين طرق الإنتاج الصناعي والعلائق الاجتماعية التي تقوم عليها مستمراً فيكون الجهد لتطبيقها مستمراً أيضاً ، وإذا تجاوز الاختلاف واشتد ظهر في شكل ثورة ، ولكن لا ينبغي لنا - إذا لم تكن الاختلافات واضحة - أن ننفي وجودها وننكرها ، والاختلاف بين مناهج الإنتاج الصناعي والوشائج الاجتماعية يظهر في حرب الطبقات ، لأن جميع طبقات الاجتماع إنما هي أجزاء النظام الاقتصادي ، ويستنتج من ذلك كارل ماركس أن التاريخ البشري غير العهد الذي كانت الحياة البشرية في طفولتها ليس إلا قصة حرب الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وهكذا جحد الرجل جميع نواحي البشرية غير الناحية الاقتصادية ولم يعر غيرها شيئاً من العناية ، ولم يقدّر للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزناً وقيمة ، ولم يعترف أن أحداً منها كان عاملاً من عوامل التاريخ ، وأن جميع الحروب والثورات في التاريخ لم يكن إلا ثأراً لبطن من بطن ، وجهاداً في سبيل تنظيم جديد للنظام الاقتصادي وطرق الإنتاج الصناعي ، وحتى الحروب الدينية لم تكن عنده إلا حرب الطبقات الاقتصادية استأثرت إحداها بموارد الثروة ووسائلها وطرق الإنتاج ، واجتهدت الأخرى في أن تنافسها وتتناول قسطها أو أن تنظمها من جديد فوكت الحرب ، ويجب أن تكون كذلك في رأي « بدر » و « أحد » و « الأحزاب » و « القادسية » و « البرموك » ، ووقائع ومعارك حفظها التاريخ .

فهذا هو - كما ترى - التصوف المادى الغربى ، وهذه هى فلسفة وحدة الوجود وحدة ، وجود الاقتصاد ، ولما كان الشرقيون إنما يغلبهم الروح الدينى والتأله نفى المتألهون منهم والمغلوبون وجود كل شىء سوى الله ، وهتفوا فى سكرهم وغلبة الحال عليهم : لا موجود إلا الله ، ولما كان المفكرون الأوربيون إنما تغلبهم المادية نفوا وجود كل شىء سوى الناحية الاقتصادية وهتفوا : لا موجود إلا البطن والمعدة ، إن صوفية الشرق كانوا يرون الإنسان ظلاً ربانياً ، أما الماديون فى الغرب فلا يرونه إلا وجوداً بهيمياً حيوانياً .

* نظرية دارون وتأثيرها فى الإنكار والمضارة .

وساعدهم فى وجهة نظرهم هذه فى جميع مسائل الإنسان وزاد الطين بلة ، النظرية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر عن ارتقاء الإنسان ، وكونه حيواناً مترقياً عما دونه من الحيوانات ، لم يزل يجتاز بمرحلة بعد مرحلة فى رحلته النوعية التى استغرقت ألوفاً من السنين ولم يزل ينتقل من طور حيوان إلى طور آخر ، من أميبا (Amoeba) إلى قرد ومن قرد إلى إنسان حتى بلغ كماله النوعى ، وزعيم هذه النظرية وبطلها دارون الذى ظهر كتابه أصل الأنواع (Origin of species) سنة ١٨٥٩م فكان حديث النوادى والجامع والمدارس وشغل الناس الشاغل ، وكانت هذه النظرية اتجاهاً جديداً لم يسبق فى المسائل البشرية وما يتعلق بها ، تقلب تيار الفكر وتصرف نظر الإنسان فى الاستعلام والاستهداء فى مسائله وفى تاريخه من الإنسان إلى الحيوان ، وتجعله يعتقد أن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية ، وبغير أن تتداخل فيه قوة غير طبيعية ، وأن لا علة فى الكون سوى السنن الطبيعية ، وأن الموجودات ترتقى من مراتب الحياة الأولى إلى مراتبها العليا بعمل فطرى تدريجى عار من العقل والحكمة ، وأن الإنسان وسائر أنواع الحيوان ليس من صنع صانع حكيم بل هو نتيجة نواميس طبيعية انتهى بها التنازع للبقاء وناموس بقاء الأصلح والانتخاب الطبيعى الذى هو سائر فى الكون إلى إنسان ناطق ذى شعور .

إن مناقضة هذه النظرية للدين والعقل فى المبادئ والغايات والنتائج الفكرية والخلقية وآثارها العملية واضحة ، بل كان هذا ديناً جديداً يهدم الدين القديم من الأساس ويحل محله فلا غرابة إذا اضطرب لها رجال الدين وحسبوا لها كل حساب ، وخافوا على مصير الدين فى أوروبا .

يقول الأستاذ جود في كتابه :

« يصعب علينا الآن أن ندرك تلك الدهشة والاستغراب الذي فاجأ أجدادنا عندما ظهر كتاب أصل الأنواع لدارون ، وعندما جاءت النتائج أن دارون أثبت - أو يظن أنه أثبت - أن عمل ارتقاء الحياة على هذا الكوكب (الأرض) لم يزل مستمراً متوصلاً من ظهور الأميبا (Amoeba) وفرخ البحر (Jelly Fish) في أشكاله الأولى إلى أشكاله النهائية العليا وهي أرقى أشكال الحياة وأعلاها ، فلم يزل عمل الارتقاء من الأميبا إلى طورنا متوصلاً غير منقطع » .

« بالعكس من ذلك إن الذين عاشوا في عصر فكتوريا إنما أرشدوا أن الإنسان خلق مستقل ، وهو في الحقيقة نوع من ملك منحط ، أما إذا كان دارون مصيباً فالإنسان لم يكن إلا قرداً راقياً ، فعز على أهل عصر فكتوريا أن يكون الإنسان قرداً راقياً بدل أن يكون ملكاً منحطاً ، وما طابت لهم هذه النظرية واجتهدوا أن يخلصوا الإنسان من هذه السبة التي لحقتهم من هذه العقيدة في الإنسان واقترحوا لذلك اقتراحات (١) » .

* إقبال الجمهور على نظرية الارتقاء ،

ولكن الجمهور والدهماء من الناس تلقوا هذه النظرية بالقبول - رغم ما فيها من ضعف ونقص من الوجهة العلمية - فهموها أو لم يفهموها - كأذن الأذهان كانت متهيئة لمثل هذه النظرية ، وكأن الناس وجدوا فيها منافساً للدين ورجاله وصعب على رجال الدين أن يعارضوا هذا التيار الجارف من أفكار الناس وأذواقهم والسييل العرم من المنشورات والمحاضرات ، فوضعت الكنيسة أوزارها في هذه الحرب حتى إذا مات دارون سنة ١٨٨٣م منحته الكنيسة الإنجليزية أكبر شرف تمنحه لإنسان ، وذلك بأنها أذنت بدفنه في ويست منسرايبي محل دفن الرجال الدينيين .

(١) Guide to Modern Wickedness p. 2,5-236.

وكان تأثير هذه النظرية بعيداً عميقاً فى الأفكار والحضارة والأدب والسياسة تراه وتلمسه فى أخلاق الناس ، وفى نزعات الرجوع إلى الفطرة وإلى العهد الذى كان الإنسان يعيش فيه على الفطرة عارياً حراً ، وفى تعيين المثل الكامل للإنسان وفى جميع الأعمال والأخلاق التى لا تصدر إلا على تسليم أن الإنسان إنما هو حيوان راق ، وفى فساد الحياة المنزلية الذى يعبر عنه المستر شبرد أحد علماء الإنجليز بقوله : « لقد ظهر فى إنجلترا جيل من الناس يجهل الحياة المنزلية جهلاً باتاً ، ولا يعرف غير حياة القطعان والبهائم » .

* من جنائيات المادية .

وكان من نتائج هذه المادية الجارفة ، والتربية اللادينية التى ليس فيها نصيب للأخلاق ومخافة الله عزوجل والإيمان بالآخرة أن أصحاب المراكز الكبيرة ، ورجال السياسة والمسئولية يرتكبون فى بعض الأحيان جنائيات لا ينتزل إليها أكبر الأثمين ، وذلك لمصلحة سياسية وهمية لبلادهم وأمتهم أو لجاه شخصى أو ربح مالى ، فمن أغرب ما روى فى تاريخ البشر من القسوة والظلم ، أن الإنجليز قد أوقعوا فى بنغال (الهند) مجاعة مزورة غير طبيعية ، لأنهم منعوا استعمال القوارب التى يحصد الناس عليها مزارع الأرز - وهو غذاء بنغال - واحتكروا الحبوب فى مقدار عظيم للجند - ولم يمكنوا الناس منها حتى فسدت وضاعت ، ومات مئات الألوف من الناس جوعاً والحبوب وفيرة فى البلاد ، والمواصلات ميسورة ، والقطر غادية رائحة ، والهند بلاد مخصبة تستطيع أن تغذى بلاداً أخرى ، وذلك كله لما توقعوه من إقبال الناس على التجنيد ، وليبرهنوا على فشل الحكم الذاتى فى إدارة البلاد .

وقد تغافل لورد ماونت بيتن حاكم الهند العام سنة ١٩٤٧ عما يدبر من الفتك بالمسلمين فى دلهى وبنجاب الشرقية ، فقد اتصلت به أنباء المؤامرات والخطط التى كانت تبني ضد العنصر الإسلامى فى هذه المنطقة ، وأنذره الخبراء بوقوع اضطراب طائفى هائل ، فنام على كل ذلك انتقاماً من أن المسلمين لم ينتخبوه حاكماً عاماً لباكستان كما فعل أهل الهند ، ولتكون هذه الاضطرابات الطائفية ، والحروب الأهلية حجة على عدم أهلية أهل البلاد للاستقلال ، وكونهم عيالاً على الإنجليز فى الأمن والنظام ، فكان نتيجة ذلك ، تلك المجزرة البشرية الهائلة التى عقرت القرون أن تلد مثلها .

ومن ذلك أن « ريدكلف » الذى اختاره الفريقان الهنديان حكماً فى مسألة بعض مدن بنجاب هل تنضم إلى هندوستان ، أو إلى باكستان حكم حكماً جائراً ، فكان نتيجة ذلك جلاء المسلمين من فيرزوبور ، وكورداسبور ، ومتاعب عظيمة ، وخسائر كبيرة فى النفوس والأموال .

أما تأييد ترومان للصهيونية ، ودولة إسرائيل فى فلسطين ، ومعارضته للقضية العربية التى لا غبار عليها ، لأجل أن يكسب ود اليهود ويتمتع بنفوذهم السياسى والمالى والصحافى ، وليكسب انتخابه ، وتعاميه عن براهين الدول العربية الساطعة ، وسكوت أمريكا على فظائع فرنسا فى الجزائر ، ووقوفها بجوار هذه الدولة الجائرة فى قضية الجزائر العربية الإسلامية ، وتعاونها على الإثم والعدوان ، فقضية تنبىء عن ضعف أخلاق العظماء فى أوروبا وأمريكا ، ودوران الحياة السياسية على الفوائد لا المبادئ .



الفصل الثامن

الجنسية والوطنية في أوروبا

* انكسار الكنيسة اللاتينية بسبب قوة العصبية والقومية والوطنية :

قدمنا أن الوطنية والقومية والاعتداد الشديد بالشعب والموقع الجغرافي من خصائص الطبع الأوربي الذي سرى في العنصر الأوربي مسرى الروح ، وجرى منه مجرى الدم وأصبح طبيعة ثانية له ، ولكن النصرانية قهرت هذه الطبيعة ، لأنها - على علالاتها ، وبرغم ما طرأ عليها من التحريف والتبدل - لا يزال عليها مسحة من تعليم المسيح ، وفيها أثارة من علمه ، والدين السماوى مهما تحرف وتغير لا يعرف الفرق المصطنعة بين الإنسان والإنسان ، ولا يفرق بين الأجناس والألوان والأوطان ، فجمعت النصرانية الأمم الأوربية تحت لواء الدين وجعلت من العالم النصرانى عشيرة واحدة ، وأخضعت الشعوب الكثيرة للكنيسة اللاتينية فغلبت العصبية القومية والنصرة الوطنية ، وشغلت الأمم عنها لمدة طويلة ، ولكن لما قام لوثر سنة ١٤٨٣-١٥٢٦م بحركته الدينية الإصلاحية الشهيرة ضد الكنيسة اللاتينية ، ورأى من مصلحة مهمته أن يستعين بالألمان جنسه ونجح في عمله نجاحاً لا يستهان بقدره ، وانهمزت الكنيسة اللاتينية في عاقبة الأمر فانفرط عقدتها ، استقلت الأمم ، وأصبحت لا تربطها رابطة ، ولم تزل كل يوم تزداد استقلالاً فى شؤونها وتشتتاً ، حتى إذا اضمحلت النصرانية نفسها فى أوربا قويت العصبية القومية والوطنية ، وكان الدين والقومية ككفتى ميزان كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى ، ومعلوم أن كفة الدين لم تزل تخف كل يوم ، ولم تزل كفة منافسته راجحة ، وقد أشار إلى هذه الحقيقة التاريخية الفاضل الإنجليزي المعروف لورد لوثن Lord Lothian السفير البريطانى السابق فى أمريكا فى خطبته التى ألقاها فى حفلة جامعة عليكرة فى يناير سنة ١٩٣٨م .

« لما قضت حركة لوثر التى تدعى حركة إصلاح الدين على وحدة أوربا الثقافية والدينية ، انقسمت هذه القارة فى إمارات شعبية مختلفة ، أصبحت منازلها ومنافساتها خطراً خالداً على أمن العالم » .

وكان نتيجة الانحطاط الدينى ، وانخفاض مبادئ الدين والأخلاق ، رجحان كفة الوطنية والجنسية ، يقول « لورد لوثن » فى نفس هذه الخطبة .

« إن الدين الذى هو المرشد اللازم للإنسان والوسيلة الوحيدة لحصول الغاية الخلقية ، والشرف المعنوى للحياة البشرية ، كان نتيجة الانحطاط فى سلطانه أن فتن العالم الغربى بمذاهب سياسية تقوم على أساس اختلاف الأجناس والطبقات وآمن - بتأثير العلوم الطبيعية - أن الرقى المادى هو الغاية العليا ، والوطر الأكبر ، ولا يزال يزيد هذا الأمر فى مشاكل الحياة وأثقالها وتكاليفها ، وكان من نتائج ذلك أيضاً أنه صعب على أوروبا أن توفق بين روحها وحياتها توفيقاً ينقذها من القومية ، داهية هذا العصر الكبرى (١) » .

* طوائف العصبية الجنسية فى أوروبا *

كان نتيجة انحلال النظام الدينى وانتعاش النعرة القومية أولاً ، أن أصبحت أوروبا معسكراً واحداً ضد الشرق كله ، وخطت خطاً فاصلاً بين الغرب والشرق أو بين أوروبا وبين سواها من القارات والأقاليم ، والجنس الآرى وبين ما عداه من أجناس البشر ، يعد أن كل ما دون هذا الخط له الفضل على كل ما وراءه من نسل وشعب وثقافة وحضارة وعلم وأدب ، وأن الأول خلق ليسود ويحكم ، والثانى ليخضع ويدين ، والأول ليقبى ويزدهر ، والثانى ليموت ويضمحل ، وهذا بعينه ما امتاز به اليونان والروم فى عهدهم ، فقد كانوا لا يعدون مهذبين إلا أنفسهم فقط ، وكانوا يسمون كل شئ غريباً ، خصوصاً كل ما كان واقعاً فى شرق المحيط الأطلانتيكى بربرياً .

وكان نتيجة هذه النفسية الجنسية والعصبية ضد كل ما جاء من الخارج ويعزى إلى أجنبى ، أن صار بعض الشعوب الأوربية ينظر إلى الدين المسيحى وإلى المسيح كطارئ ونزيل يريدون أن ينفوه من بلادهم ويتبرأوا منه ، يمثل ذلك ما قال أحد المعلمين فى ألمانية وهو البروفسور أترنى :

« لأى شئ يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية ، ولماذا يقص عليهم قصص إبراهيم وإسحق ؟ ينبغى أن يكون إلهاً أيضاً ألمانياً » .

(١) Convocation Address of Lord Lothian at Muslim University
Aligarh

ونشأت في ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لكونه من بني إسرائيل ، والذين لا يزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية ، وظهرت في ألمانية نزعة إلى إحياء الآلهة القومية القديمة التي كان يعبدها الشعب الألماني في عهده القديم .

وليست روسيا العالمية بأقل حماسة للعصبية الجنسية والوطنية من منافسها القديم ألمانيا .

فيعتقد الناس في روسيا أن أغلب الاختراعات الكبرى في العصر الحديث إنما يرجع الفضل فيها إلى الروس .

فليس « لافوازيه » هو واضع القانون الخاص بتركيب الأجسام ، بل هو مدين بما ينسب إليه للعالم الروسي « ميشيل لوموتوسوف » وليس « لأديسون » فضل في استخدام الكهرباء في الإضاءة فقد سبقه « لوجين » الروسي بست سنوات إلى غير ذلك ، ونشرت جريدة برافدا: أن العلماء الروسين توصلوا إلى اختراع التلغراف قبل « مورس » وإلى تسيير القاطرة البخارية قبل « ستفنسن » إلى غير ذلك من تحديات للتاريخ ليس الباعث عليها إلا العصبية الجنسية وتقديس « روسيا » .

* عدوى الجنسية في الأقطار الإسلامية :

وما يدعو إلى الأسف والاضطراب ، أن هذه العدوى الجنسية قد سرت إلى بعض الأقطار الإسلامية التي كان يجب وكان من المترقب أن تكون زعيمة لدعوة الإسلام العالمية ، حاملة في عصرها لرسالة الأمن والسلام ، وأن تكون جبهة قوية ضد الجنسية والوطنية ، وذلك بانحلال الدين في هذه البلاد ، وبتأثير الآداب الأوربية والحضارة الغربية ، فترى في الترك النزعة الطورانية والدعوة إلى إحياء جاهليتها القديمة وآدابها وثقافتها ، والنظرة إلى الدين الإسلامي الذي انتشر على أيدي العرب وشرعية الإسلام وثقافته ولغته نظرة شبه نظرة ألمانيا الجديدة إلى الأديان التي جاء بها الأنبياء من غير النسل الآري والآداب السامية وثقافتها ، فاعتقد بعض المفكرين في تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارئ غريب لا يصلح للترك ، وأن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنيتهم الأولى قبل أن اعتنق آباؤهم الدين الإسلامي ، تقول الكاتبة خالدة أديب هانم عن « ضياء كوك ألب » من كبار مؤسسي تركيا الجديدة أدباً وتهدياً

« كان ضياء كوك ألب يريد أن ينشئ تركيا جديدة تكون صلة بين الأتراك العثمانيين وبين أسلافهم الطورانيين ، فقد كان يريد أن يقوم بإصلاح مدنى بواسطة المعلومات التى جمعها عن التنظيمات السياسية والمدنية فى عهد الأتراك قبل الإسلام، كان ضياء يعتقد ويؤمن بأن الإسلام الذى وضعه العرب لا يصلح لشأننا ، ولا بد لنا من إصلاح دينى يوافق طبائعنا إذا لم نرجع إلى عهدنا الجاهلى (١) » .

ومما لا شك فيه أن هذه النزعة قد وجدت فى الترك وكذلك فى الإيرانيين فى الزمن الأخير :

قال المرحوم الأمير « شكيب أرسلان » وهو الخبير الثقة فيما يتعلق بالترك فضلاً عن العرب لطول مكثه فى تركيا وكان عضواً فى مجلس الأمة :

« وهناك فئة ثانية تدعى الفئة الطورانية تخالف الفئة الأولى - أى الفئة التى تقول بالقومية العثمانية الإسلامية - فى كل هذه النظريات ، وأشهر دعائها ضياء كوك ألب وأحمد أغاثف ، ويوسف أقشورا اللذان قدما من روسيا ، وجلال ساهر ، ويحيى كمال ، وحمد الله صبحى رئيس وجاه « تورك بوردى » ، ومحمد أمين بك الشاعر الملى ، وكثير من الأدباء والمفكرين ، وأكثر الطلبة والنشء الجديد . وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة وأعرقها مجداً ، وأسبقها إلى الحضارة ، وأنهم هم والجنس المغولى واحد فى الأصل ، ويلزم أن يعودوا واحداً ، ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية ، ولم يتقصروا منها على الترك الذين فى سيبيريا وتركستان الصين وفارس والقوقاس والأناضول والروملى ، بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول فى الصين ، وإلى المجر والفنلانديين فى أوربا ، وكل ما يقال إنه ينتمى إلى أصل طورانى ، وهم يقولون بخلاف ما يقول الأولون ، فهم ترك أولاً ومسلمون ثانياً ، وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية ، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية ، فتكون عندئذ واسطة لا غاية ، وقد غلا كثير من هذه الفئة فى الطورانية حتى قالوا : نحن أتراك فكعبتنا طوران ، وهم يتغنون بمدائح جنكيز ، ويعجبون بفتوحات المغول ، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم ، وينظمون الأناشيد للأحداث فى وصف الوقائع الجنكيزية لطبعوهم على الإعجاب بها ويرقوا

(١) محاضرات « خالدة أديب هانم » فى الجامعة الملية بدلهى .

مستوى نفوسهم بزعمهم (١) « وقال أيضاً :

« هذا ولما كان هذا العصر عصر القوميات كما لا يخفى اقتداء بالأُمم الأوربية فى الزمن الأخير كانت القومية الفارسية قد أخذت تشتد أكثر من ذى قبل ، وذلك نظير ما حصل عند الترك ، وصار كثير من ناشئة الفرس يبحثون عن دين فارس القديم ، وذلك نظير ناشئة الترك الذين أخذوا يبحثون عن عبادات أجدادهم وعن الذئب الأبيض الذى كانوا يعبدونه ، حتى صوروه فى بعض كتبهم الحديثة ، وقال لهم المرحوم (موسى كاظم) شيخ الإسلام - وهو الذى أخبرنى بذلك - : إن العرب كانت عندهم عبادات كهذه تقشعر منها الأبدان ، ولكنهم اقتلعوها بالإسلام وافتخروا بأن الله لطف بهم وأنقذهم منها ورفعهم عن مستوى تلك السفالات ، وأما أنتم فتريدون أن تناسوا الاعتقاد بالبارئ تعالى وتذكروا عبادة الذئب الأبيض ، فيا للأسف » .

« فكما حصل عند الترك حصل عند الفرس وصار ناشئتهم يبحثون عن أدیانهم القديمة التى منها الكيومرتية (أى تعظيم النور) والتحرز من الظلمة . ومن هنا جاءتهم عبادة النار ، ومنها فرقة (زرادشت) الذى كان يدعو إلى وحدانية الله ، ويقول : إنه خالق النور والظلمة وإن الخير والشر إنما حصلا بامتزاجهما ، وإنهما لو لم يمتزجا لما كان وجود العالم ، إلى غير ذلك من العقائد والأوابد والآثار التى كانت عند قدماء الفرس : كالوثنية ، والزرذشتية ، والمناوية ، ومنهم من يبحث عن المزدكية التى كانت تدعو إلى الإلحاد والإباحية (٢) » .

* الديانة القومية الأوربية وأركانها *

والخطوة الثانية فى هذا الطريق أن أصبحت الشعوب والدول فى أوربا ، الصغيرة منها والكبيرة ، عوالم مستقلة لا ترى العالم خارج الخطوط التى خطتها الطبيعة من جبال وأنهار ، أو خطتها بيدها من غاية سياسية واستعمار ، ولا تعترف

(١) من حواشى الأمير « شكيب أرسلان » على « حاضِر العالم الإسلامى » الجزء الأول ص ١٥٨-١٥٩ .

(٢) حواشى حاضِر العالم الإسلامى ج ١ ص ١٦٤-١٦٥ .

بوجود الإنسان فى غير منطقتها فلا تحترمه ولا تعرفه ، واتخذت نفسها إلهاً تدين له بكل ما يدين به العباد المخلصون من عبادة وتقديس وأصباح هى دماء الآخرين ونفوسهم وأموالهم وبلادهم ، وقاتل فى سبيله ، وتفان فى طاعته ، ومحيا وممات لأجله ، وهذا الدين القومى يشتمل على شيئين : إيجابى وسلبى ، أما الإيجابى فهو الاعتقاد بأن الشعب أو الأمة فوق كل شىء ، وأفضل من كل شىء ، وأن الله - إذا كانت الأمة تعترف به وتعتقد أو ترى أن من المصلحة أن تستغل هذه الكلمة - لم يخلق أفضل من هذه الأمة ، ولا أنجب منها ، ولا أذكى ولا أقوى ولا أحق بالحكم والسيادة والولاية على الأمم ، والرعاية للعالم منها ، وأنها أمينه ووكيله ووصيه فى الأرض ، ولم يخلق بلداً أحب إليه من هذه البلاد ، ولا تربة أذكى من تربتها وهذا هو الدين القومى الذى لا يسمح لإنسان ان يعيش فى بلاده حتى يؤمن به .

ولا تختلف شعوب أوربا الحاضرة ودولها فى هذه الديانة القومية إلا فى الصراحة والنفاق ، وأن بعضها تقول وتفعل ، وبعضها تفعل ولا تقول ، فإن بذرة القومية والوطنية إذا أُلقيت فى أرض فإنها لا تلبث أن تنشأ وتمد عروقها فى الأرض ثم تصير شجرة ، فدوحة تظلل الأمة ، ولا يمكن لشعب أن يؤمن بالقومية ، ثم لا يعتدى ولا يتطاول أو لا يريد أن يعتدى ويتطاول ولا يمتد الآخرين ، ولا يزدريهم ، كما لا يمكن أن يسرف الإنسان فى الخمر ، ثم لا يسكر ولا يهذى كما قال الشاعر:

ألقاه فى البحر مكتوفاً وقال له :

إياك إياك أن تبتل بالماء

خصوصاً إذا كان العلم والأدب والشعر والفلسفة والتاريخ وحتى العلوم الطبيعية متعاونة على إنشاء العاطفة القومية والنعرة الشعبىة والخيلاء الجنسية والفخر بالآباء والتعظيم بالماضى ، ولا يكون رادع من خلق ولا وازع من دين ، وتولى القيادة رجال لا يعرفون غير القومية والمجد القومى غاية مرمى ، ومن مقومات هذه الحياة القومية التى لا تقوم بغيرها ، الكراهة والخوف ، وذلك هو الجزء السلبى فى دين القومية ، فإن الحماسة القومية لا تظهر ولا تبقى حتى يكون للشعب ما يكرهه ويخافه ، فلا يزال القائدون يثيرون الكامن من عواطفه ، ويذكرون الخادم من حميته ويضربون على الوتر الحساس وهو الكراهة والخوف ، فلولاهما لانقشعت سحابة القومية وتراجع سيلها .

وقد حلل ذلك الأستاذ « جود » تحليلاً فلسفياً نفسياً فقال :

« إن العواطف التي هي مشتركة والتي يمكن إثارتها بسهولة هي عواطف المقت والخوف التي تحرك جماعات كبيرة من الدهماء ، بدل الرحمة والجود والكرم والحب ، فالذين يريدون أن يحكموا على الشعب لغاية ما ، لا ينجحون حتى يلتمسوا له ما يكرهه ويوجدوا له من يخافه ، وإذا أردت أن أوجد الشعوب ينبغي أن اخترع لهم عدواً على كوكب آخر - على القمر مثلاً - تخافه هذه الشعوب ، فلم يعد من دواعي العجب أن الحكومات القومية في هذا العصر في معاملتها لجيرانها إنما تقاد بعواطف المقت والخوف ، فعلى تلك العواطف يعيش من يحكمونها ، وعلى تلك العواطف يقوى الاتحاد القومي (١) ».

* الحل الإسلامي لمعضلة الحرب والمنافسات الشعبية .

إن هذا الحل الذي قدمه الأستاذ « جود » لمشكلة الأمم ومعضلة الحروب والمنافسات الشعبية حل عادل وتوجيه معقول ، فلا تنصرف عداوة الشعوب والأمم بعضها لبعض حتى يكون لها عدو من غيرها تشترك في عداوته وكرهه والخافة منه . وتتعاون في الحرب معه ، ولكن هذا لا يحتاج إلى اختراع وإبداع ، ولا يلزم أن يوجد لها عدو على كوكب آخر كالقمر والمريخ ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد؟ فالدين ينبه إلى أن هذا العدو للنوع الإنساني ولذرية آدم يوجد على الأرض نفسها ، وحق على كل إنسان أن يعاديه ويحترس منه ويتعاون مع بني نوعه في معاداته ومحاربه يقول القرآن : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٢) ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (٣).

وقد قسم الإسلام العالم البشري إلى قسمين فقط ، أولياء الله وأولياء الشيطان وأنصار الحق وأنصار الباطل، ولم يشرع حرباً ولا جهاداً إلا ضد أنصار الباطل وأولياء

(١) Guide to Modern Wickedness. p. 150.

(٢) آية ٦: فاطر . (٣) آية ٢٠٨: البقرة .

الشیطان أينما كانوا ومن كانوا ، فقال ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾ (١) . وهذه الحروب التي لم يشهد التاريخ أيمن منها وأقل إراقة للدماء وذهاباً بالنفس ، ولا أعود منها على الإنسانية بالصالح العام والخير المشترك والسعادة جمعاء فلا يربو عدد المقتولين من الفريقين (المسلم والكافر) في جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ، ودامت إلى السنة التاسعة على ألف وثمانية عشر نفساً [١٠١٨] المسلمون منهم [٢٥٩] والكفار [٧٥٩] (٢) أما المصابون في حرب ١٩١٥-١٩١٨ الكونية فيبلغ عددهم على الأصح واحد وعشرين مليون نسمة (٣) [٢١٠٠٠٠٠٠] عدد المقتولين منهم سبعة ملايين [٧٠٠٠٠٠٠] وقدر المستر مكستن (Maxton) عضو البرلمان الإنجليزي أن المصابين في الحرب الثانية الكبرى ١٩٣٩ لا يقل عددهم عن خمسين مليوناً ٥٠.٠٠٠.٠٠٠ وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب الأولى عشرة آلاف جنيه ، أما مجموع نفقاتها فيبلغ ٣٧.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات ١.٠٠٠.٠٠٠ (٤) .

ثم كانت الحروب الدينية الإسلامية حاقة للدماء عاصمة للنفوس والأموال وفتحة عهد السعادة والغبطة في العالم ، أما حرب التنافس والحمية الجاهلية التي تدعى الحرب الكبرى فقد كانت مقدمة حروب متسلسلة ، وإليك ما قال المستر لويد جورج بطل الحرب الكبرى ورئيس الوزارة الإنجليزية حينئذ :

(١) آية ٧٦: النساء .

(٢) عولنا في هذه الأعداد على إحصاء مؤلف السيرة النبوية الشهير القاضي محمد سليمان المنصورفوري في المجلد الثاني من كتاب سيرة رحمة للعالمين ولم يغادر من الغزوات والبعوث والمناوشات صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، أما إحصاءات غيره من المؤلفين فإنها تمثل عدداً أقل من هذه الأعداد .

(٣) وقد حقق المستر . هـ . تاونسند E.H. Tawansend في مقالة له نشرتها صحيفة هندو الإنكليزية اليومية (٣١ يناير ١٩٤٣ م) أن عدد المصابين في الحرب الكبرى لا يقل عن ٣٧.٥١٣.٨٨٦ المقتولون منهم ٨.٥٤٣.٠١٥ .

(٤) من مقالة لتاونسند في صحيفة هندو .

« لو رجع سيدنا المسيح إلى العالم لما عاش إلا قليلاً ، إنه سيرى الإنسان لا يزال بعد ألفى سنة مشغولاً بالشر والإفساد والقتل والفتك بنى نوعه ، والنهب والإغارة ، بل إن أكبر حرب فى التاريخ قد استغرقت دم جسم الإنسانية وأهلكت الحرث والنسل حتى أصابت الناس مجاعة ، وماذا يرى السيد المسيح يا ترى ؟ هل يرى الناس يتصافحون كالأخوان والأصدقاء ؟ لا بل يراهم يتهيأون لحرب أشد هولاً من الأولى وأعظم فتكاً وتعذيباً ، يراهم يتسابقون فى اختراع الآلات الجهنمية ويتندعون وسائل التعذيب (١) » .

وليس اشتغال هذه الشعوب بالعداوة والحروب فيما بينها ، وما هذه القومية والوطنية إلخ إلا لانصراف هذه الشعوب عن عداوة عدوها الحقيقى ونسيانها له ، فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكل ، وكما قال الشاعر الجاهلى :

وأحياناً على بكر أخينا إذا لم نجد إلا أخانا

فإذا عرفت عدوها وعرفت ضرره على نفسها ، وعرفت خطره وقوته كان ذلك مشغلة لها عن كل حرب وعداوة وشح ومنافسة وأحقاد وهمية وترات مصطنعة ، وقد قالت العرب قديماً : « عند الحفيظة تذهب الأحقاد » وهكذا جعل محمد ﷺ من قبائل العرب المتعدية التى كانت سيوفهم تقطر من دمائهم كالأوس والخزرج فى المدينة ، وبنى عدنان وبنى قحطان فى الجزيرة ، والأجناس المتباينة فى العالم ، أمة واحدة ومعسكراً واحداً إزاء الكفر الجاهلية ، إذ جعل لها فى خارجها ما تكرهه وتعداه ، وهو الباطل والطاغوت ووكلاؤه وأنصاره ، وشغلها بحربه وقرأ : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (٢) فنسيت أحقادها وتراتها ولم تذكرها إلا لما انصرفت عن عدوها وتشاغلت عن قتاله ومعاداته فكانت حروب داخلية وفتن يعرفها الجميع .

(١) وقد صدقت فراسته ووقع تحت أعيننا ما تنبأ به وقد فاقت هذه الحرب الجارية الماضية فتكاً بالأرواح والعمران وتدميراً للبلدان ووقائع تشيب لهولها الولدان وغلاء فى السلع وارتفاعاً فى الأسعار وأصابت الناس مجاعات شديدة فى كثير من الأقطار .

(٢) آية ٧٦ : النساء .

* دعاية القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة :

ولا يزال القوميون في داخل البلاد وخارجها يزينون للشعوب الصغيرة القومية ويطرون أدبها ولسانها وثقافتها وتهذيبها ، ويمجدون لها تاريخها حتى تصبح نشوانة بالعواطف القومية والخيلاء والكبرياء ، وتدل بنفسها وتظن أنها مانعتها حصونها وما أعدت للحرب ، وتنقطع عن العالم وتنحصر أحياناً بالدول الكبيرة غروراً بنفسها ، أو تهجم عليها الدول فلا تلبث إلا عشية أو ضحاها ، وتذهب ضحية لقوميتها وانحصارها في دائرة ضيقة ، ولا يغني أولئك المسئولون عنها شيئاً ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ (الحشر: الآية ١٦) كذلك وقع لبولندة وبلجيكا وهولاندة ويونان ودمارك ، وهكذا وقع لإيران والعراق في الحرب الثانية .

* مطامح الدول الكبيرة :

أما الدول الكبيرة فترى من واجب قوميتها أن تبسط سيطرتها على أكبر رقعة من الأرض وترفرف أعلامها على مساحات واسعة وإن كانت قفاراً أو صحارى وتكون لها مستعمرات وممتلكات في قارات مختلفة ، وإن كان ذلك يكلفها جيوشاً وأموالاً بغير فائدة جدية تعود عليها ويصعب عليها حراستها والقيام بشئونها ، كل ذلك مما توجهه عليها شريعة القومية ، وليس لها غاية أخلاقية وثمره أدبية غير ما تسميه « المجد القومي والشرق القومي » .

وقد شرح الأستاذ « جود » المجد القومي بقوله :

« إن المجد القومي إنما يعنى أن يكون الشعب يملك قوة يسلط بها رغبته وهواه على آخرين إذا مست الحاجة ، ويكفى لشناعة ما يسمونه (المثل الكامل للشعب) وهو المجد القومي إنه يناقض الصفات الخلقية والفضيلة إذا كانت بلاد لا تقول إلا صدقاً ، وتنفى بعودها وتعامل الضعفاء معاملة إنسانية بمستوى شرفها عند الأمم منحط فالشرف - كما قال المستر بلدون - : عبارة عن قوة تنال الأمة بها المجد والفخر وتستلقت إليها الأنظار وتشغل الأفكار ، ومعلوم أن هذه القوة التي تنال الأمة بها هذه الدرجة من الشرف إنما تتوقف على قنابل نارية متفجرة ومشعلة للنيران وعلى وفاء الشبان وولائهم للوطن ، الذين يحبون إلقاء تلك القنابل على المدن ، فالشرف الذي يمدح لأجله شعب يناقض تلك الصفات والأخلاق التي يمدح بها الفرد ، فأرى أن الشعب يجب أن يعد همجياً وغير مهذب بالمقدار الذي يملكه من

الشرف ، إذ ليس من الشرف أن ينال الإنسان أو الشعب الشرف بالخدعة والمكر والظلم (١) . ويقول في موضوع آخر :

« إن الكبير - أكثر من الطمع - هو الذى يحمل الطبقة الحاكمة فى بريطانيا على اتباع خطط لا تتفق مع ما يتظاهرون به من حب الصلح والوئام ، دع رجلاً يقتصر على ولاية الأمر فى بريطانيا أن يهجرها قيراطاً من رمل من ممتلكاتها التى لا تغرب فيها الشمس ومن أشدها قحولة وجذباً ، تر المحافظين الأبطال فى إنجلترا يقيمون العالم ويقعدونه سخطاً وحنقاً ، وترى الصحافة الإنجليزية المعتدلة تتميز غيظاً إذا تعلم أن هؤلاء المحافظين ليسوا طماعين فقط بل هم مستكبرون معاندون (٢) » .

* مناصرة الشعوب فى المستعمرات والأسواق .

وقد سبقت إلى هذا الاستعمار والامتلاك أُم وتخلفت أخرى ، ثم نهضت الأخيرة تنافسها وتطالب بأسهامها وتبحث لها عن مستعمرات وأسواق لبضائعها وشرفات تغرز عليها علم المجد والفخار ، وتعد بفضلها من الإمبراطوريات الكبار ، وقامت الأولى تدفعها وتحول بينها وبين ما تشتهى ، وتزعم أنها إنما تغضب للأمم الصغيرة ونصرة المظلوم ، ولكن كثيراً من الناس ، من أنفسهم ومن الأجانب ، يشكون فى إخلاص هذه الأمم وفى صفاء طويتها وحسن نيتها .

يقول الأستاذ « جود » : « الانجليزى - جاهلاً أو متجاهلاً للمسائل التى أدت إلى قمسة ضيزى للعرمان ، ضارباً صفحاً عن سخط الشعوب مثل اليابانيين - يعتقد أن الإنجليز أمة سلمية ويرمى اليابانيين بحب القتال والضرارة بالحروب والإنجليز لاشك أمة سليمة ولكن مسالمتهم مسألة لص قد اعتزل حرفته القديمة ، وقد احرز شرفاً وجاهاً بفضل غنائم السابقة ، وهو يبغض الذين يدخلون جديداً فى حرفته القديمة ، عنده فضول أموال وغنائم لا يستهلكها . ولكنه يلقب الذين يريدون ان يساهموا فى ذلك بهواة الحرب (٣) » .

Guide to Modern Wickedness. p. 153. (١)

Guide to Modern Wickedness. 180 (٢)

Guide to Modern Wickedness. p.180. (٣)

وكثيراً ما تنشبت الحرب بين هذه الأمم السابقة إلى السيادة والتملك وبين الأمم المتطلعة لها الطامحة إليها ، ولكن هذه الحرب لا يصح قياسها على حرب تشهر لردع الظالم والانتصار للمظلوم وإقامة القسط عملاً بقول الله عز وجل : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الحجرات: الآية ٩) ، ولكن هذه الحرب حرب شح ومنافسة ، وحرب غيرة وحسد ، ما كانت جمعية الأمم (الفقيدة) التي كانت هذه الحروب تشهر تحت إشرافها ، ولا خليفتها « الأمم المتحدة » إلا كما قال الأمير شكيب أرسلان : « مثل العروض بحراً بلا ماء ، ما وجدت إلا لتلبس الاعتداء حلة قانونية ، وتسوغ الفتوحات بتغيير الأسماء ، لا يطيعها سوى ضعيف عاجز ، ولا تستطيع أن تحكم على قوى متجاوز » أو في لفظ فقيد الإسلام الدكتور محمد إقبال : « جمعية لصوص ونباشين تألفت لتقسيم الأكفان » .

قال الأستاذ (جود) الإنكليزي :

« إن حرباً تشهر تحت إشراف عصبة الأمم ليست للعدل بين الأمم يقوم بها شرطة العالم للأخذ على يد الظالم وعقاب المعتدى ، ليست هذه الحرب إلا كفضاحاً بين الطوائف المتنافسة في القوة . الواحدة منها حريصة على المحافظة على القسط الأكبر من ثروة العالم ومواردها ، والأخرى متهاكة على تحصيلها ، إن مثل هذه الحروب لا تختلف عن حروب نشبت بين الطوائف المتنافسة في الماضي ، ولا عن حروب النمسا وبروسيا ^(١) ، وعن حروب السنوات السبع ^(٢) وعن حروب نابليون ، وعن حرب ١٩١٤-١٩١٨ لا تختلف هذه الحرب عن هذه الحروب كلها إلا في الاسم .

(١) حرب منافسة وطمع اشتركت فيها فرنسا وأسبانيا وإنجلترا وهولندا لتناول غنائم انتقصت فيها أطراف النمسا وممتلكاتها ونشبت على أثر وفاة فريدريك ملك النمسا وجلس ابنته ماريا تيريزا على العرش بوصيته ورضا الدول سنة ١٧٤٠ ، وانتهت سنة ١٧٤٨ .

(٢) حروب اشتركت فيها فرنسا وروسيا وسويدن وأكثر إمارات الدول الألمانية وبروسيا وإنجلترا حماية لبعضها واعتداء على بعضها ابتدأت سنة ١٧٥٦ وانتهت سنة ١٧٦٣ .

أما التذرع بأن هذه الحروب إنما نصبت للدفاع عن الديمقراطية وعن عصبة الأمم ، وضد الفاشية والاعتداء فلا يغير من الموقف شيئاً^(١) .

* الفرق بين حكم الجبائية ، وحكم الهداية ،

روى أن عمر بن عبدالعزيز خليفة المسلمين قال لعامله مرة : « ويحك إن محمداً ﷺ بعث هادياً ولم يبعث جايياً » وهذه الجملة تعرب عن روح الحكومة الدينية التي تتأسس على منهاج النبوة ، وتسير على آثار الأنبياء وخطتها وسياستها ، فتكون عنايتها واهتمامها بالدين وإصلاح أخلاق المحكومين وبما يعود عليهم بالنفع والضرر في الآخرة أكثر من اهتمامها بالجبائية والخراج وأنواع المحاصيل والإيراد ، وتنظر في جميع مسائل السياسة والمالية من الوجهة الدينية وتقدم المبادئ الدينية والخلقية على المنافع والمصالح المادية ، فتمنع الخمر وتحرم الزنى وأنواع الخلاعة والفجور والعقود المالية الفاسدة النافعة للأفراد المضرة بالمجتمع ، فتحظر الربا والقمار وإن كان ذلك يرجع على الحكومة بالخسارة المالية الفادحة ، وتشرع مشاريع إصلاحية وتراقب الأخلاق وتعنى بتعذيب النفوس ، وإن كان ذلك يكلفها أموالاً طائلة وميزانية ضخمة ، ونتيجة هذا النوع من الحكومات إذا قامت في بلاد ما بينها القرآن وتنبأ بها للمهاجرين الأولين : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾^(٢) .

أما الحكومات التي تقوم للجبائية لا للهداية ، وللانتفاع لا للنفع ، فطبيعي أن تكون عنايتها مصروفة إلى أنواع الخراج والمحاصيل والغلات ، وكثيراً ما يكون ذلك على حساب الأخلاق والفضائل والنظام المنزلي ، فتبيح أنواعاً كثيرة من الخلاعة والفجور بقيود تنظمها ولا تمنعها ، فتسمح بالبغياء الرسمي ، وقد تراعى بنفسها وتبيح القمار ، وكثيراً من الجنايات والجرائم الخلقية بتغيير الأسماء وتحديد بعض الأشياء تأميناً لمصالحها ، ولا تبيح الخمر فقط بل تبيحها وتتولى تجارتها وتنظيمها وتحاكم

Guide to Modern Wickedness. p. 191. (١)

(٢) آية ٤١ : الحج .

وتعاقب من يمنعها ويجاهد ضدها ، وقد تجبر أهل بعض البلاد على اشتراء المخدرات التي تصدرها ، كما فعل بعض الحكومات الأوربية فى آسيا مع أهل الصين ، فطبيعى كذلك أن تصاب هذه الشعوب المحكومة فى أخلاقها وترزأ فى روحها وقلبها ، بل إن أهل البلاد ينحط مستوى أخلاقهم لمجرد المخالطة بهذه الشعوب الحاكمة ومجاورتها ، ويلحقهم عدوى الأمراض الخلقية الفاشية فى الأقطار الأوربية التى ولدتها الحضارة المادية هنالك ، وذلك ما أقروا به أنفسهم وشكوا منه .

فالحكومات الأوربية تحمل معها مفساد الحضارة الغربية وشروورها ، وكيف يرجى من هذه الحكومات أن تزدهر الفضيلة والأخلاق ويرقى مستوى أخلاق الشعب فى ظلها ودولتها ، ولم يكن ذلك فى بلادها وأوطانها ، وليس ذلك من رسالتها ومهمتها ، ولا مما تدين به وتعتقد « وكل إناء بالذى فيه ينضح » ولم تنزل طريق الملوك والفاحين غير طريق الأنبياء والهداة والمصلحين ، وإن الحقيقة التى ذكرها القرآن على لسان ملكة سبأ حقيقة راهنة لا تختلف فى الأزمنة والأمكنة :

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ (١).

★ ★ ★

(١) آية ٣٤ : النمل .

الفصل الثالث

أوروبا إله الانتحار

* عصر الاكتشاف والاختراع *

إذا عرفت عصور التاريخ بما يميزها عن غيرها ، وأضيفت إليه ، أمكننا أن نسمى هذا العصر عصر الاكتشاف والاختراع ، وعصر اللاسلكي والكهرباء ، وفضل الأوربيين وتقدمهم في هذا الباب وعبقريه رجال الاكتشاف والاختراع وإبداعهم من القضايا التي لا تقبل المكابرة .

ولكن مهما بالغ المبالغون في إطراء الصناعات والمخترعات الحديثة في أوروبا ، وبرغم إعجابنا بها والثناء على مكتشفيها ومخترعيها ، ينبغي ألا ننسى أن هذه الصناعات والمخترعات ليست غايات في نفسها مقصودة بالذات ، بل هي وسائط ووسائل لغاية أخرى نحكم عليها بالخير والشر ، والنفع والضرر ، بمقياس هذه الغاية وكونها خيراً أو شراً ، ونحكم عليها بالنجاح والخيبة بالقياس إلى مطابقتها للغاية التي وضعت لها ، والنظر في النتائج التي حصلت منها ، والدور الذي لعبته في حياة الناس ومجتمعهم وأخلاقهم وسياستهم .

* الغاية من الصناعات والمخترعات ، وموقف الإسلام منها *

أما الغاية فعلى ما أرى هي التغلب على العقبات والصعوبات في سير الحياة التي سببها الجهل والضعف ، والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة في هذا الكون ، وخيراتها وخزائنها المبتوثة فيها ، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علو في الأرض ولا فساد .

كان الإنسان يسافر في الزمن القديم ماشياً ، ثم ألهم أن يسخر لذلك الحيوان ، فاتخذ العجلات واتخذ الجياد العتاق ، ثم لم يزل يتدرج في السرعة والاختراع حتى وصل من المركبة إلى القطار ، ومنه إلى السيارة ، ومنها إلى الطائرة ، وكذلك من السفينة الشراعية إلى البواخر ، فلا بأس ، بل يا حبذا إذا كان ذلك كله تابعاً لمقاصد صحيحة يسافر الإنسان بها من مكان إلى مكان لغرض صحيح جدى مثمر ، ويحمل عليها أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق النفس ، ويوفر الوقت والقوة

وينتفع بها في الخير ، وقس على ذلك سائر القوى الطبيعية والمخترعات الحديثة التي ينتفع بها الإنسان انتفاعاً مشروعاً ، ويستخدمها لمقاصد رشيدة نافعة ؟

إن موقف الإسلام في ذلك بين واضح ، فقد أخبر أن الإنسان خليفة الله في الأرض قد سخر الله العالم لأغراضه الصحيحة بتصرف منه وغير تصرف فقال : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ ، وقال : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات زرقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجروا في البحر بأمره وسخر لكم النهار ، وسخر لكم الشمس والقمر ذابئين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (إبراهيم) ، وقال : ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (الإسراء) ليلاحظ القارئ الإطلاق في قوله : ﴿ وحملناهم في البر والبحر ﴾ ، وقوله ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ ، وقال ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرؤوف رحيم ، والحيد والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون ﴾ ، (النحل) . قد من الله في هذه الآية على الإنسان بتمكينه لبلوغ غايته من غير شق النفس ، واستدل به على رأفته به ، ورحمته له ، وقال : ﴿ الذي خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ (الزخرف) ، وما أجدر الإنسان أن يقول إذا استوى على سيارة أو طائرة : ﴿ سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ ، فهو أبعد من أن يكون مقرناً لقطع من صفيح وحديد لا حياة فيها ولا حركة ، يسخرها له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ولا ينس أنه راجع إلى الله ومحاسب علي ما أوتى من قوة وسعة ، فإن أساء استعمال هذه القدرة والتمكين عوقب على ذلك ، وكذلك لا ينس أنه عبد خاضع لله منقاد لحكمه لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا يطغ ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

وقال : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوموا

الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله لقوى عزيز ﴿ (الحديد) . فالحديد فيه منافع للناس ومن أكبر منافعه أنه يستخدم لنصر الله ورسله ، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله وأودع في الكون من قوة في سبيل الجهاد في سبيل الله ، وفي نشر دينه ، وإظهاره على الدين كله وإعلاء كلمته ، وفيما أباح الله له ورغبه فيه من تجارة مشروعة وكسب حلال ، وسفر بر ، ومنافع مباحة .

* إنما طائركم معكم *

إن المصنوعات الجمادية لا ذنب عليها ، فإنها خاضعة لإرادة الإنسان وعقليته وأخلاقه ، فهي في ذات نفسها ليست خيراً ولا شراً ، ولكن الإنسان هو الذي يجعلها باستعماله لها خيراً أو شراً ، وكثيراً ما تكون خيراً في نفسها ، فيحولها الإنسان شراً بسوء استعماله وخبث سريرته ، وفساد تربيته ، فليس الشأن في هذه الآلات والمخترعات ، إنما الشأن فيمن يستغلها وفي الغرض الذي يستعملها له ، وحقيق أن يقال - لمن أصبح يتطير في أوروبا من هذه الآلات ، ومن الطيارات التي تقذف القنابل ، وتدمر المنازل ، وتنسف القرى والمدن ، والغواصات التي تغرق بواخر الركاب المسالمين والتجار الآمنين ، واللاسلكية التي تذيع الكذب والزور ، وتنشر الخلاعة والمجون ويشكو منها ، ويوجه إليها الملام - : إنما طائركم معكم فإن العلوم الطبيعية تسخر للإنسان القوة المادية ، وليس من شأنها أن تعلمه أيضاً كيف يستعملها و فيم يضعها ، كالكبريت يعطيك ناراً ، ولك أن تحرق بها بيتاً على سكانه أو تطبخ طعاماً أو تستدفئ بالنار ، والذي يعلم كيف يستعمل الإنسان القوة وفيما يضعها هو الدين ، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعاً حقيقياً وكيف يشكر نعمة الله ، ويحظر على الإنسان أن يكون بقوته التي خوله الله إياها معيناً على الظلم والجريمة والإثم والعدوان ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ رب بما انعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ (القصص) : وقال سليمان : ﴿ هذا من فضل ربي ليبلونني أشكر أم أكفر ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كرم ﴾ .

* التخليط بين الوسائط والغايات *

أما الأوربيون فقد حرموا أنفسهم الدين ، فلم يبق لهم رادع من خلق أو وازع من دين ، أو مرشد من علم إلهي يرشدهم إلى الجادة ، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ فاعتقدوا بطبيعة هذه العقيدة أن ليس للإنسان وراء اللذة والراحة والانتفاع المادى والعلو فى الأرض وبسط السيطرة عليها - كمملكة لا سيد لها ولا وارث - والتغلب على أهلها والاستثمار بخيراتها وخزائنها ، مقصد ولا غاية ، فاستعملوا هذه القوة والعلم فى حصول اللذات والتغلب على الناس وقهر المنافسين ، وتنافسوا فى اختراع الآلات التى ينالون بها وطهرهم ويعجزون بها غيرهم ، ولم يزل بهم ذلك حتى اختلطت عليهم الوسائط بالغايات ، فاعتقدوا الوسائط غايات ، وافتتوا بالمخترعات والمكتشفات كغاية فى نفسها لا لغيرها ، وعكفوا عليها وتشاغلوا بها كتشاغل الصبيان باللعب والدمى ، واعتقدوا أن الراحة هى الحضارة ثم تقدموا وصاروا يعتقدون أن السرعة هى الحضارة .

يقول الأستاذ جود :

« يقول دزرائيلى Disraeli إن المجتمع فى عصره يعتقد أن الحضارة هى الراحة أما نحن فنعتقد أن الحضارة عبارة عن السرعة ، فالسرعة هى إله الشباب العصرى ، وإنه يضحي على نصبه بالهدوء والراحة والسلام والعطف على الآخرين من غير رحمة (١) » .

* عدم تعادل القوة والأخلاق فى أوروبا *

إن الأوربيين قد فقدوا تعادل القوة والأخلاق والتوازن بين العلم - بظاهر من الحياة الدنيا - والدين منذ قرون ، فلم تزل القوة والعلم فى أوروبا بعد النهضة الجديدة

(١) Guide to Modern Wickedness p. 241.

ينمو ان على حساب الدين والأخلاق ، ولم يزل الأولان فى ارتفاع وارتقاء ، والآخرون فى انخفاض وانحطاط ، حتى بعدت النسبة بينهما ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض وهى كفة القوة والعلم ، وخفت الثانية - وهى كفة الأخلاق والدين - حتى ارتفعت جداً ، وبينما يتراءى هذا الجيل للناظر فى خوارقه الصناعية وعجائبه الكونية وتسخير له للمادة والقوى الطبيعية لمصلحه وأغراضه كأنه فوق البشر إذا هو لا يتميز فى أخلاقه وأعماله ، فى شرهه وطمعه ، فى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن البهائم والسباع ، وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة ، إذا هو لا يدرى كيف يعيش ! وبينما هو قد بلغ الغايات ووراء الغايات فى الكماليات وفضول الحياة ، إذا هو لم يعرف المبادئ الأولية والبديهيّات للحياة الإنسانية والمدنية والأخلاق ، فتراه يصعد إلى السماء ويريد أن يناطح الجوزاء ، وهو لم يتقن شئون الأرض ولم يصلح ما تحت قدميه ، وقد حولته العلوم الطبيعية قوة قاهرة وهو لا يحسن استعمالها ، كطفل صغير أو سفينة أو مجنون يملك أزمة الأمور ويؤتى مفاتيح الخزائن ، فهو لا يزيد على أن يعبث بالجواهر الغالية والنفائس المخزونة ويعيث فى دماء الناس ونفوسهم

* قوة الآلهة ، وعقل الأطفال ،

يقول الأستاذ « جود » الإنجليزي : « إن العلوم الطبيعية قد منحتنا القوة الجديرة بالآلهة ، ولكننا نستعملها بعقل الأطفال والوحوش (١) ».

ويقول فى موضع آخر :

« إن هذا التفاوت بين فتوحنا العلمية المدهشة ، وطفولتنا الاجتماعية المخجلة ، نواجهه على كل منعطف ومنعرج ، نستطيع أن نتحدث من وراء القارات والبحار ونرسل الصور بالبرق ونصب اللاسلكية فى منازلنا ، ونستمع فى سيلان إلى دقات (Big Ben) - الساعة العظمى - تضرب فى لندن ، ونركب فوق الأرض

والبحر وتحتهما ، والأطفال يتحدثون على الأسلاك البرقية ، والآلات الكاتبة صامتة ، وتملأ الأسنان من غير إيجاع ، والزروع تنمى بالكهرباء ، والشوارع تفرش بالمطاط ، وأشعة رونتجن (x-rays) نوافذ نطل منها على داخل أبداننا ، والصور المتحركة تتكلم وتغنى ، ويكشف عن المجرمين والمغتالين باللاسلكية ، والغواصات تذهب إلى القطب الشمالي والطائرات تطير إلى القطب الجنوبي ، ومع ذلك كله لا نقدر فى وسط مدننا الكبرى أن نخصص رحبة يلعب فيها أطفال الفقراء فى راحة وسلام ، ونتيجة ذلك أنا نقتل منهم ألفين (٢٠٠٠) ونجرح منهم تسعين ألفاً (٩٠٠٠٠) سنوياً . قال لى فيلسوف هندى فى انتقاده اللاذع لإطرائى لعجائب حضارتنا : وكان بعض سواق السيارات قد نجح فى قطع ثلاثمائة أو أربعمائة ميل فى ساعة على رمال (Pendine) وطارت طائرة من موسكو إلى نيويورك فى فترة قليلة من الزمن قال الفيلسوف : نعم ! إنكم تقدرون أن تطيروا فى الهواء كالطير وتسبحوا فى الماء كالسمك ، ولكنكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض (١) .

* ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم *

وقد أصبحت هذه المخترعات والمكتشفات الجديدة - مما كانت تعود على النوع الإنسانى بخير كبير لو كان مستعملها يعرف الخير ويقدر أن يتجه إليه - أصبحت وضررها أكبر من نفعها ، وكان كما قال القرآن عن السحر : ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ (٢) اسمع شاهداً من أهلها ينتقد هذه المخترعات ويروح بالحقيقة وهو « جود » السابق الذكر :

« وقد استطعنا أن نسافر بسرعة زائدة من مكان إلى مكان ، ولكن الأمكنة التى نسافر إليها قلما تصلح للسفر ، وقد زويت الأرض للرحالين وتدانى الأمم ووطئ بعضها عتبة بعض ، ولكن نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بينها وأصبحت أسوأ مما كانت ، أما المرافق التى استطعنا بها أن نتعارف بجيراننا فقد عادت فحشرت

(١) Guide to Modern Wickedness P. 293

(٢) من آية ١٠٢ : البقرة .

العالم فى الحرب ، اخترعنا آلة الإذاعة وتحدثنا بها إلى الشعوب المجاورة والأمم الشقيقة ولكن كان عاقبتها أن كل شعب يستنفد موارد الهواء لإيذاء الشعب المجاور ومعاكسته ، إذ يجتهد أن يقنعه بفضل نظامه السياسى على نظامه (١) .

« انظر إلى الطائرة التى تحلق فى السماء يخيل إليك أن صانعيها كانوا فى عملهم ولباقتهم وصناعتهم فوق البشر ، والذين طاروا عليها أولاً لا شك أنهم كانوا فى علو همتهم وعزمهم وجراتهم أبطالاً مغاوير ، ولكن انظر الآن إلى المقاصد التى استعملت لها الطائرة وتستعمل لها فى المستقبل إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء وإحراق الأجساد وإلقاء الغازات السامة ، وتقطيع المستضعفين الذين لا عاصم لهم من هذا الشر إرباً إرباً ، وهذه إما مقاصد الحمقى أو الشياطين (٢) .

« وما عسى أن يقول المؤرخ غداً كيف كنا نستعمل معدن الذهب ؟ سيذكر أنا توصلنا إلى أن نخبر عن الذهب باللاسلكى ، وسيستعرض الصور التى تمثل اللياقة والمهارة التى كان أصحاب المصارف يزنون بها الذهب ويعدونه ، وكيف تحدينا قانون الجاذبية فى نقله من عاصمة إلى عاصمة ، وسيسجل أن أشباه الوحوش الذين كانوا ماهرين وجراء فى فتوحهم الصناعية كانوا عاجزين عن التعاون الدولى الذى كان يقتضيه ضبط الذهب والتقسيم الصحيح ، وكانوا لا يعنون إلا بأن يدفنوا المعادن بالسرعة الممكنة ، وكانوا يستخرجون الذهب والمعادن من بطون الأرض فى جنوب إفريقية ، ويدفنونها فى مصارف لندن ونيويورك وباريس (٣) .

ويتناول هذا البحث - التفاوت بين العلم والصناعة وبين الأخلاق الإنسانية ، وإخفاق الحضارة الحديثة فى أداء رسالتها - مفكراً آخر يجمع بين العلم بالفلسفة والعلوم الطبيعية فى تحليل أدق وأسلوب أعمق وهو الدكتور (Alexis Carrel) فى كتابه - الإنسان ، ذلك المجهول - (Man the Unknown) :

Guide to Modern Wickedness P. 247 (١)

Guide to Modern Wickedness P. 262 (٢)

Guide to Modern Wickedness P. 262 (٣)

« يظهر أن الحضارة العصرية لا تستطيع أن تنتج رجالاً يملكون الابتكار والذكاء والجرأة . وفي كل قطر تقريباً يرى الإنسان فى الطبقة التى تباشر إدارة الأمور وتملك زمام البلاد انحطاطاً فى الاستعداد الفكرى والخلقى .

إننا نلاحظ أن الحضارة العصرية لم تحقق الآمال الكبيرة التى عقدتها بها الإنسانية، وأنها أخفقت فى تنشئة الرجال الذين يملكون الذكاء والإقدام الذى يسير بالحضارة على الشارع الخطر الذى تتعرض عليه ، إن الأفراد والإنسانية لم تتقدم بتلك السرعة التى تقدمت بها المؤسسات التى نبعت من عقولها ، إنها هى نقائص القادة السياسيين الفكرية والخلقية وجهلهم الذى يعرض أُمّ العصر للخطر^(١) .

« إن الوسط الذى أنشأه العلوم الطبيعية وعلم الصناعات للإنسان لا يناسب الإنسان لأنه مرتجل لم يقم على تصميم وتفكير سابق ، ولم يراع فيه الانسجام مع شخصية الإنسان ، إن هذا الوسط الذى هو وليد ذكائنا واختراعاتنا لا يطابق قاماتنا ولا أشكالنا ، نحن غير مسرورين ، نحن فى انحطاط الأخلاق وفى العقول . ان الأمم التى ازدهرت فيها الحضارة الصناعية وبلغت أوجها هى أضعف مما كانت ، وهى تسير سيراً حثيثاً إلى الهمجية ولكنها لا تدرك ذلك . إنه لا حارس لها من المحيط الشائر الذى أقامته العلوم الطبيعية حول هذه الأمم . الحق يقال إن حضارتنا - كالحضارات التى تقدمتها - قد فرضت شروطاً للبقاء ستجعل - لأسباب لا تزال مجهولة - الحياة محالاً ، إن علمنا بالحياة وكيف يجب أن يعيش الإنسان متأخر جداً عن علمنا بالماديات ، وهذا التأخر هو الذى جنى علينا^(٢) .

« لا يجنى نفع من الزيادة فى عدد المخترعات الآلية ، لا فائدة فى أن نعلق أهمية كبرى على اكتشافات علوم الطبيعة والفلكيات وعلم الكيمياء ، أى خير فى الزيادة فى الراحة والشرف ، والجمال والمنظر وكماليات حضارتنا إذا منع ضعفنا من الانتفاع بذلك وتوجيهه إلى صالحنا ، إنه لا خير فى إحكام طريق للحياة يقصى فيه

(١) (Man the Unknown)

(٢) المصدر السابق .

العنصر الخلقى وتبعد منه أشرف عناصر الأمم العظيمة ، إن الأليق بنا أن نعنى بأنفسنا أكثر من أن نعنى بصناعة بواخر أسرع وسيارات أريح ، وراديوات أرخص ، وتلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق (١) .»

« ما هو التقدم الحقيقى الذى نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوروبا أو إلى الصين فى ساعات قلائل ؟ هل من الضرورى أن نزيد الإنتاج بلا توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر فأكثر من أشياء لا جدوى منها ؟ أليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقى والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام (٢) .»

* أوروبا فى الانتحار :

والحاصل أن الغربيين لما فقدوا الرغبة فى الخير والصلاح ، وضيعوا الأصول والمبادئ الصحيحة ، وزاغت قلوبهم وانحرفت ، وفسدت أذواقهم لم تردهم العلوم والمخترعات إلا ضرراً ، كما أن الأغذية الصالحة تستحيل فى جسم المعبود والموبوء مرضاً وفساداً ، بل لم تردهم هذه الآلات والمخترعات إلا قوة وسرعة فى الإهلاك واستعانة على الانتحار ، وقد أحسن المستر إيدن Eden رئيس وزراء بريطانيا السابق وصف ذلك فى بعض خطبه سنة ١٩٣٨ م.

« إن أهل الأرض كادوا يرجعون فى أخريات هذا القرن إلى عهد الهمجية والوحشية ، ويعيشون عيشة سكان الكهوف والمغارات ، ومن الغريب المضحك أن البلاد والدول تنفق ملايين من الجنيهات على وقاية نفسها من آلة فتاكة تخافها ، ولكنها لا تنفق على ضبطها ، وإنى أتعجب فى بعض الأحيان وأقول : كيف لو زار العالم الجديد زائر من كوكب آخر وهبط إلينا فما عسى أن يشاهده ؟ سيجدنا نعد العدة لإهلاك بعضنا ، ونتبادل الأنباء عنها ويخبر بعضنا بعضاً كيف نستعمل هذه الآلات الجهنمية .»

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

* القنبلة الذرية ونظائرها *

لعل المستر إيدن لما أفضى بهذا الحديث لم يدر بخلده أن العالم المتمدن وعلى رأسه أميركا رسول السلام وزعيم الحضارة والعالم الجديد سيتوصل أثناء الحرب إلى استعمال آلة تبز جميع الآلات والمخترعات في التدمير والتقتيل ، وتفوق ذكاء الإنسان وخياله في الهول والفظاعة . قد كانت هذه الآلة هي القنبلة الذرية التي تجربتها أمريكا مرة في صحراء نيوميكسيكو ، وثانية على رؤوس البشر في مدينة هيروشيما وبعدها في نجازاكي المدينتين اليابانيتين . وقد أذاع رئيس بلدة (هيروشيما) في ٢٠ أغسطس آب ١٩٤٩م أن الذين هلكوا في اليوم السادس من أغسطس آب ١٩٤٥م من اليابانيين يتراوح عددهم بين مائتي ألف وعشرة آلاف ، ومائتي ألف وأربعين ألفاً (ب - ت) .

يقول المستر استورت (Stuart Gilder) في مقالة نشرتها صحيفة الهند الإنجليزية السيارة (Statesman) في عددها الصادر في ١٦ سبتمبر ١٩٤٥ .
يقول البروفسور (Plesh):

« لا يؤمن على الناس الذين كانوا يعدون عن المنطقة التي انفجرت فيها القنبلة الذرية بمائة ميل أن يكونوا قد تأثروا بها ، فينبغي أن يفحص عنهم فحصاً طبياً ، ولا يستغرب أن يصبح الناس يوماً ويقرأوا في الجرائد أن علامات الإصابة بطاعون القنبلة الذرية قد ظهرت في الذين يسكنون على آلاف أميال من اليابان .

ويقول البروفسور (م.ى. أولى فنيث) معلم جامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية في إعداد القنبلة الذرية :

« من الأمور الخرافية أن يعتقد إنسان أن بريطانيا أو دولة أخرى تستطيع أن تحافظ على سر القنبلة الذرية إن المبادئ التي قامت عليها صناعة القنبلة الذرية مكشوفة لكل دولة ، إن بريطانيا وأميركا استفادت بتجارب السابقين وبلغتا إلى نهاية صناعة القنبلة الذرية ، ولكنها لا تدوم سراً حربياً إلا لأجل محدود ، لأن كل البلاد الصناعية تستطيع أن تعد القنبلة الذرية في مدة خمس سنوات وإذا أفرغت جهودها ووجهت قواها إلى صناعتها فيمكن أن تبلغ إلى نهايتها في سنتين » .

ويقول البروفسور المذكور :

« وأنا على يقين أنه سيظهر في مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الأولى بعشرة آلاف طن في قوة الانفجار ، وستليها قنابل قوتها مليون طن ، ولا ينفع في التوقي منها دفاع أو احتياط ، وإن ست قنابل فقط من هذا القبيل تكفي في تدمير إنجلترا على بكرة أبيها ، وإن العلماء الروسيين ينجحون في إعداد القنابل في مدة قصيرة جداً » .

وقد اخترعت أمريكا قنبلة أخرى تفوق القنبلة الذرية في القوة والفظاعة ، وهي (Hydrogen Bomb) وقد جرى اختبارها للمرة الثانية في المحيط الهادئ يوم ٢٦ من مارس سنة ١٩٥٤ .

وقد ذكر المستر شارلس - ي - ولسن (Charles E. Wilson) سكرتير وزارة الدفاع أن النتائج كانت هائلة لا تكاد تصدق .

وقد ذكر المستر لويس استراس (Lewis Strauss) رئيس لجنة القوة الذرية في أمريكا أن قنبلة هيدروجينية واحدة تستطيع أن تبيد مساحة مدينة نيويورك الواسعة .

وقال العالم الطبيعى الشهير ونائب رئيس مجلس الأمن اللواء صاحب سنج في دهلى الجديدة :

إن أربع قنابل هيدروجينية وزن كل واحدة منها مائة طن تستطيع أن تقتل كل نسمة على وجه الأرض ، وقد شاع أخيراً أن روسيا اكتشفت القنبلة التتروجينية (Nitrogen bomb) التى هى أدهى وأمر من القنبلة الهيدروجينية .

* والذي خبت لا يخرج إلا نكداً ،

وقد تضعضع أساس المدنية الأوربية ، كما ذكرنا بتفصيل ، ولم يزل بناؤه متزعزعاً ، ولم تزد الأيام ولم يزد الارتفاع إلا زيغاً واختلالاً ، وفسدت بذرتها ، فلم تصلح شجرتها ولم تطب ثمرتها ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ (آية ٥٨ : الأعراف) .

وقد شرح ذلك فى إيجاز الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى فى أحد فصول كتابه « تنقيحات » بالأوردية قال :

« ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة الإلهية ، لقد كان فيها قادة الدين ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم

ولا شريعة إلهية ، ولم يكن عندهم إلا شبح ديني لو حاول أن يسير بالنوع الإنساني على صراط مستقيم في طرق الفكر والعمل لما استطاع ، ولم يكن له إلا أن يكون حجر عثرة وسداً في سبيل ارتقاء العلم والحكمة ، وهكذا كان ، وكان عاقبة ذلك أن الذين كانوا يريدون الرقي نبذوا الدين بالعراء ، واختاروا طريقاً لم يكن دليلهم فيها إلا المشاهدة والاختبار والقياس والاستقراء ، ووثقوا بهذه الدلائل التي هي في حاجة بنفسها إلى الهداية والنور ، وجاهدوا واجتهدوا باحتذائها في طرق الفكر والنظر والتحقيق والاكتشاف والبناء والتنظيم ، ولكن ضلت خطواتهم الأولى في كل جهة وفي كل مجال ، وانصرفت فتوحهم في ميادين العلم والتحقيق ، ومحاولاتهم في سبيل الفكر والنظر إلى غاية لم تكن صحيحة ، إنهم بدأوا وساروا من نقطة الإلحاد والمادية ، نظروا في الكون على أنه ليس له إله ، نظروا في الآفاق والأنفس على أنه لا حقيقة فيها إلا المشاهد والمحسوس ، وليس وراء هذا الستار الظاهر شيء ، إنهم أدركوا نواميس الفطرة بالاختبار والقياس ولكنهم لم يتوصلوا إلى فاطرها ، إنهم وجدوا الموجودات مسخرة واستخدموها لأغراضهم ، ولكنهم جهلوا أنهم ليسوا سادتها ومديريها ، بل هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنها ، ولم يروا على أنفسهم عهدة وتبعة ، فاختل أساس مدنيتهم وتهذيبهم وانصرفوا عن عبادة الله إلى عبادة النفس ، واتخذوا إلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة هذا الإله ، وسارت بهم هذه العبادة في كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق زائغة خلافة رائعة ، ولكن مصيرها إلى الهلاك .

هذا هو الذي مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الإنسان ، وصاغ الأخلاق في قالب الشهوات والرياء والخلاعة والإباحة وسلط على المعيشة شيطان الأثرة والشح والفتك بيني النوع ، ودس في عروق الاجتماع وشرائنه سموم عبادة النفس والأنانية والإخلاد إلى الراحة والتنعيم ، ولطخ السياسة بالجنسية والوطنية وفروق اللون والنسل وعبادة إله القوة ، فجعلها لعنة كبرى للإنسانية .

والحاصل أن الذرة الخبيثة التي ألقيت في تربة أوربا في نهضتها الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ولكنها سامة ، أزهارها جميلة ولكنها شائكة ، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازاً ساماً لا يرى ، ولكنه يسمم دم النوع البشري .

إن أهل الغرب الذين غرسوا هذه الشجرة الخبيثة قد مقتوها ، وأصبحوا يتدمرون منها ، لأنها خلقت في كل ناحية من نواحي حياتهم مشاكل وعقداً لا يسعون لحلها إلا وظهرت مشاكل جديدة ، ولا يفصلون فرعاً من فروعها إلا وتطلع فروع كثيرة ذات شوك ، فهم في معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كـمعالج الداء بالداء، وناقش الشوك بالشوك . إنهم حاربوا الرأسمالية فنجمت الشيوعية ، إنهم حاولوا أن يستأصلوا الديمقراطية فنجمت الدكتاتورية ، أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنجبت حركة تذكير النساء (Feminism) وحركة منع الولادة ، أرادوا أن يشترعوا قوانين لاستئصال المفساد الخلقي فاشترأت حركة العصيان والجناية ، فلا ينتهي شر إلا إلى شر ، ولا فساد إلا إلى فساد أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر شروراً ومصائب ، حتى صارت الحياة الغربية جسداً مقروحاً ، يشكو من كل جزء أوجاعاً وآلاماً ، وأعيا الداء الأطباء ، واتسع الخرق على الراقع ، الأمم الغربية تتلطملم أماً ، قلوبها مضطربة وأرواحها متعطشة الى ماء الحياة ولكنها لا تعلم أين معين الحياة . إن الأكثرية من رجالها لا تزال تتوهم أن منبع المصائب في فروع هذه الشجرة ، فهم يفصلونها ويستأصلونها من الشجرة ويضيعون أوقاتهم وجهودهم في قطعها ، إنهم لا يعلمون أن منبع الفساد في أصل الشجرة ، ومن السفاهة أن يترقب الإنسان أن ينبت فرع صالح من أصل فاسد ، وفيهم جماعة قليلة من العقلاء أدركوا أن أصل حضارتهم فاسد ولكنهم لما نشأوا قروناً في ظل هذه الشجرة - وبأثمارها نبت لحمهم ونشز عظمهم - كلت أذهانهم عن أن يعتقدوا أصلاً آخر غير هذا الأصل يستطيع أن يخرج فروعاً وأوراقاً صالحة سليمة ، وكلا الفريقين في النتيجة سواء ، إنهم يتطلبون شيئاً يعالج سقمهم ويريحهم من كربهم ولكنهم لا يعلمونه ولا مكانه (١) .



(١) تنقيحات ، مقالة أُمّ العصر المريضة ص ٢٤-٢٥-٢٦ .

الفصل الرابع رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوربي

ليس من قصدنا الآن أن نبحث عن رزايا الأمم الشرقية الآسيوية في السياسة والاقتصاد والتجارة والصناعة ، وخسارتها في ممتلكاتها وانكسارها أمة بعد أمة وقطراً بعد قطر أمام قوة الغرب المادية ودهائه السياسي ، فلذلك حديث يطول ولا يسعه هذا المؤلف الصغير ، وقد طرق هذا الموضوع كثير من المؤلفين والمؤرخين في الشرق والغرب ، وأفنوا فيه مؤلفات بين صغير وكبير ومتوسط وأثبعوا فيه الكلام .

ولكن الذي يهمنا - ونحن نتكلم في هذا الكتاب عن خسارة العالم بانحطاط المسلمين واستيلاء الأوربيين بالتبع - رزية العالم الإنساني وخطب المجتمع البشري في الروح والأخلاق والنفس ، ومعان أسمى من المادة وما يتصل بالجسم والأرض في عهد النفوذ الأوربي العام ، وسيل حضارته الجارف ، فتلك رزية لا تقبل العزاء ، وكسر لا ينجبر ، والذين أدركوه قليل ، والذين تحدثوا به أقل من أولئك القليل .

ولما كان نظام الحياة الإسلامي هو المنافس للنظام الجاهلي ، كان طبعاً رزء المسلمين في عهد انتصار الحكم الجاهلي أكبر ، وقسطهم في هذه المصيبة العالمية أوفر لأن الإسلام والجاهلية ككفتي ميزان ، كلما رجحت كفة طاشت الأخرى .
والآن نتحدث عن هذه الرزايا المعنوية رزية رزية .

* بطلان الحاسة الدينية *

ما هي غاية هذا العالم التي ينتهي إليها ، ومصيره الذي يصير إليه ؟ هل بعد هذه الحياة حياة أخرى ؟ وما هو وضعها إذا كانت ؟ وهل لهذه الحياة الآخرة تعليمات وإرشادات في الحياة الدنيا ؟ ومن أي منبع تستقى هذه المعلومات ؟ وما هي الطرق والأسس التي إذا سار عليها الإنسان كانت حياته الآخرة راضية مرضية ؟ وما مصدر هذه الطرق ؟ وما هي الطريق المثلى للوصول بعد الموت إلى نعيم لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ؟ ومن أين تستفاد هذه الطريق ؟ .

تلك أسئلة ورثها الشرقي أباً عن جد ، وشغلت خاطره ، وأزعجت فكره طيلة قرون ولم يقدر أن يذهل عنها ويتناساها حتى فى لهوه وزهوه ، وكانت هذه الأسئلة حافز نفسه ، ونداء ضميره ، ولم يستطع أن يتصام عنه ويطوى دونه كشحاً ، بل أصغى إليه فى رغبة ونصيحة وإخلاص ، وأحل هذه الأسئلة من نفسه وحياته المحل الأول ، وما زال منذ آلاف من السنين فى أخذ ورد ونقض وإبرام فى هذا الموضوع ، وليس ما نسميه ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية ، والإشراق والرياضة النفسية ، والعلم والحكمة إلا محاولات ومغامرات فى هذا الطريق الطويل المظلم ، وارتداداً إثر ارتداد فى مناطق مجهولة ، ينبئ عن اهتمام الشرق البليغ بهذا الموضوع ورغبته الملحة فيه .

هذه طبيعة الشرقي وطبيعة أكثر أفراد البشر فى الأقاليم المعتدلة قبل ظهور الغربيين ، وإن استعرنا لذلك لغة الفلاسفة وتعبيدهم قلنا : لم يزل فى قلوب الناس - عدا حواسهم الظاهرة الخمس - حاسة سادسة يسوغ أن نسميها بالحاسة الدينية ، وكما أن الحواس الظاهرة لها دوائر عمل تحصل فيها محسوساتها الخاصة بها فللعين مبصرات وللأذن مسموعات إلخ . كذلك هذه الحاسة الدينية لها ثمرات وتأثيرات هى من خواص هذه الحاسة التى لم تنزل لأهل الشرق ضربة لازب ، وكما أن من فقد حاسة من الحواس الظاهرة بطلت محسوساتها الخاصة بها ، فلا تحصل له بحاسة أخرى إلا بطريق خرق العادة ، ولا تحل حاسة مهما كانت قوية وصحيحة محل الحاسة الأخرى ، كذلك من فقد الحاسة الدينية لطارئ مؤثر أو حرّمها لنقص فى الفطرة بطلت نتائجها الخاصة بها ، وانعدمت فى حقه ، بحيث لا يستطيع أن يتصورها أو يصدقها ، شأن الأعمى لا يبصر الألوان والأجرام المرئية ، وقد يعاند ويكابر فى إنكارها ، وشأن الأصم الذى ليست الدنيا الصاخبة إلا مدينة الأموات عنده ، ليس بها داع ولا مجيب ، كذلك من حرّم الحاسة الدينية جحد الغيب ، وكابر فيما هو وراء الطبيعة وعاند فى المعانى الدينية ، وقسا على الرقائق والقوارع التى تهز النفوس وترقق القلوب وتذرف العيون .

ما لجرح بميت إيلاه

أشد العقبات التي واجهها الأنبياء والدعاة الدينيون ، واصطدمت بها خطبهم ومواعظهم ودعوتهم ، هم أولئك الذين حرموا الحاسة الدينية أو فقدوها بتاتاً ، والذين تحجرت قلوبهم وماتت نفوسهم في مسألة الدين ، والذين آلوا على أنفسهم أنهم لا يفكرون في أمر الدين وأمور الآخرة ، ولا يلقون السمع لهذا الموضوع أصلاً ، والذين لما سمعوا كلام النبي الذي تجيش له الصدور وتلين له الصخور ، ما زادوا أن قالوا في صمم وإعراض : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ (١) ولما انتهى النبي من كلامه السائغ المعقول الذي يفهمه الأطفال ، والذي كان بلغتهم الفصيحة قالوا : ﴿ ما نفقه كثيراً مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ (٢) ، ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ (٣).

لا شك أن هذه الأسئلة كانت موضوع دراسة العلماء والمفكرين في فجر النهضة الأوربية الجديدة ، واستمروا يبحثون فيها ويؤلفون ويتناقشون ، ولكن كلما قطعت المدنية الأوربية شوطاً تخلفت هذه المباحث والأسئلة شوطاً ، ولما ظهرت خواص هذه المدنية الباطنة وتجلت هي في مظهرها المادي خفت - في ضجتها - هذا الصوت الذي كان ينبع من أعماق القلب وقرارة الضمير الإنساني الحي ، ولا ينكر أن هذه الأسئلة تدرس في قسم الفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة في المدارس والجامع العلمية والمكاتب العامة ، ويتباحث فيها العلماء المتخصصون وتظهر لهم في هذا الموضوع تأليفات بين آونة وأخرى ، ولكن الذي لا شك فيه أنها فقدت سلطانها على القلوب والأفكار ، وامحت علامة الاستفهام الواضحة النيرة التي كان يراها كل إنسان عاقل فيقف أمامها كما تقف القطر أمام الإشارات ، وأصبحت هذه الاستفسارات لا تحيك في صدر الإنسان ولا تشغله كما كانت تشغل آباءه وتحيك في صدورهم ، ولم يكن ذلك عن إيمان وانسراح صدر وطمأنينة قلب واقتناع بحل صحيح وارتياح إلى نتيجة حاسمة . كلا ! لم يكن ذلك إلا لأن هذه الأسئلة قد فقدت أهميتها وأخلت مكانها لأسئلة مادية أهم في أعين أبناء القرنين التاسع عشر والعشرين منها ، ولأن رجل العصر قد لزم الحياد التام في هذه المسائل وصرف النظر عنها ، فلا عليه إن كانت بعد هذه الحياة حياة ثانية وكانت الجنة والنار والثواب

(١) آية ٣٧: المؤمنون . (٢) آية ٩١: هود . (٣) آية ٥: فصلت .

والعقاب والنجاة والهلاك أو لم تكن ، فلا يهمه شيء من ذلك لا سلباً ولا إيجاباً ، لأن شيئاً من ذلك لا يمس مسائله اليومية أو في آخر الشهر ، ولا يتصل بشخصه وعياله في الساعة الحاضرة ، وهو رجل لا يعتقد في النسيئة ولا يترك عاجلاً بآجل ، ولا يتكلف ما لا يعنيه فيترك هذه المباحث « الفارغة » يبحث فيها معلم الفلسفة في الجامعة ويفضى فيها برأيه المؤلف في هذا الموضوع . أما هو فهو رجل جد وعمل ، لا يعرف إلا حياة المصانع والإدارات و سير الماكينات ولا يهتم إلا بتسليّة النفس وترويحها في آخر النهار والنوم الهادئ في آخر الليل والأجرة في آخر الأسبوع أو الراتب في أواخر الشهور وحساب الأرباح في آخر السنة وإعادة الصحة والشباب في آخر العمر وأما ما بعد الحياة فهو عنده مجهول ووهم من الأوهام : ﴿ بل ادرك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون ﴾ (١).

إن هذا الضرب من الناس لا يزال يزداد عدداً وأهمية في كل أمة وبلاد بتأثير الحضارة الغربية ، ذلك الضرب من الناس لم يترك اشتغالهم بالحياة الدنيا والعكوف عليها فراغاً لدعوة دينية ، وإن الذي يدعوهم إلى الدين والحياة الأخروية ليتحير معهم كما يتحير السندباد البحري - كما تروى لنا حكاية ألف ليلة وليلة - مع بيضة العنقاء ، ظنّها السندباد البحري بناء من رخام فدار حولها عدة مرات ليبحث عن باب يدخل منه فلم يجد ، كذلك الداعي الديني يدور حول رؤوسهم فلا يجد منفذاً يدخل منه إلى عقولهم ، ويدخل به دعوته الدينية إلى نفوسهم ، فقد أقفلت الحياة المادية ومسائلها جميع أبوابها وسدت جميع نوافذ فكرهم .

وكما أن رجلاً لم يحظ من الفطرة بالذوق الأدبي ، يسمع الألحان الجميلة والأبيات الرقيقة فلا يعدها إلا أصواتاً لا فن فيها ، كذلك الذي حرم الحاسة الدينية لا تؤثر فيه دعوة الأنبياء وخطب الوعاظ ، وحكمة العلماء وأمثال الصحف السماوية ، وتضيق فيه بلاغة البلغاء وإخلاص المخلصين ، ويصبح كل ذلك صيحة في واد ونفخة في رماد :

لقد أسمعت لو ناديت حياً

ولكن لا حياة لمن تنادي

والذي منى بهذا الضرب من الناس يفهم السر في قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ (٢) ، ﴿ أمر تحسب أن

(١) آية ٦٦: النمل . (٢) آية ٧: البقرة .

أكثرهم يسمعون أو يعتقدون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴿١﴾ وتظهر له حقيقة قوله : ﴿مثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾ ﴿٢﴾ ولم يلق فى شرحها وتعليلها ما لقيه المفسرون الذين لم يشاهدوا هذا النوع من صعوبة .

داء هذا العصر الذى لا ينجح فيه الدواء ولا يؤثر فيه العلاج هو الاستغناء التام عن الدين ، ولم يلق رجال الدعوة الدينية من العنت والشدة فى أحط أدوار الفسق والفجور وفى أحلك عهود المعصية والغفلة ، ما يلاقونه فى دعوة هؤلاء الذين لزموا الإعراض التام فى هذه المسائل (الكلامية) فلا تعنيهم سلباً ولا إيجاباً ﴿٣﴾ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴿٤﴾ .

وقد فطن لهذا الفرق الجوهري بين النفسية القديمة والجديدة أحد كبار معلمى الفلسفة وعلم النفس فى إحدى جامعات أوربا الكبرى وشرحه فى عبارة وجيزة .
قال س م جود :

« ثارت فى قديم الزمان شكوك واعتراضات وأسئلة واستفسارات حول الدين ، لم يطمئن بعض أصحابها ولم يرتاحوا إلى جواب مقنع ، ولكن مما يمتاز به هذا الجيل أنه لا ترعجه الأسئلة رأساً ، ولا تحيك فى صدره ولا تنشأ فى هذا العصر أصلاً » .

* زوال العاطفة الدينية ،

لما طغى بحر المادية فى العالم الإسلامى فى العهد الأخير وفاض ، كون رجال الدين جزراً صغيرة فى بحر المادية المحيط ، يلجأ إليها الفارون إلى الله والمتبرمون من الحياة المادية والغفلة ، كان فيها رجال هم كمنارات النور فى بحر الظلمات يربون الناس التربية الدينية والخلقية ، ويزكون أنفسهم ويصقلون قلوبهم .

وكننت ترى فى العالم الإسلامى حركة مستمرة إلى هذه الجزر ، فترى قوافل لرواد الروحانية ومنتجعى التربية الدينية غادية رائحة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن أقصى شمال العالم الإسلامى إلى أقصى جنوبه ، متخطية الثغور السياسية ، مجتازة العقبات الجغرافية ، فترى هذه الجزر مستعمرات دينية ، قد أمحت فيها الفروق الجنسية والوطنية ، وترى متحفاً إنسانياً قد اجتمع فيه الشرقى مع الغربى والبحارى مع المغربى والأناضولى مع الأندلسى ، قد فروا بدينهم من الفتن ورموا

(١) آية ٤٤ : الفرقان . (٢) آية ١٧١ : البقرة . (٣) آية ٥٢ : الروم .

بأنفسهم على عتبة ربهم ، يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ويتلقون التربية الدينية ثم ينبتون فى أنحاء العالم دعاة مصلحين ومعلمين مرشدين ، يلتقطون نصيب الله من بين نصيب الشيطان ، ويحيون أرضاً مواتاً من القلوب ، ويبدرون فيها بذور الدين .

وكذلك لم تزل فى جنب أقوى الدول وأوسعها دول روحية يفوق سلطانها الروحى سلطان الدولة المادى ، فيها رجال تأتيهم الدنيا راغمة ويأتيهم الملوك والأمراء صاغرين ، ولهم نظام كنظام الدول ينصبون ويقررون وينقلون ويستخلفون ، ولهم «قناصل وسفراء» فى كل دولة مادية وكأن خارطة العالم الإسلامى بين أيديهم ، فإذا خلا ثغر من ثغور الإسلام نصبوا فيه مرابطاً دينياً يحفظه من عادية الغفلة والمعصية ، ويحرسه من غاشية الجهل والطغيان (١) .

وكانت هذه الدول الروحية مستقلة فى إدارتها ونظامها الداخلى ، لا يتداخل فيها الملوك والأمراء ولا تؤثر فيها التقلبات السياسية والحوادث المحلية ، ولنضرب لذلك مثلاً بالمستعمرة الروحية المعروفة بغياث فور ، التى أنشأها الشيخ نظام الدين البداونى الهندى « م ٧٢٥ هـ » فى نفس عاصمة الهند وقد عاصر الشيخ ثمانية من الملوك الجبابرة « من غياث الدين بلبن ٦٦٤ - ٦٨٦ إلى غياث الدين تغلق ٧٢٠ - ٧٢٥ » وحافظت على استقلالها التام من غير أن تمسها يد الملوك ، وكنت ترى فيها رجالاً من سنجر فى إيران إلى رجال من أوده فى شرق الهند .

وقد كان لهذه المراكز ولأصحابها الفقراء من المهابة والحشمة والاحترام الفائق ما قد يحسداهم عليه أكبر ملوك العالم ، وقد يكون هذا سبب الوحشة بينهم ، وماذا لك إلا لإقبال الناس على رجال الدين واحتفائهم والخضوع للسلطان الروحى ، فكان السيد آدم البنورى الهندى (م ١٠٥٣ هـ) دفين البقيع يأكل على مائدته كل يوم ألف رجل ، ويمشى فى ركابه ألوف الرجال ومئات من العلماء ، ولما دخل السيد

(١) حدث الشيخ الصالح السيد على الهجویری دفين لاهور أن شيخه أمره بالرحلة إلى لاهور والإقامة فيها ، فاعتذر بأن هناك زميله الشيخ حسين الزنجاني فلا لزوم لذهابه ، فقال : لابد أن تذهب وتقيم بها : قال : فشددت رحلى وامتثلت أمر الشيخ ووصلت إلى لاهور فى الليل وقد غلقت أبوابها فبت ليلتى خارج السور ، ولما أصبحت وفتح باب السور إذا بالناس يحملون جنازة الشيخ حسين ، فعرفت سر أمر الشيخ ودخلت البلد ، وخلفته فى عمله دعاء الخلق إلى الله (كشف المحجوب للهجویری) .

فى لاهور عام ١٠٥٣ كان فى معيته عشرة آلاف من الأشراف والمشايخ وغيرهم ، حتى توجس شاهجان ملك الهند منه خيفة ، فأرسل إليه بمبلغ من المال ، ثم قال له : قد فرض الله عليك الحج فعليك بالحجاز ، فعرف إيعاز الملك ، وسافر إلى الحرمين حيث مات (١) .

وهذا الشيخ محمد معصوم (م ١٠٧٩) ابن الشيخ الكبير أحمد السرهندى قد بايعه وتاب على يده تسعمائة ألف من الرجال ، واستخلف فى دعاء الخلق إلى الله وإرشاد الناس وتربيتهم الدينية سبعة آلاف من الرجال (٢) .

وهذا ابنه الشيخ سيف الدين السرهندى (م ١٠٩٦) كان يأكل على مائدته ألف وأربعمائة ، ويقترحون الأطعمة ويتخيرونها (٣) .

وهذا الشيخ محمد زبير السرهندى (م ١١٥١) كان إذا خرج من بيته ألقى له الأغنياء الشيكان والمناديل حتى لا يبطأ الأرض ، وإذا خرج لعيادة مريض أو لبعض شأنه خرج فى ركابه الأغنياء والأمراء فكان موكباً مثل مواكب الملوك (٤) .

وهذه أمثلة قليلة لا يقصد منها إلا الاستدلال على ما كان للدين من مكانة وشرف فى عيون الناس ، وعلى ما كان من احتفاء برجاله ومن يمثلونه ، وخضوعهم لسلطان الدين فوق سلطان القوة ، وتهافتهم على موارد الدين ومشارعه ، وهذه أمثلة التقطناها على عجل من تاريخ الهند الإسلامى ولحات عابرة فيه ، ولو ذهبنا نستقصى أمثله وشواهد من تاريخ الإسلام العام ومن تراجم الرجل الدينين وسيرهم فى بلاد الشام ومصر والمغرب الأقصى والعراق لكان مجلداً كبيراً - ونكتفى هنا بذكر الشيخ خالد الكردى (م ١٢٤٢ هـ) الذى ازدحم الناس عليه فى بغداد يتويعون على يديه ويستفيدون منه ، وقد أخبر شيخه فى رسالة كتبها إليه أن مائة من العلماء الفحول قد تخرجوا عليه ، وأن خمسمائة من كبار العلماء قد دخلوا فى بيعته ، وأما

(١) التذكرة الآدمية (الفارسية)

(٢) نزهة الخواطر ، المجلد الخامس ، للشيخ عبدالحى الحسنى .

(٣) ذيل الرشحات (الفارسية) .

(٤) در المعرف (الفارسية) ، ونزهة الخواطر (العربية) .

العوام والخواص فلا يأتي عليهم حصر (١) .

واستمر هذا الإقبال على الدين والهجرة في طلب العلم النافع والعمل الصالح وتجنس الأسفار والأخطار لتزكية النفس وتهذيب الخلق والتوصل إلى معالم الرشد والاستعداد للآخرة إلى أول عهد الاستعمار الأوربي ، فترى في كل قطر إسلامي مراكز دينية وملاجئ روحية يأوي إليها أهل الطلب من سائر الآفاق ، وتخطبهم الدنيا والمناصب العالية في الحكومات فيأبون إلا فراراً ، ويلجأون إلى هذا المحيط الهاد إلى الروحي ، ويكبون على إصلاح باطنهم وسل حظ الشيطان منه .

وتتعدى في الحضارة إلى أواسط القرن الثالث عشر الهجري وقد احتل الإنجليز الهند ، ولما تؤثر حضارتهم وفلسفة حياتهم في مجتمع البلاد ، فترى بقايا من الحياة الدينية الأولى ، ويحدثنا مؤرخ (٢) عن زاوية الشيخ غلام على الدهلوي ، (م ١٢٤٠ هـ) فيقول :

« رأيت بعيني في هذه الزاوية رجالاً من الروم والشام وبغداد ومصر والحبشة قد بايعوا الشيخ ، وعدوا المشول بين يديه حسنة الدهر وسعادة العمر . أما الوافدون من البلاد القرية كالهند وأفغانستان فكانوا كالجراد ، ولا يقل عدد المقيمين في هذه الزاوية عن خمسمائة رجل تقوم الزاوية بنفقاتهم (٣) » .

ويجيل الشيخ رؤوف أحمد المجددي نظره في رجال هذه الزاوية اليوم الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٢٣١ هـ فيجد رجالاً من سمرقند وبخارى وتاشقند وحصار وقندهار وكابل وبشاور وكشمير والملتان ولاهور وسرهند وأمرويه وسبنهل ورامبور وبريلي ولكهنؤ وجائس وبهرائج وكور كهبور وعظيم آباد ودهاكة ، وحيدر آباد ، وبونه وغيرها (٤) .

(١) در المعرف .

(٢) هو السير السيد احمد خان صاحب الدعوة إلى التعليم الإنجليزي في الهند ومؤسس الجامعة الشهيرة في عليكرة .

(٣) آثار الصناديد (الأوردية)

(٤) در المعارف (الفارسية) .

وليعرف القارئ أن هذا كله فى زمان لم تحدث فيه طرق النقل الحديثة فكان كله مشياً على الأقدام وسفراً فى القوافل .

وتجلى المناظر الأخيرة لهذا العهد الراحل فى تاريخ مصلح الهند الكبير والمجاهد الشهير السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦ هـ) فإذا قرأت تاريخه وجولاته فى الهند لأجل بث دعوته إلى التوحيد واتباع السنة والجهاد رأيت ألفاً يتوبون من الذنوب والآثام والشرك والمحدثات ، حتى تقفر الحانات وتغص المساجد ، ويتسابقون فى دعوته هو ورفقته الذين يعدون بالمشات إلى بيوتهم وصنع الولائم لهم ، ويستهنون فى سبيل ذلك بالأموال ، ويسترخصون كل عزيز وغال حتى يتقارعوا بينهم أيهم يبدأ وأيهم يتقدم .

وترى فى المسلمين شهامة فى سبيل الدين وعلو همة وسماحة نفس وأريحية لا تعدها بعد ذلك ، فلما خرج السيد للحج عام ١٢٣٦ هـ ورفقته أكثر من سبعمائة رجل ضيف المسلمون هذا الركب فى كل محل يمر به ، من رأى برىلى مسقط رأسه إلى كلكتة حيث ركبوا السفن ، ولما نزل بالله آباد ضيفه الشيخ غلام على ، وأقام هذا الركب ضيفاً عليه خمسة عشر يوماً ، واجتمع الناس من القرى والضواحي وكلهم يأكلون على مائدة الشيخ الطعام الفاخر ، هذا عدا الهدايا التى أهداها إلى أهل الركب والكسوة والزاد الذى قدمه ، وفى أثناء الرجوع لما حلت القافلة قريباً من مدينة مرشد آباد فى طريقها من كلكتة إلى رأى برىلى قام ديوان غلام مرتضى بضياقتهم وأعلن فى السوق أن كل من يشتري من أهل القافلة أو يستأجر منهم أهل الصناعة فهو يؤدى الثمن من عنده ، وكلمه السيد فى هذا فقال : حسبى من الفخر والشكر أنى أقوم بخدمة الحجاج .

وترى فى الناس رقة فى القلوب وانقياداً للحق وخضوعاً للشرع ، فقد تشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين فى هذا السفر ، وكان الناس ينهالون من كل صقع ويدخلون فى الخير أفواجا ، حتى إن المرضى فى مستشفى مدينة بنارس أرسلوا إلى السيد يقولون : إنا رهائن الفراش وأحلاس الدار فلا نستطيع أن نحضر فلو رأى السيد أن يتفضل مرة حتى تنوب على يديه لفعل ، وذهب السيد وبايعهم .

وأقام فى كلكتة شهرين ، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون فى البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً ، وتستمر البيعة إلى نصف الليل ، وكان من شدة

الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم والناس يسكونها ويتوبون ويعاهدون الله ، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثمانى عشرة مرة .

وخطب السيد فى الناس فى كلكتة خمسة عشر أو عشرين يوماً ، وكان يحضر هذه المواعظ نحو ألفين من وجهاء البلد والعلماء والشيوخ فضلاً عن عامة الناس والدهماء ، وكذلك رفيقه الشيخ عبدالحى البرهانوى كان يذكر كل يوم جمعة ويوم الثلاثاء بعد صلاة الظهر إلى العصر ، والناس يتساقطون عليه كالفراش ، ويسلم كل يوم عشرة أو خمسة عشر رجلاً من الكفار .

وكان من تأثير هذه المواعظ ودخول الناس فى الدين وانقيادهم للشرع أن تعطلت تجارة الخمر فى كلكتة وهى كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز ، وكسدت سوقها وأقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة متعللين بكساد السوق وتعطل تجارة الخمر .

ولما دعا السيد الإمام إلى الجهاد لبى الناس من كل طبقة دعوته فى نشاط وحماسة ولحقوا به ، وترك الفلاحون سيكتهم وأقل التجار دكاكينهم وغادر الناس أوطانهم وتغربوا فى دين الله ولم يتلفتوا إلى ما وراءهم ولم يلوا على شئ حتى قتلوا فى سبيل الله فى وادى بالاكوت عام ١٢٤٦ هـ فى الثغور ، ورجع فلهم إلى قلل الجبال فاعتصموا بها وقضوا نحبهم فى الجهاد .

هذا كله والحضارة الإسلامية فى الهند فى الاحتضار والحكومة الإسلامية فى انهيار ، ولكن لم يزل فى الناس بقية من الأنفة الإسلامية والحمية الدينية والإنابة الى الله والفرار إليه وسرعة الإجابة للداعى إلى الله ، والاستهانة بالحياة الدنيا وبذل النفوس والنفائس فى سبيل الله .

ورسخت قدم الإنجليز وأصبح نظامهم التعليمى - وهو من أكبر جنودهم - يؤتى أكله كل حين ، وتسربت فى الناس أفكارهم وميولهم ، فصارت تقلب نظام الحياة ونظام الفكر فى الهند رأساً على عقب من حيث لا يشعر أهلها فتقاصرت الهمم فى الدين وخمدت جذوة القلوب وانطفأت شعلة الحياة الدينية ، وانصرفت الرغبات والأهواء والتنافس الطبيعى - الذى هو الدافع الأكبر إلى التقدم والإبداع - من الدين والروحانية إلى المعاش والمادة ، وقلت مرغبات الجهد فى الدين والعلم وما

يتصل بالروح والقلب ، وتوافرت المزهديات والمنشطات عنه ، وكثرت الدواعي والحافزات إلى ضده ، واتجه تيار الذكاء والنبوغ والعبقرية - الذى كان متجهاً من قبل الى الدين - من صنوف الدين وأقسام العلم الدينى والروحى ، إلى الإنتاج والإبداع فى أنواع علوم المعاش ومرافق الحياة .

وكان لا يزال بالعهد الراحل رمق وبقية من حياة تنازع الموت وتحاول البقاء ، فكان لا يزال فى الناس رجال يدعون إلى الدين وإصلاح النفوس وتنزيهاها وتهذيب الأخلاق وتصفيها ، وهم تذكار لسلفهم فى زهدهم فى الدنيا والإقبال على الآخرة والإخلاص واتباع السنة ، وكانت لا تزال لهم دعوة فى الناس ، والمسلمون يعدون الاتصال بهؤلاء والتمسك بأهدابهم حقاً من حقوق الدين وواجباً من واجبات الحياة وكان بعض الأغنياء والأمرء وأرباب الدنيا ، لهم اهتمام زائد بحسن الخاتمة وأمور الآخرة وضلاح القلب وعمارة الباطن ، ولكن كان هذا كله أشبه بالتهاب السراج قبل الانطفاء ، فقد ذوى أصل الشجرة الدينية ، وانقطعت عنها مادة الحياة ، وهب عليها إعصار فيه نار .

سرى الشك وسوء الظن فى الأوساط الدينية والبيوت العريقة فى الدين والعلم بتأثير المحيط وتأثير التعاليم الإفرنجية وضعفت الثقة بالله وبصفاته وبمواعيده ، فأصبح الآباء يرضون بأولادهم على الدين ، ولا يخاطرون بأوقاتهم وقواهم فى سبيل الدين وعلوم الدين ، وأصبحوا يعلمونهم العلوم المعاشية واللغات الإفرنجية ، لا رغبة فى تحصيل المفيد النافع ولا دفاعاً عن الإسلام بل زاهداً فى الدين وفراراً من خطر المستقبل وخوفاً على أفلاد أكبادهم من الضياع واستسلاماً للدهر المتقلب ، وتسلط عليهم خوف الفقر حتى أصبحوا من خوف الموت فى الموت .

وهكذا انقرض هذا الجيل وطوى هذا البساط ، ولفظ هذا العهد الروحى نفسه الأخير ، وتلاه عهد المادة ، وأصبحت الدنيا سوقاً ليس فيها إلا البيع والشراء .

* طغيان المادية والهدية *

رووا أن شاعرة جاهلية هى « كبشة بنت معد يكرب » عانت أختها عمرو بن معد يكرب ، وغيرته بميله إلى قبول دية أخيه المقتول فقالت :

ودع عنك عمراً إن عمراً مسالم

وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم ؟

ما تتصور المرأة الجاهلية البسيطة أن بطن إنسان يتجاوز مقدار شبر فكيف لو رأت معدة الإنسان الحاضر ابن القرن العشرين ، تضخمت وكبرت حتى وسعت الأرض وتجاوزت حتى أصبحت لا يملؤها إلا التراب .

نعم تضخمت معدة الحرص في الإنسان حتى صارت لا يشبعها مقدار من المال ، وتولد في الناس غليل لا يروى وأوار لا يشفى ، وأصبح كل واحد في قلبه جهنم لا تزال تبتلع وتستزيد ، ولا تزال تنادى هل من مزيد ؟ هل من مزيد ؟ تسلط على الناس - أفراداً وأماً - شيطان الجشع والحرص فكأن بهم مساً من الجنون ، وأصبح الإنسان نهماً يلتهم الدنيا التهاماً ، ويستنزف موارده حلالاً وحراماً ، ثم لا يرى أنه قضى لبياته وشفى نفسه ، والعهددة في ذلك على وضع الحياة الحاضرة وطبيعتها وكونها مادية صرفة لا تؤمن بالآخرة ، وخلق بمن لا يعتد إلا بحياته الدنيا ولا يرى وراءها عالماً آخر وحياة ثانية أن تكون هذه الحياة بضاعته ورأس ماله وأكبر همه وغاية رغبته ومبلغ علمه ، وأن لا يؤخر من حظوظها وطيباتها ولذائذها شيئاً وأن لا يضيع فرصة من فرصها ، ولأى عالم يدخر وهو لا يؤمن بعالم وراء هذا العالم ، ولا بحياة بعد هذه الحياة ؟

وقد عبر عن هذه النفسية الجاهلية الشاعر الجاهلي الشاب طرفة بن العبد في صراحة وبساطة فقال :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

كريم يروى نفسه في حياته

ستعلم إن متنا غداً أينما الصدى

وكل إنسان متمدن اليوم - إلا من عصمه الله بالإيمان - يرى هذا الرأي ويذهب هذا المذهب في الحياة ، إلا أنه قد يجروء على أن يصرح به ، وقد لا يملك ذلك اللسان البليغ الذي يعبر عن ضميره ، والسبب الثاني : هو الأدب العصري - بمعناه الواسع - الذي لا يتحدث إلا عن المادة وأصحابها ، ويخنع لأهل الثراء

وأصحاب الاحتكار وأصحاب الإنتاج ، الخنوع الذى لا يليق بالأدب الشريف العالى ، فيكتب دقائق حياتهم فى تفصيل ، وينشر ألقابهم وأسماءهم بقلم عريض وكل نفس من أنفاس مدحه وتقريظه وكل فصل من فصول روايته ينتهى الى نتيجة مادية أو إلى بطل من أبطال المادة ، ويزين للقارئ المذهب الأبيقورى تارة بالتلميح وتارة بالتصريح ، ويحث الشباب على التهام الحياة وانتهاج المسرات ثراً وشعراً وفلسفة ورواية وتحليلاً وتصويراً ، فلا ينتهون منه إلا بالروح المادى والتقديس لرجال المادة .

وكذلك المجتمع الذى لا يقدر إلا الغنى الظريف متناسياً كل ما فيه من رذيلة ولؤم أصل وسوء خلق ، ويتجنى على الإنسان الذى لا يرجح فى ميزانه مهما كثرت مواهبه وطاب عنصره وسما جوهره ، ويلمح وقد يصرح بأن الفقير لا يستحق الحياة ، ويعامله معاملة الدواب والحمير والكلاب ، فيرغم الإنسان - إذا لم يكن ثائراً على المجتمع - على أن يخضع لشرعية مجتمعه ، وأن يتجمل ويتطرف لمجتمعه ، فلا يلبس إلا لغيره ولا يتأنق إلا لغيره .

وهذا المجتمع لا تزال مقاييسه للشرف والظرافة تغير ومعاييره للإنسانية تتبدل وتتحور ومطالبه تتنوع وتكثر ، حتى يضيق الإنسان بها ذرعاً ويلجأ إلى طرق غير شريفة لتحصيل المال وإلى كدح وكد فى الحياة ، وهناك هموم تتوالى ولا تنتهى ومتاعب تتسلسل ولا تنقطع .

وزاد الطين بلة تنافس المصانع والمنتجين والصناع ، ففى كل صباح يتدفق على المدينة سيل جديد من أحدث المنتجات وأحدث طراز من السيارات والسجائر والأزياء والقبعات والأحذية والأدهان والأطلية وأسباب الزينة والزخارف والأجهزة ولا يجلب منها شئ قياماً بالواجب وسداً للعوز ، بل كله فى سبيل الاستغلال الصناعى والاحتكار التجارى ، ولا تلبث هذه المنتجات التى هى من فضول الحياة أن تدخل فى اصول المعاش ولوازم المدينة ، والذى لا يتحلى بها لا يعد من الأحياء .

ولهذه الأسباب ولغيرها ارتفعت قيمة المال فى عيون الناس ارتفاعاً لم تبلغه فى الزمن السابق ، وبلغ من الأهمية والمكانة مبلغاً لم يبلغه - على ما نعرف - فى دور من أدوار التاريخ المدون ، وأصبح المال هو الروح السارى فى جسم المجتمع البشرى والحافز الأكبر للناس على أعمالهم ونشاطهم المادى ، وقد يدفع المخترع إلى الاختراع

والصانع إلى صناعته والسياسى إلى مقالته والمرشح إلى انتخابه والعالم إلى تأليفه ، حتى القنادة إلى الحرب ، فهو القطب الذى تدور حوله ربحى الحياة العصرية كما يقول الأستاذ « جود » معلم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن : « إن النظرية المهيمنة السائدة على هذا العصر هى النظرية الاقتصادية ، وأصبح البطن أو الجيب ميّزاً لكل مسألة فبمقدار اتصالها بالجيب وتأثيرها فيه يقبل الناس عليها ويعنون بها ».

إذا حكمت على عصرك وطبائعه وأذواقه وأنت بمعزل عن الحياة ، وبنيت حكمك على مؤلفات ومقالات إنما تكتب فى زاوية من زوايا المكتب فإنك تغالط نفسك ، وقد تقرأ فى هذه الكتب الفلسفية أو المقالات العلمية التحليلية كأنك فى عصر متمدن راق تتحكم فيه معايير الأخلاق وتسود فيه المثل العليا ويغشاها سحاب الفضيلة والنبيل ، وتحلق عليه روح الديانة والعلم ، ولكن الواقع غير ذلك ، فإن هذه الكتب إنما ألّفت فى عالم الخيال الذى يعيش فيه مؤلفوها ، وإن أهواءهم وأذواقهم هى التى خلقت لهم عالماً خيالياً يصفونه ويصورونه فى كتبهم ، حتى يخيل إلى القارئ أنه هو العالم المحيط به .. وللأهواء عجائب وخوارق .

ولكنك إذا اتصلت بالحياة عن كثب لا عن كتب ، وخالطت الناس ودرست أحوالهم وأصغيت إلى حديثهم فى البيت وفى القطار والبستان وعلى المائدة وفى السمر ، رأيت (الذهب) حديث النوادى وشغل الألسنة وهوى القلوب والبداية والنهاية فى كل موضوع ، والقطب الذى تدور حوله ربحى الحياة . إن شاعراً عربياً يلعن الصعلوك الذى لا يتعدى نظره ولا يسمو فكره عن لباس وطعام ويقول :

لحاً الله صعلوكاً مناه وهمه

من العيش أن يلقي لبوساً ومطعماً

فكيف إذا أشرف هذا الشاعر على هذه المدنية وهى تجرى بفلاسفتها وسياسيينها ونوابغها وعلمائها وكتابها وأشرافها وأغنيائها وفقرائها وراء غاية لا تتعدى لبوساً ومطعماً مهما تنوعت أشكالها وتضخمت ألقابها ؟! فالحياة كلها جهاد فى سبيل اللباس والطعام .

* التدهور في الأخلاق والمجتمع *

احتل الأجانب الشرق الإسلامي وقد أصاب المجتمع الشرقي الإسلامي انحطاط في الأخلاق والاجتماع ، وسبقت إليه أدواء خلقية واجتماعية كانت أهم أسباب انهيار الدول الإسلامية وانهزام الأمم الشرقية .

ولكن مع ذلك لم يزل المجتمع الشرقي الإسلامي - على علته - محتفظاً ببعض المبادئ الخلقية السامية والخصائص الاجتماعية الفاضلة التي لا يوجد لها مثيل في الأمم ، وقد نضج واكتمل فن الأخلاق عند الشرقيين ووصل من الدقة والتفصيل واللطافة ورقة الحواشي ذروة لا يصل إليها ذهن العصر ، ولا يتصورها الغربي إلا في الشعر والأدب .

يقرأ الإنسان أو يسمع روايات عن استحكام الروابط والأواصر بين أعضاء المجتمع العام وأفراد الأسرة ، وتغلغلها في الأحشاء واستمرارها إلى الأحقاب والأجيال وخلوها من كل مصلحة ومتعة مادية ، ما لا يتصوره أبناء هذا العصر . وكذلك من حنو الآباء على الأبناء وبر الأبناء بالآباء ، وتوقير الصغير للكبير وحذب الكبير على الصغير ، وعن عفاف النساء ووفاء الحلائل وأمانة الخدم ووفائهم واستقامة الشبان وثباتهم على الأخلاق ومعاملة الأشراف بعضهم لبعض ، والحافضة على الرواتب والعادات والاطراد في مسألة اللباس والشعائر والعشرة ، والإيثار في شأن الأصدقاء والنصح لهم ، يسمع منها غرائب لا يكاد يصدق بها .

كان بر الأبناء للآباء وطاعتهم إلى حد التفاني في سبيلهم والاضمحلال في وجودهم منتزعا من قول النبي ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » .

وكان حب الأبناء لآبائهم وبرهم وحرصهم على أداء حقوقهم غير مقتصر على حياة الأبوين ، بل كان يستمر إلى ما بعد وفاتهما بصلة أصدقائهما ، وأهل أنسهما والإهداء إليهم والتعجب إلى أولادهم وعشيرتهم ، وكان ذلك عملاً بقوله ﷺ : « إن من أبر البر بر الرجل بأهل ود أبيه بعد أن يولي » .

وكان الأبوان مثلاً للنصح والإخلاص في حبهما للأولاد ، وكانا يضحيان بجميع أهوائهما وميولهما وراحتهما وبلذة الأمومة والأبوة في سبيل تثقيفهم وتربيتهم وتعليمهم ، ويتحملان في ذلك - حتى الرجل الأمي والمرأة الجاهلة - إجحاف المعلمين في ذلك وعسفهم وإضرارهم في بعض الأحيان بجسم الصغار ،

(١) رواه أبو داود - البيوع رقم ٣٥٣٠ ، وابن ماجه - التجارات رقم ٢٢٩١ و ٢٢٩٢ .

(٢) رواه مسلم - بر رقم ٢٥٥٢ ، والترمذي - البر رقم ١٩٠٤ ، وأبو داود - الأدب رقم ٥١٤٣ .

ويجرعان المرائر ويصبران على الغصص في سبيل الأولاد ونبوغهم ، وقد تواضع على ذلك أهل البيوتات والشرف حتى أهل الطبقات الوضيعة ، ويعدون من خالف ذلك رجلاً نذلاً لثيماً ، والذي روى عن هارون الرشيد في تنبيهه لولديه الأمين والمأمون ووصيته لهما بخدمة الكسائي معروف في التاريخ ، ومن غرائب ما يروى في هذا الباب ويمثل الطبيعة الشرقية أن « تاج الدين آذر » أمير الأفغان بعد السلطان شهاب الدين الغوري أسلم ولده إلى معلم وضرب المعلم الولد حتى مات ، فلما علم بذلك « تاج الدين » أشار على المعلم بأن يهرب وقال : « لا آمن عليك من أم الولد فعسى أن ينالك منها مكروه » .

وكانت الرابطة بين الصغير والكبير في المجتمع الإسلامي مؤسسة على تعاليم الشرع « من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا فليس منا » .

ومن خصائص الحضارة الشرقية الاطراد في الحياة والمحافظة على لون واحد والتظاهر بمظهر واحد ، فكان الرجل إذا شرع في أمر وتظاهر بمظهر واصله إلى غايته ، وإذا اتخذ عادة أو شارة في اللباس أو عامل أحداً نوع معاملة واطب عليه إلى آخر أنفاسه ، لا تؤثر في ذلك الحوادث ولا تغيره الفصول ولا انحراف الصحة ولا الكسل ولا المصالح .

ولم يكن العمد في حياة الأسرة والقبائل ولم يكن الميزان في التوقير والشرف هو كثرة المال فيختلف المستوى المالي في أسرة اختلافاً كبيراً ، ويتفاوت الرجال في قبيلة أو قوم تفاوتاً عظيماً في المال والجاه ، فهذا ثرى مشر وذلك فقير معدم ، ولم يكن يستطيع أحد أن يفرق بينهم ويرفع بعضهم فوق بعض لأجل التفاوت الاقتصادي في مجتمعات الأسر والبيوتات والمآثم (بمعناها اللغوية) فإذا شم أحد رائحة الفرق أو نظرة الأزدراء ، ثار كالليث ، أو إذا بدرت بادرة من المضيف تنم عن هذا الفصل انسحبت الأسرة كلها من الضيافة وقاطعوا أهل الضيافة ، وكانوا يداً واحدة مع أخيه المهنوم .

وكان الفقير الصعلوك في قبيلة يواجه الأغنياء والملوك من تلك القبيلة بجرأة وهو معتز بنفسه معتد بشرفه لا يرى في نفسه نقيصاً لأجل فقر ، وكان الغنى أو الملك يكرمه ويحله المحل اللائق بشرفه ونسبه وفضيلته الذاتية ، بصرف النظر عن رثاءة هيئته وتبذله ، والأزمة الاقتصادية الطارئة على كرم عنصره وصفاء معدنه

وطيب منبته ومثانة دينه ووفور علمه .

وكان الفقير فى ذلك يبالغ كثيراً فى إخفاء عسرتة وضنك معيشته ويتحمل ويتجلد ، ويسوءه أن يظن أحد إلى فاقتة ورقة حاله .

وكان ضمير الحر عزيزاً محترماً كدينه وعرضه ، لا يساوم عليه ولا يباع بأى ثمن ، وكان الواحد يفضل الموت الأحمر على كذبة أو خيانة يخلص بها نفسه من الموت .

وقد روى لنا التاريخ الهندى طرائف فى هذا الباب لابد أن تكون أمثلتها متوافرة فى تاريخ جميع البلاد الإسلامية : منها أن الشيخ رضى الله البدائى اتهم بالاشتراك فى الثورة على الإنجليز عام ١٨٥٧ وحوكم أمام حاكم إنجليزى كان من تلاميذه ، فأوعز إليه الحاكم على لسان بعض الأصدقاء أن يجحد الاتهام فيطلقه ، ولكن الشيخ أبى وقال : قد اشتركت فى الخروج على الإنجليز فكيف أجحد ؟ واضطر الحاكم فحكم عليه بالإعدام ، ولما قدم للشنق بكى الحاكم وقال له : حتى فى هذه الساعة لو قلت مرة : إن القضية مكذوبة على ، وإنى برىء لاجتهدت فى تخليصك ، فغضب الأستاذ وقال : أتريد أن أحبط عملى بالكذب على نفسى ؟ لقد خسرت إذاً وضل عملى ، بل قد اشتركت فى الثورة فافعلوا ما بدا لكم وشنق الرجل !!

ولم يكن صدقهم واعترافهم بما يعملون ويعتقدون مقتصرأ على ما يتصل بأنفسهم ، بل كانوا صادقين فيما يتصل بالأمّة والشعب ، فلم يكونوا يعرفون العصبية الجنسية والوطنية والجنف القومى الذى أصبح اليوم من واجبات الجنسية والوطنية ، وكانوا يعدون الكذب وشهادة الزور لأجل الأمّة والوطن والملة رذيلة وإثماً كبيراً . وكانوا يعتقدون أن أحكام الشرع تعم الفرد والأمّة والأمر الشخصية والاجتماعية وكانوا متمسكين بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ (١) الآية ، وقوله : ﴿ ولا يجرمكم شأن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ﴾ (٢) وقوله ﴿ وإذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ (٤) .

(١) آية ١٣٥ : النساء . (٢) آية ٨ : المائدة .

(٣) آية ٥٨ : النساء . (٤) آية ١٥٢ : الأنعام .

ومما يروى لنا الشيوخ من ذلك : أنه وقع نزاع بين الهنادك والمسلمين فى قرية كاندهلة من مديرية « مظفر نكر » فى الولايات المتحدة الهندية على أرض ، فادعى الهنادك أنها معبد لهم ، والمسلمون أنها لهم مسجد ، وتحاكموا إلى حاكم البلد الإنجليزى ، فسمع الحاكم القضية ودلائل الفريقين ولم يطمئن إلى نتيجة ، فسأل الهنادك : هل يوجد فى القرية مسلم تثقون بصدقه وأمانته أحكم على رأيه ؟ قالوا : نعم ، فلان ، وسموا شيخاً من علماء المسلمين وصالحيههم ، فأرسل إليه الحاكم وطلبه الى المحكمة فلما جاءه الرسول قال : قد حلفت أن لا أرى وجهه إفرنجى ، ورجع الرسول فقال الحاكم : لا بأس ، ولكن احضر وأدل برأيك فى القضية ، فحضر الشيخ وولى دبره الى الحاكم وقال : الحق مع الهنادك فى هذه القضية ، والأرض لهم . وبذلك قضى الحاكم وخسر المسلمون القضية ، ولكن كسبوا قلوب الهنادك وأسلم منهم جماعة .

وكذلك كان الناس يعدون العلم عارية مقدسة ووديعة من الله لا يبيعونه كسلعة فى السوق ، ولا يتعاونون به على إثم آثم وعدوان معتد ، وكانوا لا يرضون أن يستعين به نظام جائر أو حكومة غير إسلامية .

ومما حكى لنا الثقات وقرأناه فى التاريخ أن الشيخ عبدالرحيم الرامبورى (م ١٢٣٤ هـ) كان يعمل فى بلدة رامبور براتب زهيد يتقاضاه كل شهر من الإمارة الإسلامية لا يزيد على عشر روبيات (أقل من جنيه مصرى) ، فقدم إليه حاكم الولاية الإنجليزى المستر هاكنس وظيفة عالية فى كلية بريلى راتبها مائتان وخمسون روبية (تسعة عشر جنيهًا مصرياً) ، وذلك يساوى خمسين جنيهًا فى هذا العهد ، ووعد بالزيادة فى الراتب بعد قليل ، فاعتذر الشيخ عن قبوله وقال : إنى أتقاضى عشر روبيات وإنها ستقطع إذا تحولت إلى هذه الوظيفة ، فتعجب الإنجليزى وقال : ما رأيت كالיום : أنا أقدم راتباً يزيد على راتبك الحالى بأضعاف أضعاف ، وتترك الأضعاف المضاعفة وتقع بالنزير اليسير ! . فتعلل الشيخ بأن فى بيته شجرة سدر وهو مغرم بثمرها وأنه سيحرمها إذا أقام فى بريلى ، ولم يفتن الإنجليزى بعد إلى مقصود الشيخ . فقال : أنا زعيم بأن هذا الثمر يصل إليك من رامبور إلى بريلى ، فتشبت ثالثة بأن حوله طلبة وتلاميذ وقرؤون عليه فى بلده فلو انتقل إلى هذه الوظيفة انقطعت دروسهم . ولم يئأس الإنجليزى المناقش من إقناعه فقال : أنا أجرى لهم

جرايات فى بريلى ويواصلون دروسهم هناك ، وهنا أطلق الشيخ آخر سهامه الذى أصمى رميته فقال : وماذا يكون جوابى غداً إذا سألتنى ربى : كيف أخذت الأجرة على العلم ؟ وهنا بهت الإنجليزى وسقط فى يديه وعرف نفسية العالم المسلم ، وقضى الشيخ حياته على أقل من جنيته يأخذه كل شهر .

قارن هذه الروح السامية والنفس الكبيرة التى تربأ بالعلم ان يباع بيع السلع ، وتغار على العقيدة والكرامة أن تشتري بمال أو منفعة ، بهذا التبادل والإسفاف الذى وصل اليه اهل العلم والعقل والصناعة فى هذا الزمان ، فقد عرض كثير من علمهم وعقلهم وما يحسنونه كالسلع فى الأسواق ، يبيعونها بالمناداة (المزاد العلنى) ليشتريها من يزيد فى الثمن كائناً من كان ، فليس الشأن عندهم فى العقيدة ولا فى الغرض والنتيجة ولا فى الملاءمة والذوق ، إنما الشأن عندهم فى الثمن الذى يدفعه المشتري .

وكل يوم نطلع على مضحكات مبكيات فى هذا الباب ، فهذا الأستاذ كان أمس فى معهد إسلامى يدرس العلوم الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، وقدمت إليه الكلية الكاثوليكية الفلانية وظيفة تدريس براتب يزيد على راتبه السابق بخمسة جنيهات فانتقل إليها ، وهذا السيد فلان كان فى وزارة المعارف سابقاً ، وكان شاباً مثقفاً وعالمًا له هوى فى التحقيق والدراسة ، تقرأ له مقالات علمية فى المجلات الراقية فإذا به ينتقل فجأة إلى مصلحة الطيران أو الإذاعة ، وسألناه : ماذا حدث له حتى غير طريقه وقلب تيار حياته ؟ فأخبرنا أن ذلك لأجل أن يربح فى مركزه الجديد عشرة جنيهات ، وهذا البحاث الفلانى كتب مقالة عن التصوف الإسلامى ونال بها ثناء أهل العلم قد تحول إلى وزارة الخارجية أو أصبح ترجمان دولة أوربية ، وما هو إلا لأجل زيادة بمقدار بضعة جنيهات ، أو ليس هذا لأن الربح المالى قد أصبح كل شئء ولأن الذهب اللماع أصبح المتصرف الوحيد فى مناهج الحياة والمسيطر الوحيد على الأرواح والعقليات ؟!

قرأنا فى التاريخ الإسلامى أن المنصور الخليفة العباسى المشهور طلب من ابن طائوس فى مجلس أن يناوله الدواة ليكتب شيئاً فامتنع ، فسأله الخليفة عن سبب امتناعه وعدم امتثاله أمر خليفة المسلمين ، فقال : أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها ومتعاوناً على الإثم والعدوان . إلى هذا الحد وصل بهم تمسكهم بقوله

تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (الأنعام: ٢ المائدة) أما امتناعهم عن قبول منصب القضاء في نظام لا يرضونه ولا يرتاحون إلى سيره وتفاصيله فرواياته بلغت حد التواتر، اطردت في أدوار الحياة الإسلامية الأولى.

قارن هذا الاحتراس من التعاون على الإثم والعدوان ، وهذا التعفف عن المشاركة في نظام غير صحيح ، والامتناع من أدنى مساعدة لهدف لا يتفق ومصالح الأمة الإسلامية أو يعود عليها بالضرر أو فيه غش وخديعة للأمة ، قارن كل ذلك بهذه المساعدة والتعاضد الذي تتمتع به الحكومات الأوربية من المسلمين ، وهذا الذكاء واللباقة والقلم البليغ واللسان الذلق الذي ينتفع به الأجانب منهم في مصالحهم وإداراتهم .

فهناك شبان مسلمون وكتاب بارعون يتولون تحرير الصحف والمجلات التي تصدرها الحكومات الأجنبية لنشر دعايتها في بلاد المسلمين والتأثير في عقليتهم ونفسياتهم وتمويه الحقائق بمقدرة المأجورين من المسلمين أنفسهم .

وهناك جماعة من « الأفاضل » ينحدرون من أصول عربية صميمة ، وينتمون إلى بيوتات عريقة في المجد والإخلاص والإسلام ، قد جاهد آباؤهم في سبيل الحق ومحق الباطل ، وبقيت نسبتهم في أسمائهم تروى لنا تاريخاً مجيداً عن آبائهم حافلاً بجلال الأعمال ، وجرى دمهم في عروقهم ، وظهر في ملامح وجوههم وتقاطيعها ، يشتغلون اليوم في الحكومات الأجنبية ، ويستعملون تلك اللغة المضرة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم ، والتي تكلم بها رسل المسلمين في مجالس ملوك فارس والروم ، فأدوا بها رسالة الإسلام ، وألقوا المهابة في قلوبهم ، والتي ألقى بها القواد المسلمين خطب الجهاد ، بهذه اللغة الكريمة التي لا تليق إلا للبطولة الإسلامية ، وتلك الكلمات الفصيحة الرائعة التي لا تحمل إلا في مواضع الحق والجهاد ، ينشر هؤلاء دعاية الحكومات الأجنبية التي تعبت بالمسلمين عبث اللاعب بالكرة ، أو عبث الوليد بجانب القرطاس ، وقد رزأتهم في سياستهم واستقلالهم وإيمانهم وعقلهم واقتصادهم ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عامنون .

قد سمعنا منهم أن هذه الحكومات تقوم بجهود نبيلة لخير العروبة والإسلام ورفع شأنهما . وأنها « نور الحرية الوضاء في عالم ساده الظلام الدامس » ، وقد

سمعناهم يشيدون « بالخدمات الجلى والمساعدات العظيمة التى تقدمها الإذاعة البريطانية فى سبيل نهضة الأقطار العربية وتوحيد تفكيرها وثقافتها وتوثيق الروابط بينها ، وما تقوم به من نشر الثقافة العربية الإسلامية ، وتعريف المسلمين بتاريخهم المجيد ومدنيتهم الزاهرة ، وإطلاع العالم العربى على حقائق الأمور ، وسير الحوادث فى نزاهة وتجرد وصدق ^(١) » ولطالما سمعناهم وقرأنا لهم إشادة بإيمان هذه الحكومات بالديمقراطية الصحيحة وجهادها لتوطيد الأمن العام وسلام العالم وحرية الأمم المستضعفة والبلاد المهضومة ، ورفعها لراية العدل والمساواة ، والأخذ للمظلوم من الظالم ، وقيامها للحق .. إلخ .

فإذا كان هؤلاء المتحدثون لا يرضى ضميرهم بما يقولون ، ويعرفون أن هذه الكلمات فى غير محلها ، وإنما هو كله لمصالحهم المالية ، فيالانحطاط النفس الشريفة ، وبالرخص السلعة الغالية ، وبإضاعة الكلمات العامرة بالمعانى ، وبإشقاء اللغة العربية بأهلها ! . وإذا كان ذلك عن اعتقاد وثقة وفهم للمعنى ، فيا جهلاً بالحقائق ، وبإنكاراً للمحسوس ، وبإسحاقاً للقلوب ! .

وهذا عصر التناقش فيكتب أديب أو صحافى اليوم كتاباً حماسياً فى سيرة بطل من أبطال الجهاد الإسلامى ، أو مجدد من مجددى الإسلام ، ولا يجف مداد مقاله أو كتابه ذلك حتى يكتب بقلمه تقريراً أو ثناء على خائن من خونة الأمة ، أو صنعة من صنائع الأجانب لمصلحة سياسية ومنفعة مالية ، ولا يرى فى ذلك تناقضاً . طلب ملك من ملوك العرب من شاعر عربى فرسه ، فاعتذر أن يعطيها بأى ثمن كان وقال :

أبيت اللعن إن سكاب علق

نفيس لا تعار ولا تباع

ولكن كأن الضمير عند هؤلاء الذين يشتغلون فى الحكومات الأجنبية ، أو يذيعون من محطاتها ما لا يرضى به ضميرهم ولا يصدق علمهم ، أو يصدرن صحفاً ، أو يؤلفون كتباً على جعالة أو راتب شهري ، أذل وأرخص من جواد الجاهلى فهو يعار ويباع ، وذلك لم يكن ليعار ولا ليبيع .

(١) الكلمات التى بين القوسين منقولة لفظاً .

وكانت الروابط والأواصر في الشرق - في الغالب - قائمة على أساس غير مادي إما عقلي وإما روحي ووجداني ، وكان للأثرة والأنانية فيها نصيب ضئيل ، وكان نتيجة ذلك وجود روابط وأواصر لا يمكن تعليلها بالمادة وجر النفع إلى أصحابها ، وكانت هذه الروابط متغلغلة في الأحشاء ، فمن ذلك أن علاقة التلميذ بأستاذه وإخلاصه وحبه له في العهد السابق ، يزرى بعلاقة الولد بوالده وحبه له في هذا العصر .

اشتهر نبأ وفاة الأستاذ الشهير العلامة نظام الدين اللكهنوي (م ١١٦١هـ) صاحب منهاج الدرس النظامي الجاري تطبيقه في الهند وخراسان ، فلما أتى النعي تلميذه السيد كمال الدين العظيمابادي ، مات من شدة الحزن ، وعمى تلميذه الآخر « ظريف العظيمابادي » من كثرة البكاء ، وتحقق بعد ذلك أن الإشاعة كانت غير صحيحة (١) ، ولعل ذهن هذا العصر لا يسيغ هذه الرواية ، ولكن الذي عرف طبيعة الشرق ومدى اتصال التلميذ هنالك بأستاذه وحبه له لم يستغرب هذه الرواية ولم يكذبها .

يعدم المطلع على تاريخ الأخلاق وفلسفتها أنه قد ظهرت مدرسة في أوروبا قبل المسيح بأربعة قرون ، وكان لها أنصار من كبار الفلاسفة والأخلاقين إلى القرن التاسع عشر المسيحي ، تدين باللذة البدنية وتعتقد أنها ميزان الأخلاق ومعيار الأعمال ، وتشير على أتباعها بأن يهتبلوا فرص التمتع بالحياة الدنيا ويغتنموا فلتات الدهر .

وافترق أصحاب هذه المدرسة فرقتين ، فمنهم (أولو الأثرة) الذين يقولون : ينبغي أن لا يحول بين الإنسان وشهواته حائل حتى لا يدع حاجة في نفسه إلا قضاه ، فينال بذلك النصيب الأكبر من اللذة والهناء وقالوا : السعادة هي إرضاء الشهوة وقضاء مآرب النفس واقتطاف المسرة واللذة باليدين .

(١) نزهة الخواطر للشيخ عبد الحي الحسني (الجلد السادس) .

والفرقة الثانية هم (النفعيون) ويرى أهل هذا المذهب أن الواجب هو تحصيل المنفعة التي ينال بها أكبر عدد من أفراد البشر أو فر قسط من اللذة والهناء ، ولا وزن للأفعال الخلقية في نظرهم إلا بما تأتي به المسرة لغالب بنى النوع ، ويرى هؤلاء أن السعادة هي أن تتوافر للناس بأعمالهم اللذات وتبعد عنهم الآلام .

ويرى القارئ ويلمس الروح المادى المتعشق للذة والهناء فى آراء هذا المذهب ونزعاته من أخطها وأكثرها إسفافاً إلى أرقاها وأكثرها تحليقاً ، وهذا يختلف عن طبائع الشرق وشرائع السماء اختلافاً بيناً ، وقد أثرت هذه النزعة المادية فى فلسفة الغرب وأخلاقه وأدبه وحضارته تأثيراً عميقاً ، ولا تزال مهيمنة على الحياة الغربية وآدابها حتى اليوم .

ثم نزعوا دائماً فى تشخيص المنفعة ووزنها إلى المادية لأنهم احتكموا فيها إلى أذهانهم وعقولهم ، وقد أصبحت مادية بحتة ، لأنها بحقيقة لا تأتي تحت الحس أو المساحة أو العد أو الوزن ، ولا تؤمن بمنفعة لا تجلب لذة وهناء ، حتى مؤسس هذا المذهب « أبيقور م ٢٧١ ق.م » صرح بأن مناط الحكم على الأعمال هي المنفعة ، وأن المنفعة لا قيمة لها إلا إذا اجتلبت لذة واغتباطاً ، فكيف وقد تدرجت العقول والطبائع الغربية ومردت على النزوع المادى على تعاقب الأجيال والعصور ؟!

فكان نتيجة ذلك أن ذهن الغربى والمنطق العصرى أصبحا عاجزين عن الاهتداء إلى منفعة غير محسوسة لا تجلب لذة واغتباطاً ، وأصبح العقل الأوربي محامياً عن المادية لا يحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع المادية ، وبحسب ما يكتسب المجتمع بواسطتها من اللذة والهناء ، والأفراد من الاغتباط والرخاء ، فأصبح الربح المادى هو الميزان للأخلاق والفارق بين الشر والخير وأصبحت الأخلاق التي لا وزن لها فى ميزان المادة ، ليس لها قيمة إلا القيمة الدينية أو الخلقية فى المصطلح القديم ينتقص كل يوم سلطانها على القلوب والعقول ، وتعدم أنصاراً وتصبح من شعائر القديم وذكريات العهد الماضى كحنان الأبوين وحبهما للأولاد ، ووفاء الأزواج وحفظهن للغيب ، وتحل محل هذه الأخلاق المقدرة الصناعية والاختراع والإنتاج والوطنية والجنسية ولا تزال ترتفع قيمتها ويرجع وزنها.

ولا يزال المجتمع العصري يستغنى عن الروابط المنزلية والارحام الدموية والشرائع الخلقية بتنظيمات اجتماعية شعبية . على الخطوط السياسية والصناعية والاقتصادية . ولا يهم المجتمع الآن كيف يعامل الولد والده أو الزوجة زوجها إذا كان هؤلاء الأفراد لا يزالون فى الدائرة المدنية التى اختلطها المجتمع حول أفرادهم ، ومادام لا يحدث عملهم هذا اضطراباً فى المجتمع وثورة على النظام ولا يعرقل سير المدنية فلا بأس إذا كان هنالك عقوق من ولد أو فرك من قرينة أو جفاء من زوج أو دعاره من امرأة أو فسق من رجل أو خيانة من زوجة .

★ ★ ★

الباب الخامس

قيادة الإسلام للعالم

الفصل الأول

نهضة العالم الإسلامي

* اتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية ،

لأسباب تاريخية عقلية ، طبيعية قاسرة ، ذكرناها فى البحوث السابقة ، تحولت أوروبا النصرانية جاهلية مادية ، تجردت من كل ما خلفته النبوة من تعاليم روحية ، وفضائل خلقية ، ومبادئ إنسانية ، وأصبحت لا تؤمن فى الحياة الشخصية إلا باللذة والمنفعة المادية ، وفى الحياة السياسية إلا بالقوة والغلبة ، وفى الحياة الاجتماعية إلا بالوطنية المعتدية ، والجنسية الغاشمة ، وثارت على الطبيعة الإنسانية والمبادئ الخلقية ، وشغلت بالآلات ، واستهانت بالغايات ، ونسيت مقصد الحياة ، وبجهادها المتواصل فى سبيل الحياة وبسعيها الدائب فى الاكتشاف والاختبار مع استهانتها المستمرة بالتربية الخلقية وتغذية الروح وجحودها بما جاءت به الرسل ، وإيمعانها فى المادية ، وبقوتها الهائلة مع فقدان الوازع الدينى والحاجز الخلقى ، أصبحت فيلاً هائجاً ، يدوس الضعيف ، ويهلك الحرث والنسل ، وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة ، وتنازلهم عن قيادة العالم وإمامة الأمة ، وبتفريطهم فى الدين والدنيا ، وجنابتهم على أنفسهم وعلى بنى نوعهم ، أخذت أوروبا بناصية الأمم ، وخلفتهم فى قيادة العالم ، وتسيير سفينة الحياة والمدنية التى اعتزل ربانها ، وبذلك أصبح العالم كله - بأئمه وشعوبه ومدنياته - قطاراً سريعاً تسير به قاطرة الجاهلية والمادية الى غايتها ، وأصبح المسلمون - كغيرهم من الأمم - ركاباً لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وكلما تقدمت أوروبا فى القوة والسرعة ، وكلما ازدادت وسائلها ووسائطها ، ازداد هذا القطار البشرى سرعة إلى الغاية الجاهلية حيث النار والدمار والاضطراب والتناحر والفوضى الاجتماعية والانحطاط الخلقى والقلق الاقتصادى والإفلاس الروحى ، وها هى أوروبا تستبطن الآن أسرع قطار ، وتريد أن تصل إلى غايتها بسرعة الطائفة بل بسرعة القوة الذرية .

* استيلاء الفلسفة الأوروبية على العالم *

وليس على وجه الأرض اليوم أمة أو جماعة تخالف الأمم الغربية فى عقائدها ونظرياتها وتزاحمها فى سيرها، وتعارضها فى وجهتها، وتناقشها فى مبادئها وفلسفتها الجاهلية، ونظام حياتها المادى لا فى أوربا ولا فى أمريكا، ولا فى أفريقية وآسيا، والذى نرى ونسمع من خلاف سياسى ونزاع بين الأمم فيما هو تنافس فى القيادة، وتنازع فيمن يكون هو القائد الى هذه الغاية المشتركة، فحول المحور إنما كانت تكبره ان يبقى الحلفاء مستبدين بالقيادة العالمية منذ زمن طويل، مستأثرين بموارد الأرض وخيراتها وأسواقها ومستعمراتها، وبشرف السيادة على العالم وحدهم مع انها لا تقل عنهم فى القوة والعلم والنظام والنبوغ والذكاء، بل ربما تفوقهم، أما إنها كانت تريد ان تسير الى غاية أخرى وأن تقوم بدعوة المسيح، وتقيم فى الأرض القسط، وان تقود الأمم الى الدين والتقوى وتنصرف بها وتتجه من المادية الى الروحانية والأخلاق فهيها هيهات .

أما روسيا الشيوعية فليست إلا ثمرة الحضارة الغربية، قد أينعت وادركت، ولا تمتاز عن الشعوب والدول الأوروبية إلا أن روسية قد خلعت جلباب النفاق والزور ونفذت ما تزوره وتبطنه الأمم الغربية منذ زمن طويل، وتعتقد منذ قرون فى الأخلاق والاجتماع، وقد استبطأت روسية سير هاتيك الأمم والدول فى سبيل الإلحاد واللادينية والإباحة والمادية البهيمية، فهي تريد أن تتولى قيادة العالم، وتسير بالأمم الإنسانية سيراً حثيثاً إلى ما وصلت إليه .

* الشعوب والدول الآسيوية *

أما الشعوب والدول الآسيوية والأمم الشرقية فهي فى طريقها إلى الغاية التى وصلت إليها شعوب أوربا فى الحضارة والسياسة، وتدين بما تدين به هذه الشعوب فى الأخلاق والآداب والاجتماع وتعتقد ما تعتقده عن الحياة والكون، وتحلى به من سيرة وخلق وتهذيب، إلا أنها لا ترضى أن يتولى أمرها الزلاء الأجانب ويقيموا عليها الحجر كما يقام على السفه، وأن تكون للأوربيين عليها دول وإمبراطوريات ينعمون فى ظلها ويرتعون فى جنباتها، ولا يكون لها مثلها فى الشرق وأفريقية وآسية ولا تستمتع حتى فى داخل بلادها بما استمتع به الأوربيون طويلاً حتى فى خارج بلادهم . أما إنها تنكر على الأوربيين ماديتهم وتنقم منهم أخلاقهم وسيرتهم وتنعى

عليهم فلسفتهم ومبادئهم فلعل ذلك لا يخطر منها على بال ، بل قد زين لها كل ما تتصف به الأمم الأوربية فحلا في عينها .

وكلما سنحت لهذه الأمم فرصة الاستقلال وملكت زمام أمورها تجلت أخلاقها ومبادئها وظهرت سيرتها الجاهلية في صورتها الطبيعية الحقيقة ، فإذا هي أفطع صورة وأبشعها في التاريخ ، قساوة قلب وضراوة بالدم الإنسانى وهتكاً للأعراض ونهباً للأموال وقتلاً وتدميراً ، وقد ظهرت من بعض هذه الشعوب الآسيوية على أثر استقلالها من الحكم الأجنبى فظائع ومنكرات تستبشعها الوحوش والسباع وتصتك منها الأسماك ، فقد عاملت بعض الشعوب المواطنة بعصبية دينية وسياسية ، معاملة عز نظيرها في التاريخ ، رضعاء يقتلون ويقطعون إرباً إرباً ونساء تهتك أعراضهن ثم يقتلن من غير رحمة ولا حياء ، وآبار تسمم وبيوت تهدم ونيران تشعل وقنابل تقذف ، وإذا دخلوا قرية فاتحين منتشرين أفسدوها وجعلوا أعززة أهلها أذلة ووضعوا فيها السيف ، وعاث الوحوش في الدماء والأعراض حتى أقفرت القرى وامتلأت الآبار بالسيدان اللاتى آثرن الموت على هتك الأعراض ، هذا عدا نساء قتلن بهمجية وطرق فظيعة لم تسبق في التاريخ ، إلى غير ذلك من الأفاعيل التى يشك فيها الناس فى البلاد الإسلامية والمتحضرة .

هذا غير ذلك الاضطهاد الدينى والمقاطعة الاجتماعية التى تلقاها تلك الطوائف فى بلادها ، وما تلقى ثقافتها وديانتها من مطاردة ومهاجمة من تلقاء هذه الشعوب فتحرم الحرية الثقافية واللسانية وترغم على لغة مصطنعة دائرة ، ويحاول الأقوياء أن يمحوا كل أثر من آثار حضارتها وثقافتها ويختلقوا عليها الأكاذيب والجنايات ، ويمثلوا قصة الحمل والذئب كل يوم ، فيعزل رجالها من الوظائف وتسد فى وجوههم أبواب المعاش والتجارة والحرف ، وتقفل دكاكينهم ومحالهم التجارية وتصادر أملاكهم وأموالهم بعلل واهية مضحكة .

ثم إن هذه الأمم أفلست إفلساً شائناً فى الدين والأخلاق ، وقد أشربت فى قلوبها حب المال والمادة ، وتسلب عليها شيطان الأثرة والجشع حتى ضجت منها الحكومات وتعبت ، فقد ارتفعت الأسعار ارتفاعاً فاحشاً ، فلما التجأت الحكومة الى التسعير اختفت السلع والأموال ، وأصبح الناس لا يجدون كسوة ولا طعاماً ولا حاجة إلا بالسعر الذى يريده التاجر ، فنفتت السوق السوداء ، وشاعت الجنايات

والخيانة والارتشاء والتهريب ، وأصبحت الحكومة والتجار كفرسى رهان أو قرنى ميدان ، كل يريد أن يغلب صاحبه وينتهز غرته ، وأصبح الناس حبة بين حصى الرحي لا يدرون كيف يفعلون .

وقد حاول رجال الإصلاح والديانة أن ينفخوا فى هذه الأمم حياة جديدة وينووا فيها روح الأخلاق والفضيلة والأمانة والاقتصاد فأخفقوا إخفاقاً تاماً ، وعلموا أن خلق أمة بأسرها أهون من إصلاح هذه الأمم وتهذيبها وقد انقطعت مادتها وانقضى أجلها .

وهكذا أصبح العالم شرقاً وغرباً فى أزمة روحية وخلقية واجتماعية واقتصادية تطلب حلاً سريعاً عاجلاً .

* الحل الوحيد للأزمة العالمية :

والحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية وانتقال دفعة الحياة من اليد الأئيمة الخرقاء التى أساءت استعمالها إلى يد أخرى بريئة حاذقة .

إن تحول القيادة من بريطانيا إلى أمريكا ومنهما جميعاً إلى روسيا لا يغنى غناء ولا يغير من الموقف شيئاً ، فإن هذا التحول ليس إلا نقل المجداف من اليمين إلى الشمال إذا تعبت الأولى أو بالعكس ، فما دام المجداف واحداً فلا فرق بين يمينه وشماله ، وليست بريطانيا وأمريكا وروسيا إلا أيدي رجل واحد تتداول دفعة الحياة ، وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد إلى جهة واحدة .

إن التحول المؤثر الواضح هو تحول القيادة من أوروبا - بالمعنى الواسع الذى يشمل بريطانيا وأمريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الأمم الآسيوية والشرقية - التى تقودها المادية والجاهلية ، إلى العالم الإسلامى الذى يقوده سيدنا ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم .

هذا هو التحول الذى يغير وجه التاريخ ، ويحول مجرى الأمور وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التى ترقبه .

إن حقاً على العالم الإسلامى أن يبنى نفسه بهذا المنصب الخطير ، ويطمح إليه وإن حقاً على كل بلد إسلامى وشعب إسلامى أن يشد حيازيمه لذلك ، وإن حقاً على كل مسلم أن يجاهد فى سبيله ويبذل ما فى وسعه ، فهذه هى المهمة الشريفة

التي نيظت بالأمة الإسلامية يوم برزت إلى عالم الوجود ويوم طهرت نواتها في جزيرة العرب .

* العالم الإسلامي على أثر أوروبا *

من الغريب الواقع أن المسلمين قد أصبحوا في الزمن الأخير في كثير من نواحي الأرض حتى في مراكز الإسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الأوروبية وجنوداً متطوعين لها ، بل صار بعض الشعوب والدول الإسلامية يرى في الشعوب الأوروبية التي تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون ونفخت فيها روحاً جديدة ، وركزت أعلامها على الشرق والغرب ، ناصراً للمسلمين ، حامياً لدمار الإسلام المستضعف ، حاملاً لراية العدل في العالم قواماً بالقسط .

ورضي عامة المسلمين بأن يكونوا ساقية عسكر الجاهلية بدل أن يكونوا قادة الجيش الإسلامي ، وسرت فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الأوروبية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الأسلاك ، فترى المادية الغربية في البلاد الإسلامية في كثير من مظاهرها وآثارها ، ترى تهافتاً على الشهوات ونهماً للحياة ، نهم من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة ، ولا يدخر من طيباتها شيئاً ، وترى تنافساً في أسباب الجاه والفخار وتكالباً عليها فعل من يغلو في تقويم هذه الحياة وأسبابها ، وترى إثارة للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والأخلاق ، شأن من لا يؤمن بنبي ولا بكتاب ، ولا يرجو معاداً ، ولا يخشى حساباً وترى حباً للحياة وكراهة للموت ، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته ومنتهى أمله ومبلغ علمه ، وترى افتتاناً بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالأمم المادية التي ليس عندها أخلاق ولا حقيقة حية ، وترى خضوعاً للإنسان ، واستكانة للملوك والأمراء ورجال الحكومة والمناصب وتقديسهم شأن الأمم الوثنية وعبداء الأصنام .

* المسلمون على علاقتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل *

ولكن برغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم هم الأمة الوحيدة على وجه الأرض ، التي تعد خصيم الأمم الغربية وغريماتها ومنافستها في قيادة الأمم ، ومزاحمتها في وضع العالم ، والتي يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها ، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى ، وإلى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وتحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من

القوة والتي يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها ان تتحول أمة جاهلية .
هذه هي الأمة التي يمكن أن تعود فى حين من الأحيان خطراً على النظام
الجاهلى الذى بسطته أوروبا فى الشرق والغرب وأن تحبط مساعيها .

وقد وصف هذا الخطر شاعر الإسلام الحكيم « محمد إقبال » فى قصيدته
البديعة : (برلمان إبليس) على لسان إبليس ، ذكر فيها أن الشياطين وزملاء إبليس
وأعوانه اجتمعوا فى مجلس شورى ، وتباحثوا فى سير العالم وأخطار الغد وفتنه ،
وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسى ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا فى
فتن وأخطار قد أحدثت بهم وهددت نظامهم وجللوا خطبها وتناذروا شرها ، فذكر
أحدهم الجمهورية وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثانى : لا يهولنك أمرها فإنها
ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهورى ، إذ رأينا
الإنسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها
فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن فى الأمير والملك . إن الملوكية لا تنحصر فى
وجود شخص ترتكز فيه الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش
الإنسان عيلاً على غيره مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواء فى ذلك الشعب والفرد . أما
رأيت نظام الغرب الجمهورى وجه مشرق وضاح وباطنه أظلم من باطن جنكيزخان ؟
فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم
فى هذه الفتنة الدهماء التى أثارها هذا اليهودى الذى يدعى كارل ماركس ذلك
الباقعة الذى ليس نبياً ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنه أقام
العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مباني الإمارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة ، إن سحرة أوروبا ، وإن
كانوا مريدك المخلصين ولكنى لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامرى اليهودى
الذى هو نسخة من مزدك (الزعيم الفارسى الاشتراكى) قد كاد يأتى على العالم
بقواعده فاستنسر البغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم
بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحات) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية
وها هى قد استفحلت وتفاقم شرها ، وها هى الأرض ترجف بهول فتنة الغد ، يا
سيدى إن العالم الذى كنت تحكمه سينقض عليك ، إذ ينقلب نظام العالم ظهراً
لبطن .

فتكلم رئيس المجلس (إبليس) وقال : إني أملك زمام العالم وأتصرف به كيف أشاء ، وسيرى العالم عجباً إذا حرشت بين الأمم الأوربية فتهاارشت تهاارش الكلاب ، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب ، وإذا همست فى آذان القادة السياسيين وأساقف الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم .

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية فكونوا على ثقة أن الخرق الذى أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطق المزدكى (الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفنى هؤلاء الاشتراكيون الطرداء والصعاليك السفهاء .

إن كنت خائفاً فيأني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة فى رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ، لا يخفى على الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير أن ليل الشرق داج مكفهر ، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التى تشرق لها الظلمات ويضىء لها العالم ، ولكنى أخاف أن قوارع هذا العصر وهزته ستقضى مضجعها وتوقظ هذه الأمة وتوجهها إلى شريعة (محمد ﷺ) إني أحذركم وأنذركم من دين (محمد) حامى الذمار ، حارس الذم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد يلغى كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكى المال من كل دنس ورجس ويجعله نقياً صافياً ، يجعل أصحاب الثروة والملوك مستخلفين فى أموالهم ^(١) أمناء لله وكلاء على المال ، وأى ثورة أعظم وأى انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين فى عالم الفكر والعمل يوم صرخ أن الأرض لله لا للملوك والسلطين .

(١) إشارة إلى جزء من الآية ٧ : الحديد .

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ، وليهنكم أن

المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يبقى مشغولاً بمسائل علم الكلام والإلهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم فإنه يستطيع أن يكسر طلاسـم العالم ويطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويطلئ سحره ، اشغـلوه يا إخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم . خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه ، واسخفاً لخطره ، يا ولتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الأمة التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه (١).

* رسالة العالم الإسلامي *

لا ينهض العالم الإسلامي إلا برسالته التي وكلها إليه مؤسسه ﷺ والإيمان بها والاستماتة في سبيلها ، وهي رسالة قوية واضحة مشرقة ، لم يعرف العالم رسالة أعدل منها ولا أفضل ولا أئمن للبشرية منها .

وهي الرسالة نفسها التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى ، والتي لخصها أحد رسلهم في مجلس يزجـرد ملك إيران بقوله : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » رسالة لا تحتاج إلى تغيير كلمة وزيادة حرف ، فهي منطبقة تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس المسيحي ، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لإنقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية .

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على أصنام لهم - من أوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة - ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة ، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ، ولا يزال إله الهوى يعبد ، ولا يزال الأحرار والرهبان والملوك والسلاطين وأصحاب القوة والثروة والزعماء والأحزاب السياسية أرباباً من دون الله تقرب لها القرابين وينصب لها الجبين .

وكذلك العالم اليوم رغم اتساعه وتوفر وسائل السفر والانتقال من مكان إلى مكان ، واتصال الشعوب والأمم بعضها ببعض أضيق بأهلـه منه بالأمس ، قد ضيقته المادية التي لا تنظر إلا إلى قدمها ولا تؤمن إلا بفائدة صاحبها ، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة الذات ، وقد خنقته الأثرة التي لا تسمح لاثنين

(١) روائع إقبال للمؤلف ص: ١٢١ .

بالعيش فى إقليم واسع ، والوطنية الضيقة التى تنظر إلى كل أجنبى شزراً وتجد له كل فضل وتحرمه كل حق .

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون السياسيون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت ، يضيّقون هذه الحياة لمن شاؤوا ويوسعونها لمن شاؤوا ويسيطرون الرزق - زعموا - لمن شاؤوا ويقدرونه لمن شاؤوا ، فأصبحت المدن الواسعة اضيق من جحر ضب ، وأصبح الناس فى بلادهم فى شبه حَجَر كَحَجَر السفىه واليتيم ، وضائق على الناس الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم ، وأصبح الناس فى أغلال وأصفاد من المدينة والمملكة مهديدين فى كل وقت بمجاعات مصطنعة وحقيقية ، وحروب خارجية وداخلية ، وإضرابات واضطرابات أسبوعية ويومية .

نعم ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ! ولا تزال فى هذا العصر المتور الرأى المثقف أديان تعبت بعقول الناس وتسخرهم كالحمير والبقر ، وتزين لأتباعها قتل مئات من البشر لأجل بقرة ذبحت فى عيد الأضحى ، أو شجرة مقدسة عضدت فى قرية من القرى .

وهناك أديان بغير اسم الأديان لا تقل فى نفوذها وسلطانها ، ولا تقل فى جورها وعداونها وعبثها بعقول أتباعها وفى عجائبها عن الأديان القديمة ، وهى النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التى يؤمن بها الناس كدين ورسالة ، كالجندية والوطنية ، والديموقراطية والاشتراكية ، والدكتاتورية والشيوعية ، وهى أقل مسامحة لمن لا يدين بها وأشد قسوة على منافسيها ، وأضيق عطفاً من الأديان الجاهلية ، والاضطهاد السياسى اليوم أفظع من الاضطهاد الدينى فى القرون المظلمة ، فإذا تغلب حزب من الأحزاب الوطنية أو ساد مبدأ من المبادئ السياسية ، أو انتصر فريق على فريق فى الانتخاب ، سد فى وجه منافسه الأبواب وعذبه أشد العذاب ، وما حرب أسبانيا الأهلية التى دامت مدة طويلة ، وسفكت فيها دماء غزيرة ، وما حرب الصين التى قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من أهل الصين ، وحرب « كوريا » التى قامت بين الجنوبيين والشماليين ، إلا نتيجة اختلاف فى العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية .

فرسالة العالم الإسلامى هى الدعوة إلى الله ورسوله والإيمان باليوم الآخر ،

وجائزته الخروج من الظلمات الى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام ، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر أكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سواتها للناس واشتد تذر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام ولونهض العالم الإسلامي ، واحتضن هذه الرسالة بكل إخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تنقذ العالم من الانهيار والانحلال .

* الاستعداد الروحي :

ولكن العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المدنية التي جادت بها أوربا على العالم ، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء إنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد أوربا كل يوم إفلاساً فيها ، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنة ، والزهد في حطام الدنيا وتحمل الأذى في ذات الله صابراً محتسباً قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ (النساء: الآية ١٠٤) . فقوة المؤمن وسر انتصاره في إيمانه بالآخرة ورجائه لثواب الله ، فإذا كان العالم الإسلامي لا يرمى إلا إلى ما تراه أوربا من العرض القريب ، ولا يطمح إلا فيما تطمح فيه أوربا من حطام الدنيا ، ولا يؤمن إلا بما تؤمن به أوربا من المحسوسات والماديات ، كانت أوربا بقوتها المادية أحق بالانتصار والسيادة من العالم الإسلامي الذي يتخلف عنها في القوة المادية تخلفاً شائناً ولا يفوقها في القوة المعنوية .

لقد أتى على العالم الإسلامي حين من الدهر وهو مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذيها ، حتى نضب معينها في قلبه ، فلما خاض العالم الإسلامي في المعارك التي تحتاج إلى الإيمان ، والصبر والثبات ، وتحمل الشدائد والنكبات ، وزلزل بعض الزلازل ، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين ، كانت كسراب بقية يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها ، وبحث في جعبته فلم يجد شيئاً يسد مكانها ويغنى غناءها .

وخاض العالم الإسلامي في معارك حاسمة ، وهو يرى أن المسلمين تقوم

قيامتهم ، وسوف يهرعون للدفاع عن الإسلام وحماية بلادهم المقدسة ، ويغضبون لله ورسوله وحرماته ، وإن الأقطار الإسلامية تشتعل ناراً وتتوقد حمية وحماسة ، فإذا الحادث لم يؤثر في العالم الإسلامي التأثير المنتظر ، وإذا النظر ضئيل والسخط خافت ، وإذا العالم الإسلامي كعادته - في عدوانه وروحته - منهك في لذاته وشهوته ، كأن لم يحدث كبير شيء ، فعرف أن الحماية الدينية قد ضعفت في العالم الإسلامي ، وأن شعلة الجهاد قد انطفأت أو كادت وهناك عرف الناس ضعف العالم الإسلامي وخذلانه وهوانه على أنفسهم .

فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامي ، وجمعياته وهيئاته الدينية والدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين وإشعال العاطفة الدينية ، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله ، والإيمان بالآخرة على منهاج الدعوة الإسلامية الأولى ، لا تدخر في ذلك وسعاً ، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة ، وطرق النشر والتعليم كتجوال الدعاة في القرى والمدن ، وتنظيم الخطب والدروس ، ونشر الكتب والمقالات ، ومدارس كتب السيرة ، وأخبار الصحابة ، وكتب المغازي والفتوح الإسلامية ، وأخبار أبطال الإسلام وشهادته ، ومذاكرة أبواب الجهاد ، وفضائل الشهداء ، وتستخدم لذلك الراديو والصحافة وكتب الأدب ، وجميع القوى والوسائل العصرية .

والقرآن وسيرة محمد ﷺ قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان ، وتحثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي ، وتجعل من أمة مستسلمة ، متخاذلة ناعسة ، أمة فتية ملتعبة حماسية وغيره وحنقاً على الجاهلية وسخطاً على النظم الجائرة .

إن علة علل العالم الإسلامي اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة ، فلا يقلقه فساد ، ولا يزعجه انحراف ، ولا يهيجه منكر ، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس ، ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية - إن وجدا إلى القلب سبيلاً - يحدث صراع بين الإيمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، وبين راحة الجسم ونعيم القلب ، وبين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع أحدثه كل نبي في وقته ، ولا يصلح العالم إلا به ، حينئذ يقوم في كل ناحية بلد إسلامي ﴿ فتية آمنوا بربهم ﴾

وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططاً ﴿﴾ (من آية ١٣ و ١٤ : الكهف) .

هنالك تتجدد ذكرى بلال ، وعمار ، وخباب ، وحبیب ، وخبیب ، ومصعب بن عمير ، وعثمان بن مظعون ، وأنس بن النضر ، هنالك تفوح رائحة الجنة ، وتهب نفحات القرن الأول ، ويولد للإسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم فى شيء ...

* الاستعداد الصناعى والحربى :

ولكن مهمة العالم الإسلامى لا تنتهى هنا ، فإذا أراد أن يضطلع برسالة الإسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالمقدرة الفائقة ، والاستعداد التام فى العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب ، ويستغنى عن الغرب فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وفى كل حاجة من الحاجات ، يقوت ويكسو نفسه ، ويصنع سلاحه ، وينظم شؤون حياته ، ويستخرج كنوز أرضه وينتفع بها ويدير حكوماته برجاله وماله ، ويمخر بحار المحيط به بسفنه وأساطيله ، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته وأسلحة بلاده ، وتزيد صادراته على وارداته ، ولا يحتاج إلى الاستدانة من الغرب ، ولا يضطر إلى أن يلجأ إلى راية من راياته وينضم إلى معسكر من معسكراته .

أما ما دام العالم الإسلامى خاضعاً للغرب فى العلم والسياسة والصناعة والتجارة ، يمتص الغرب دمه ، ويحفر أرضه فيستخرج منها ماء الحياة ، وتغزو بضائعه أسواق العالم الإسلامى ويبوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شيء ، وما دام العالم الإسلامى يستدين من الغرب الأموال ، ويستعير منه الرجال ، ليدبروا حكومته ، ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدبروا جيوشه ويستورد منه البضائع ويجلب منه الصنائع ، وينظر إليه كأستاذ ومرب ، وسيد ورب ، لا يرم أمراً إلا بإذنه ولا يصدر إلا عن رأيه ، فلا يستطيع أبداً أن يواجه الغرب فضلاً عن أن يناهضه ويغالبه .

هذه هى الناحية العلمية والصناعية التى أدخل بها العالم الإسلامى فى الماضى فعوقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة ، وابتلى العالم الإسلامى بالسيادة الأوربية الجائرة التى ساقطت العالم إلى النار والدمار والتناحر والانتحار ، فإن فرط العالم الإسلامى مرة ثانية فى الاستعداد العلمى والصناعى والاستقلال فى شؤون حياته كتب الشقاء للعالم وطالت محنة الإنسانية وبلاؤها .

* تبوء الزعامة في العلم والتحقيق *

وقد تنازل العالم الإسلامي - بما فيه العالم العربي - منذ زمن طويل عن مكانته في القيادة العلمية والتوجيه ، والاستقلال الفكري ، وأصبح عيالاً على الغرب متطفلاً على مائده حتى في اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها ، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه ، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق ، والدراسة والتأليف ، وهم المنتهى والمرجع والحجة في الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية ، وهم الأسوة في النقص والإبرام ، وعدد كبير منهم قسوس وإرساليون ويهود ومسيحيون متعصبون ، يضمرون للإسلام وصاحب رسالته - ﷺ - العدا والبغضاء ، وللحضارة الإسلامية السخرية والاستهزاء ، ويخونون في النصوص والنقول ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ولم يبرع فيها ، وهم يخطئون في فهم النصوص وترجمتها أخطاء فاحشة ، وقد تغلغت أفكارهم ودعائياتهم في الأوساط العلمية الحديثة في العالم الإسلامي وتجلت بصورة واضحة في الدعوة إلى فصل الدين عن السياسة ، وأن الدين قضية شخصية لا شأن له بالمجتمع ، وأن الدين عقيدة وعبادة وخلق لا شأن له بالسياسة والحكم ، وفي الدعوة إلى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية على أساس الحضارة الغربية وفلسفتها .. إلى غير ذلك من الأفكار التي يدعو إليها تلاميذ المستشرقين والخاضعون لهم في الشرق الإسلامي .

وقد عجز كتاب الشرق المسلمون والمفكرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربية وجهاً لوجه ونقد أسسها وقيمها نقداً حراً جريئاً ، فيه الابتكار ، وفيه الاستقلال ، وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير ، والإغراق في التقليد منزلة رأى فيها أن الحضارة الغربية هي آخر ما وصل إليه العقل البشري وأنه لا منزلة وراءها ، ومنهم من دعا إلى تطبيق الحضارة الغربية برمتها ، وعلى علاتها في الشرق ، ودعا بعض الأقطار الإسلامية العربية إلى اعتبار نفسها جزءاً لا يتجزأ من القارة الأوروبية وإذابتها فيها واختيار الثقافة اليونانية التي هي أصل الثقافات الأوروبية .

وندر في هذه الطبقة وجود « عملاق » يكفر بالحضارة الغربية وفلسفة حياتها وقيمها ويشرح الحضارة الغربية وأسسها التي قامت عليها في ثقة واعتداد وعلم وبصيرة . ونستثنى من هذه الكلية بعض الأفراد الأفاض كالعلامة « محمد إقبال » من

المسلمين القدامى ، والاستاذ « محمد أسد » من الأوربيين المهدين بالإسلام .

ولابد - إذا أراد العالم الإسلامى أن يقوم على قدميه ويفكر بعقله - أن يقاوم هذا الخضوع ويكون فيه علماء عماليق وكتاب جهابذة يتناولون الحضارة الغربية بالنقد والتشريح ، وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجرح والتعديل . ويتبحرون فى العلوم الإسلامية ويتعمقون فيها حتى يفيد منهم كبار المستشرقين فى أوربا وأمريكا ويصححون بهم آراءهم وأخطاءهم ، ويتوجه رواد العلم والتحقيق والدراسات العالية إلى عواصم العالم العربى وحواضر العالم الإسلامى ، كما اعتادوا أن يتوجهوا إلى عواصم أوربا وأمريكا ، فهذه المدن الإسلامية أولى بأن تكون مركزاً للثقافة الإسلامية والعلوم الدينية وآداب اللغة العربية من العواصم الأوربية وجامعات أوربا ، ومن سقوط الهمة والقناعة بالدون أن تتخلى هذه العواصم العريقة فى العلم والدين عن زعامتها العلمية ومكانتها الرئيسية .

* التنظيم العلمى الجديد :

ولابد للعالم الإسلامى من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه ورسالته . وقد ساد العالم الإسلامى على العالم القديم بزعامته العلمية ، فتسرب بذلك فى عقلية العالم وثقافته ، وتغلغل فى أحشاء الأدب والفلسفة ، وظل العالم المتمدن قروناً يفكر بعقله ويكتب بقلمه ويؤلف بلغته ، فكان المؤلفون فى إيران وتركستان وأفغانستان والهند لا يؤلفون كتاباً له شأن إلا باللغة العربية ، وكان بعضهم يؤلف الأصل بالعربية ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالي فى : « كيمياء السعادة » .

وإن كانت هذه الحركة العلمية التى ظهرت فى صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم ، وغير مؤسسة على الفكر الإسلامى النقى والروح الإسلامى ، وإن كانت فيها مواضع ضعف من الناحية العلمية والدينية ، ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها ، واضمحلت أمامها النظم العلمية القديمة .

وجاءت نهضة أوربا فنسخت هذا النظام القديم باختباراتها ونقدها العلمى ، ووضعت منهاجاً للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعقليتها ونفسياتها المادية ، فلا يخرج منه الطالب إلا وهو متشبع بهذه الروح ، وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمى ، وخضع له العالم الإسلامى بطبيعة الحال - إذ كان مصاباً بالانحطاط العلمى والشلل الفكرى من زمان ، وكان لا يجد المدد والغوث إلا فى

أوروبا - فقبل هذا النظام التعليمي على علته ، فهو النظام السائد اليوم في أنحاء العالم الإسلامي .

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية ، صراعاً بين النفسية الإسلامية - إن كانت لا تزال في الشباب لم تقتلها البيئة - وبين النفسية الجديدة ، وبين وجهة الأخلاق الإسلامية ووجهة الأخلاقية الأوروبية ، وبين الميزان القديم والجديد للأشياء وقيمتها ، وكانت نتيجة هذا النظام حديث الشك والنفاق في الطبقة المثقفة ، وقلة الصبر ونهامة الحياة وترجيح العاجل على الآجل ، إلى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الأوروبية .

فإذا أراد العالم الإسلامي أن يستأنف حياته ، ويتحرر من رق غيره وإذا كان يطمح إلى القيادة ، فلا بد إذن من الاستقلال التعليمي ، بل لابد من الرعامة العلمية وما هي بالأمر الهين ، إنها تحتاج إلى تفكير عميق ، وحركة التدوين والتأليف الواسعة ، وخبرة إلى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الإسلام والإيمان الراسخ بأصوله وتعاليمه ، إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة ، إنما هي من شأن الحكومات الإسلامية ، فتتظم لذلك جمعيات ، وتختار لها أساتذة بارعين في كل فن فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار ، ويدونون العلوم العصرية للشباب الإسلامي على أساس الإسلام وبروح الإسلام وفيها كل ما يحتاج إليه النشء الجديد ، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم ويستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب ، ويستخرجون به كنوز أرضهم وينتفعون بخيرات بلادهم ، وينظمون مالية البلاد الإسلامية ، ويدرون حكوماتها على تعاليم الإسلام بحيث يظهر فضل النظام الإسلامي في إدارة البلاد ، وتنظيم الشؤون المالية على النظم الأوروبية ، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت أوروبا عن حلها .

وبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الإسلامي ، ويؤدي رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدده . فليست القيادة بالهزل ، إنما هي جد الجد ، فتحتاج إلى جد واجتهاد ، وكفاح وجهاد ، واستعداد أي استعداد :

كل امرئ يجرى إلى يوم الهياج بما استعدا

الفصل الثانى زعامة العالم العربى

* أهمية العالم العربى *

إن العالم العربى له أهمية كبيرة فى خريطة العالم السياسية ، وذلك لأنه وطن أم لعبت أكبر دور فى التاريخ الإنسانى ، ولأنه يحتضن منابع الثروة والقوة الكبرى : الذهب الأسود الذى هو دم الجسم الصناعى والحربى اليوم ، ولأنه صلة بين أوروبا وأمريكا ، وبين الشرق الأقصى ، ولأنه قلب العالم الإسلامى النابض يتجه إليه روحياً ودينياً ويدين بحبه وولائه ، ولأنه عسى - لا قدر الله - أن يكون ميدان الحرب الثالثة ، ولأن فيه الأيدى العاملة ، والعقول المفكرة ، والأجسام المقاتلة ، والأسواق التجارية ، والأراضى الزراعية ، ولأن فيها مصر ذات النيل السعيد بنتاجها ومحصولها وخصبها وثروتها وريقها ومدنيتها ، وفيه سورية وفلسطين وجاراتها ، باعتمادال مناخها وجمال إقليمها وأهميتها الاستراتيجية ، وبلاد الرافدين بشكيمة أهلها و منابع البترول فيها ، والجزيرة العربية بمركزها الروحى وسلطانها الدينى ، واجتماع الحج السنوى الذى لا مثيل له فى العالم وآبار البترول الغزيرة . كل ذلك قد جعل العالم العربى محط أنظار الغربيين ، وملتقى مطامعهم وميدان تنافس لقيادتهم ، وكان رد فعله أن نشأ فى العالم العربى شعور عميق بالقومية العربية ، وكثر التغنى « بالوطن العربى » و « المجد العربى » .

* محمد رسول الله روح العالم العربى *

ولكن المسلم ينظر إلى العالم العربى بغير العين التى ينظر بها الأوروبى ، وبغير العين التى ينظر بها الوطنى العربى ، ، إنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره ومعقل الإنسانية ، وموضع القيادة العالمية ، ويعتقد أن سيدنا محمداً العربى هو روح العالم العربى وأساسه وعنوان مجده ، وأن العالم العربى - بما فيه من موارد الثروة والقوة وبما فيه من خيرات وحسنات - جسم بلا روح ، وخط بلا وضوح إذا انفصل - لا سمح الله بذلك - عن سيدنا رسول الله ﷺ وقطع صلته عن تعاليمه ودينه ، وأن سيدنا رسول الله ﷺ هو الذى أبرز العالم العربى للوجود ، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة ، وقبائل متناحرة ، وشعوباً مستعبدة ، ومواهب ضائعة ، وبلاداً تتسكع فى الجهل والضلالات ، فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية

والفارسية ولا يخطر ذلك منهم على بال ، ولا يصدقون بذلك إذا قيل لهم فى حال من الأحوال ، وكانت سورية التى تكون جزءاً مهماً من العالم العربى مستعمرة رومية تعانى الملكية المطلقة والحكم الجائر المستبد ، لا تعرف معنى الحرية والعدل ، وكان العراق مطية لشهوات الدولة الكيانية مثقلة بالضرائب المجحفة والإتاوات الفادحة ، وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوباً ركوباً ، يجزون صوفها ويظلمونها فى علفها ، ثم إنها تعانى الاضطهاد الدينى مع الاستبداد السياسى ، فما لبث هذا العالم المفكك المنحل ، المظلوم المضطهد ، أن هبت عليه نفحة من نفحات الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ ، أدرك رسول الله من هذا العالم وهو ضائع هالك وأخذ بيده وهو ساقط مهالك ، فأحياه بإذن الله وجعل له نوراً يمشى به فى الناس ، وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه ، فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الإسلام ، ورسول الأمن والسلام ، ورائد العلم والحكمة ، ومشعل الثقافة والحضارة . كان غوثاً للأُمم ، غيثاً للعالم ، هنالك كانت الشام وكان العراق ، وكانت مصر ، وكان العالم العربى الذى نتحدث عنه ، فلولا محمد ﷺ ، ولولا رسالته ، ولولا ملته ، لما كانت سورية ، ولا كان العراق ، ولا كانت مصر ، ولا كان العالم العربى ، بل ولا كانت الدنيا كما هى الآن حضارة وعقلاً ، وديانة وخلقاً ، فمن استغنى عن دين الإسلام من شعوب العالم العربى وحكوماته ، وولى وجهه شطر الغرب أو أيام العرب الأولى ، أو استلهم قوانين حياته أو سياسته من شرائع الغرب وديساتيره أو أسس حياته على العنصرية أو العروبة التى لا شأن لها بالإسلام ، ولم يرض برسول الله قائداً ورائداً وإماماً وقدوة ، فليرد على محمد بن عبدالله ﷺ نعمته ويرجع إلى جاهليته الأولى ، حيث الحكم الرومانى والإيرانى ، وحيث الاستعباد والاستبداد ، وحيث الظلم والاضطهاد ، وحيث الجهل والضلالة ، وحيث الغفلة والبطالة ، وحيث العزلة عن العالم ، والخمول والجمود ، فإن هذا التاريخ المجيد ، وهذه الحضارة الزاهية ، وهذا الأدب الزاخر ، وهذه الدول العربية ، ليست إلا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام .

* الإيمان هو قوة العالم العربى .

فالإسلام هو قومية العالم العربى ، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربى وإمامه وقائده ، والإيمان هو قوة العالم العربى التى حارب بها العالم البشرى كله فانتصر عليه ،

وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالأمس ، به يقهر أعداءه ، ويحفظ كيانه ويؤدى رسالته ، إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الصهيونية أو الشيوعية أو عدواً آخر بالمال الذى ترضخه بريطانيا أو تتصدق به أمريكا ، أو تعطيه مقابل ما تأخذ من أرضه من الذهب الأسود ، إنما يحارب عدوه بالإيمان والقوة المعنوية ، وبالروح التى حارب بها الدولة الرومية والإمبراطورية الفارسية فى ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعاً . إنه لا يستطيع أن يحارب أعداءه بقلب يحب الحياة ويكره الموت ، وبجسم يميل إلى الدعة والراحة ، وعقل يخامره الشك وتتنازع فيه الأفكار والأهواء ، أو بيد مضطربة وقلب متشكك ضعيف الإيمان وقوة متخاذلة فى الميدان ، فالمهم لأمرء العرب وزعمائهم وقادة الجامعة العربية أن يغرسوا الإيمان فى الشعوب العربية ، وجماهير الأمة وأولياء الأمور ، والجيش والعربى والفلاحين والتجار ، وفى كل طبقة من طبقات الجمهور ، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد فى سبيل الله ، والتوق إلى الجنة ، ويعتصروا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء وزخارف الدنيا ، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس ومألوفات الحياة ، وكيف يتحملون الشدائد فى سبيل الله ، وكيف يستقبلون الموت بثغر باسم ، وكيف يتهافون عليه تهافت الفراش على النور .

* تسخية شباب العرب قنطرة إلى سعادة البشرية ،

بعث رسول الله ﷺ وقد بلغت شقاوة الإنسانية غاية ما وراءها غاية ، وكانت قضية الإنسانية أعظم من أن يقوم لها أفراد متنعمون لا يتعرضون لخطر ولا لخسارة ولا محنة ، لهم النعيم الحاضر والغد المضمون ، إنما تحتاج هذه القضية إلى أناس يضحون بإمكانياتهم ومستقبلهم فى سبيل خدمة الإنسانية وأداء رسالتهم المقدسة ، ويعرضون نفوسهم وأموالهم ومعائشهم وحظوظهم من الدنيا للخطر والضياح ، وتجاراتهم وحرفهم ومكاسبهم للتلف والكساد ، ويخيون آمال آبائهم وأصدقائهم فيهم ، حتى يقولوا للواحد منهم كما قال قوم صالح : ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ (من الآية ٦٢ : هود) .

إنه لا بقاء للإنسانية ولا قيام لدعوة كريمة بغير هؤلاء المجاهدين ، وبشقاء هذه الحفنة من البشر فى الدنيا - كما يعتقد كثير من معاصريهم - تنعم الإنسانية وتسعد الأمم ، ويتحول تيار العالم من الشر إلى الخير ، ومن السعادة أن يشقى أفراد وتنعم أُمم وتضيق أموال وتكسد تجارات لبعض الأفراد، وتنمو نفوس وأرواح لا يحصيها إلا الله

من عذاب الله ومن نار جهنم .

علم الله عند بعثه الرسول ﷺ أن الروم والفرس والأُمم المتحضرة المتصرفة بزمام العالم المتمدن لا تستطيع بحكم حياتها المضطبعة المترفة أن تتعرض للخطر وتحمل المتاعب والمصاعب في سبيل الدعوة والجهاد وخدمة الإنسانية البائسة ، ولا تستطيع أن تضحي بشيء من دقائق مدنياتها في اللبس والمأكل وأن تنزل عن حظوظها ولذاتها وزخارفها فضلاً عن حاجاتها ، وأنه لا يوجد فيها أفراد يقرون على قهر شواتهم ، والحد من طموحهم ، والزهد في فضول الحياة ومطامع الدنيا ، والقناعة بالكفاف ، فاختار لرسالة الإسلام وصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام أمة تضطلع بأعباء الدعوة والجهاد وتقوى على التضحية والإيثار ، تلك هي الأمة العربية القوية السليمة التي لم تبتلعها المدنية ولم ينخرها البذخ والترف وأولئك أصحاب محمد ﷺ أبر الناس قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً .

قام الرسول بهذه الدعوة العظيمة فأدى حقوقها : من الجهاد في سبيلها وإيثارها على كل ما يقف في وجهها ، والغزوف عن الشهوات ومطامع الدنيا فكان في ذلك أسوة وإماماً للعالم كله ، وقد قرّش عرض عليه كل ما يغري الشباب ويرضى الطامحين من رئاسة وشرف ومال عظيم وزواج كريم ، فرفض كل ذلك في صرامة وصراحة ، وكلمه عمه وحاول أن يحد من نشاطه في سبيل الدعوة فقال : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » ثم كان أسوة للناس في عصره وبعد عصره بقيامه بأكبر قسط من الجهاد والإيثار ، والزهد وشطظ العيش وأقل قسط من العيش وأسباب الحياة ، فقد أوصد على نفسه الأبواب وسد في وجهه الطرق وتعدى ذلك إلى أسرته وأهل بيته والمتصلين به ، فكان أكثر الناس اتصالاً به وأقربهم إليه أقلهم حظاً في الحياة ، وأعظمهم نصيباً في الجهاد والإيثار ، فإذا أراد أن يحرم شيئاً بدأ ذلك بعشيرته وبيته ، وإذا سن حقاً أو فتح باباً لمنفعة قدم الآخرين وربما حرمه على عشيرته الأقرين . أراد أن يحرم الربا فبدأ بربا عمه عباس بن عبدالمطلب فوضعه كله وأراد أن يهدر دماء الجاهلية فبدأ بدم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب فأبطله ، وسن الزكاة وهي منفعة مالية عظيمة مستمرة إلى يوم القيامة فحرمها على عشيرته بنى هاشم إلى آخر الأبد ، وكلمه على بن أبي طالب يوم الفتح أن يجمع لبنى هاشم

الحجاجة مع السقاية فأبى وطلب عثمان بن طلحة وناولوه مفتاح الكعبة وقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء ، وقال خذوها خالدة تالدة فيكم لا ينزعها منكم إلا ظالم ، وحمل أزواجه على الزهد والقناعة وشطف العيش وخيرهن بين عشرته مع الفقر وضيق العيش ، ومفارقته مع السعة والرخاء وتلا عليهن قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحنن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ فاخترن الله والرسول ، وتأتیه فاطمة تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحي وبلغها أنه جاءه رقيق فيوصيها بالتسبيح والتحميد والتكبير ويقول لها إنه خير لها من خادم .. وهكذا كان شأنه مع أهل بيته والمتصلين به فالأقرب ثم الأقرب .

وآمن به رجال من قريش في مكة فاضطربت حياتهم الاقتصادية اضطراباً عظيماً ، وكسدت تجارتهم وحرم بعضهم رأس ماله الذي جمعه في حياته ، وحرم بعضهم أسباب الترف والرخاء وأناقة اللباس التي كان فيها مضرب المثل ، وكسدت تجارة بعضهم لاشتغاله بالدعوة وانصراف الزبائن عنه وحرم بعضهم نصيبه في ثروة أبيه .

ثم لما هاجر الرسول إلى المدينة وتبعه الأنصار تأثرت بذلك بساكنيهم ومزارعهم فلما أرادوا أن يقبلوا عليها بعض الوقت ويصلحوها لم يسمح لهم بذلك وأنذرهم الله به فقال : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ .

وهكذا كان شأن العرب والذين احتضنوا هذه الدعوة منهم فقد كان نصيبهم من متاعب الجهاد وخسائر النفوس والأموال أعظم من نصيب أي أمة في العالم وقد خاطبهم الله بقوله : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترضوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ وقال : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم من نفسه ﴾ لأن سعادة البشرية إنما كانت تتوقف على ما يقدمونه من تضحية وإيثار ما يتحملون من خسائر ونكبات فقال ك ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس

والشمرات ﴿ وقال: ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ﴾ (١) وكان إحجام العرب عن هذه المكرمة وترددهم في ذلك امتداداً لشقاء الإنسانية واستمراراً للأوضاع السيئة في العالم فقال : ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ (٢).

وقد وقف العالم في القرن السادس المسيحي على مفترق الطرق أما أن يتقدم العرب ويعرضوا نفوسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يعز عليهم للخطر ويزهدوا في مطامع الدنيا ويضحوا في سبيل المصلحة الاجتماعية بأنانيتهم فيسعد العالم وتستقيم البشرية وتقوم سوق الجنة وتروج بضاعة الإيمان ، وإما أن يؤثروا شهواتهم ومطامعهم وحظوظهم الفردية على سعادة البشرية وصلاح العالم فيبقى العالم في حمأ الضلالة والشقاء إلى ما شاء الله ، وقد أراد الله بالإنسانية خيراً وتشجع العرب - بما نفخ فيهم محمد ﷺ من روح الإيمان والإيثار وحب اليهم الدار الآخرة وثوابها - فقدموا أنفسهم فداء للإنسانية كلها وزهدوا في مطامع الدنيا طمعاً في ثواب الله وسعادة النوع الإنساني وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وضحوا بكل ما يحرص عليه الناس من مطامع وشهوات وآمال وأحلام وأخلصوا لله العمل والجهاد فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين .

وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الرسول ووقف العالم على مفترق الطرق مرة ثانية إما أن يتقدم العرب - وهم أمة الرسول وعشيرته - إلى الميدان ويغامروا بنفوسهم وإمكانياتهم ومطامعهم ويخاطروا فيما هم فيه من رخاء وثراء ودنيا واسعة وفرص متاحة للعيش وأسباب ميسورة فينهض العالم من عثاره وتبديل الأرض غير الأرض ، وإما أن يستمروا فيما هم فيه من طمع وطموح وتنافس في الوظائف والمرتبات في كثرة الدخل والإيراد وزيادة غلة الأملاك وربح التجارات والحصول على أسباب الترف والتنعم فيبقى العالم في هذا المستنقع الذي يتردى فيه منذ قرون .

إن العالم لا يسعد وخيرة الشباب في العواصم العربية عاكفون على شهواتهم تدور حياتهم حول المادة والمعدة لا يفكرون في غيرهما ولا يترفعون عن الجهاد في سبيلهما ولقد كان شباب بعض الأمم الجاهلية الذين ضحوا بمستقبلهم في سبيل المبادئ التي اعتنقوها أكبر منهم نفساً ، وأوسع منهم فكراً ، بل كان الشاعر الجاهلي « امرؤ القيس » أعلى منهم همة ، إذ قال :

(١) آية ٢ : العنكبوت . (٢) آية ٧٣ : الأنفال .

ولو ان ما أسعى لأدنى معيشة

كفانى ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثر

وقد يدرك المجد المؤثر أمثالي

إن العالم لا يمكن أن يصل إلى السعادة إلا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها الشباب المسلم . إن الأرض لفي حاجة إلى سماء ، وسماء أرض البشرية الذى تصلح به وتنبت زرع الإسلام الكريم هى الشهوات والمطامع الفردية التى يضحى بها الشباب العربى فى سبيل علو الإسلام وبسط الأمن والسلام على العالم وانتقال الناس من الطريق المؤدية إلى جهنم إلى الطريق المؤدية إلى الجنة .
إنه لثمن قليل جداً لسلعة غالية جداً .

* العناية بالفروسية والحياة العسكرية :

من الحقائق المؤلمة أن الشعوب العربية قد فقدت كثيراً من خصائصها العسكرية ، ورزئت فى فروسياتها التى كانت معروفة بها فى العالم ، فكانت رزية كبيرة وخسارة فادحة ، وكانت سبباً من أسباب ضعفها وعجزها فى ميدان الجهاد ، فقد اضمحلت الروح العسكرية ، وضعفت الأجسام ونشأ الناس على التمتع ، وقد حلت السيارات محل الجياد حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية ، وهجر الناس المصارعة والمناضلة وسباق الخيل وأنواع الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية ، واستبدلوا بها ألعاباً لا تفيدهم شيئاً ، فلمهم لرجال التعليم والتربية قادة الشعوب العربية أن يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية ، وعلى البساطة فى المعيشة وخشونة العيش والجلادة وتحمل المشاق والمتاعب والصبر على المكروه ! .

وقد كتب المربى الكبير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى بعض عماله العرب وهم فى بلاد العجم : « إياكم والتنعيم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمام

العرب ، وتمعددوا (١) ، واخشوشنوا (٢) ، واخشوشبوا (٣) ، واخلولقوا (٤) ، وأعطوا الركب أسنتها و انزوا نزوا ، وارموا الأغراض (٥) .

وقد قال النبي ﷺ : « ارموا بنى إسماعيل فإن آباكم كان رامياً (٦) » ، وقال : « ألا ان القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي (٧) » .

ومن واجب رجال التربية وولاية الأمر أن يحاربوا بكل قوتهم ما يضعف روح الرجولة والجلادة ويبعث على التخثث والعجز ، من عادات وأدب وصحافة وتعليم ، يأخذوا على يد الصحافة الماجنة والأدب الخليع الملحد ، الذى ينشر في الشباب النفاق والدعارة والفسوق ، وعبادة اللذة والشهوات ، ولا يسمحوا لهؤلاء التجار الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا أن يدخلوا فى معسكر محمد ﷺ الذى بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، ويفسدوا على الناشئة الإسلامية قلبها وأخلاقها ، ويزينوا لها الفسوق والعصيان وحب الفحشاء بضمن بخس دراهم معدودة ، وقد شهد التاريخ بأن كل أمة أصيب رجالها فى رجولتهم وغيرتهم ، ونسأؤها فى أنوثتهم وأمومتهم ، طغى فيهن التبرج ، ومزاحمة الرجل فى كل شىء ، والزهد فى الحياة المنزلية ، وحب إيهن العقم ، أفل نجمها وكسفت شمسها ، فأصبحت أثراً بعد عين .

هذه كنت عاقبة اليونان والرومان والفرس ، وإن أوروبا لفى طريقها إلى هذه العاقبة ، فليحذر العالم العربى من هذا المصير الهائل .

(١) تمعدد الغلام : شب وغلظ ، وقيل معناه : تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف .

(٢) اخشوشن : تخشن فى المطعم والملبس .

(٣) اخشوشب : صار صلباً كالخشب فى أحواله وصبره على الجهد .

(٤) تذلوا فى الملابس .

(٥) رواه البغوى عن أبى عثمان النهدى .

(٦) رواه البخارى .

(٧) رواه مسلم .

* محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغنى والصلوك *

وقد اعتاد العرب لأسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدعة والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والإسراف والتبذير ، والاستهانة بمال الله فى سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة .

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير ، جوع وعرى وفقر فاضح يرى الناظر مناظره الشائنة فى عواصم البلاد العربية فتدمع العين ويحزن القلب وينتكس الرأس حياءً وخجلاً ، فبينما هنالك رجل عنده فضول الثياب وزائد الطعام والشراب لا يعرف كيف يستهلكه ، إذ يبدو لا يجد قوت يومه وكسوة جسمه ، وبينما أمراء العرب وأغنيأؤهم على سيارات تبارى الريح وتثير النقع ، إذا بفوج من النساء والأطفال عليه ثياب سوداء قد أصبحت خيوطاً من طول اللبس يعدو لأجل فلس أو قرص ، فما دامت المدن العربية تجمع بين القصور الشامخة والسيارات الفاخرة ، وبين الأكواخ الحقيرة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة ، وما دامت التخممة والجوع يزخران فى مدينة واحدة ، فالباب مفتوح على مصراعيه للشيوعية والثورات والاضطراب والقلق لا تقفها دعاية ولا قوة ، وإذا لم يسد النظام الإسلامى فى بلاده بجماله واعتداله يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره عقاباً من الله كرد فعل عنيف .

* التخلّص من أنواع الأثرة *

لقد أتى على العالم العربى عهد فى التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد - وهو شخص الخليفة أو الملك - أو حول حفنة من الرجال - هم الوزراء وأبناء الملك - وكانت البلاد تعتبر ملكاً شخصياً لذلك الفرد السعيد والأمة كلها فوجاً من المماليك والعبيد ، ويتحكم فى أموالهم وأملاكهم ونفوسهم وأعراضهم ، ولم تكن الأمة التى كان يحكم عليها إلا ظلاً لشخصه ، ولم تكن حياتها إلا امتداداً لحياته .

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وإنتاجها ، فإذا استعرض أحد تاريخ هذا العهد أو أدب تلك الفترة من الزمان ، وجد هذه الشخصية تسيطر على الأمة أو المجتمع ، كما تسيطر شجرة باسقة على الحشائش والشجيرات التى تنبت فى ظلها وتمنعها من الشمس والهواء ، كذلك تضمحل هذه الأمة فى شخص هذا الفرد وتذوب فيه وتصبح أمة هزيلة لا شخصية

لها ولا إرادة ، ولا حرية لها ولا كرامة .

وكان هذا الفرد هو الذى تدور لأجله عجلة الحياة ، فلأجله يتعب الفلاح ويشغل التاجر ويجتهد الصانع ويؤلف المؤلف وينظم الشاعر ، ولأجله تلد الأمهات وفى سبيله يموت الرجال وتقاتل الجيوش ، وبلى ولأجله تلفظ الأرض خزائنها ويقذف البحر نفائسه وتستخرج كنوز الأرض خيراتها .

وكانت الأمة - وهى صاحبة الإنتاج وصاحبة الفضل فى هذه الرفاهية كلها - تعيش عيش الصعاليك ، أو الأرقاء الممالك ، وقد تسعد بفتات مائدة الملك وبما يفضل عن حاشيته فتشكر وقد تحرم ذلك أيضاً فتصبر ، وقد تموت فيها الإنسانية فلا تنكر شيئاً بل تتسابق فى التزلف وانتهاز الفرص .

هذا هو العهد الذى ازدهر فى الشرق طويلاً وترك رواسب فى حياة هذه الأمة ونفوسها وفى أدبها وشعرها ، وأخلاقها واجتماعاتها ، وخلف آثاراً باقية فى المكتبة العربية ، ومن هذه الآثار الناطقة كتاب « ألف ليلة وليلة » الذى يصور ذلك العهد تصويراً بارعاً ، يوم كان الخليفة فى بغداد أو الملك فى دمشق أو القاهرة ، هو كل شىء وبطل رواية الحياة ومركز الدائرة ، إن هذا العهد الذى يمثله كتاب « ألف ليلة وليلة » بأساطيره وقصصه ، وكتاب الأغاني بتاريخه وأدبه ، لم يكن عهداً إسلامياً ، ولا عهداً طبيعياً معقولاً ، فلا يرضاه الإسلام ولا يقره العقل ، بل إنما جاء الإسلام بهدمه والقضاء عليه ، فقد كان هذا هو العهد الذى بعث فيه محمد ﷺ فسماه الجاهلية ونعى عليه وأنكر على ملوكه - ككسرى وقيصر - وعلى أثرتهم وترفعهم أشد الإنكار .

إن هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار فى أى مكان وفى أى زمان ولا سبيل إليه إذا كانت الأمة مغلوبة على أمرها أو مصابة فى عقلها أو فاقدة الوعى والشعور أو ميتة النفس والروح .

إن هذا الوضع لا يقره عقل ، ومن الذى يسوغ أن يتخمد فرد أو بضعة أفراد بأنواع الطعام والشراب ويموت آلاف جوعاً ومسغبة ، ومن الذى يسوغ أن يعذب ملك أو ابناء ملك بالمال عبث المجانين ، والناس لا يجدون من القوت ما يقيم صلبهم ومن الكسوة ما يستر جسمهم ، ومن الذى يسوغ أن يكون حظ طبقة - وهى الكثرة - الإنتاج وحده والكدح فى الحياة والعمل المضنى الذى لا نهاية له ، وحظ

طبقة - وهى لا تتجاوز عدد الأصابع - إلا التلهى بشمرات تعب الطبقة الأولى من غير شكر وتقدير وفى غير عقل ووعى ، ومن الذى يسوغ أن يشقى أهل الصناعة وأهل الذكاء وأهل الاجتهاد وأهل المواهب وأهل الصلاح ، وينعم رجال لا يحسنون غير التبذير ولا يعرفون صناعة غير صناعة الفجور وشرب الخمر ؟ ومن الذى يسوغ أن تُجفى أهل الكفاية وأهل النبوغ وأهل الأمانة ويقصوا كالمنبوذين ويجتمع حول ملك أو أمير فوج من خساس النفوس وسخفاء العقول وفاقدى الضمائر ممن لا هم لهم إلا ابتزاز الأموال وإرضاء الشهوات ، ولا يحسنون فناً من فنون الدنيا غير التملق والإطراء والمؤامرة ضد الأبرياء ، ولا يتصفون بشيء غير فقدان الشعور وقلة الحياء .

إنه وضع شاذ لا ينبغى أأ يبقى يوماً فضلاً عن أن يبقى أعواماً .

إنه إن سبق في عهد من عهود التاريخ وبقي مدة طويلة فقد كان ذلك على غفلة من الأمة أو على الرغم منها ، وبسبب ضعف الإسلام وقوة الجاهلية ولكنه خليف بأن ينهار ويتداعى كلما أشرقت شمس الإسلام واستيقظ الوعي وهبت الأمة تحاسب نفسها وأفرادها .

فالذين لا يزالون يعيشون فى عالم « ألف ليلة وليلة » إنما يعيشون فى عالم الأحلام ، إنما يعيشون فى بيت أو هن من بيت العنكبوت ، إنما يعيشون فى بيت مهدد بالأخطار لا يدرون متى يكبس ، ولا يدرون متى تعمل فيه معاول الهدم ، وإن سلموا من كل هذا فلا يدرون متى يخرب عليهم السقف من فوقهم فإنه بيت قائم على غير أساس متين وعلى غير دعائم قوية .

ألا إن عهد ألف ليلة وليلة قد مضى فلا يخدعن أقوام أنفسهم ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت ، إن الملوكية مصباح - إن جاز هذا التعبير - قد نفذ زيته واحترقت فتيلته ، فهو إلى انطفاء عاجل ولو لم تهب عاصفة .

أنه لا محل فى الإسلام لأى نوع من أنواع الأثرة ، إنه لا محل فيه للأثرة الفردية أو العائلية التى نراها فى بعض الأمم الشرقية والأقطار الإسلامية ولا محل فيه للأثرة المنظمة التى نراها فى أوربا وأمريكا وفى روسيا ، فهى فى أوربا أثرة حزب من الأحزاب ، وفى أمريكا أثرة الرأسماليين ، وفى روسيا قلة آمنت بالشيوعية المتطرفة وفرضت نفسها على الكثرة وهى تعامل العمال والمعتقلين بقسوة نادرة ووحشية ربما

لا يوجد لها نظير في تاريخ السخرة الظالمة (١)

إن الأثرة بجميع أنواعها ستنتهى وإن الإنسانية ستثور عليها وتنتقم منها انتقاماً شديداً ، إنه لا مستقبل في العالم إلا للإسلام السمع العادل الوسط وإن طال أجل هذه « الأثرات » وأرعى لها العنان وتمادت في غيها وطغيانها مدة من الزمان .

إن الأثرة - فردية كانت أو عائلية أو حزبية أو طبقية - غير طبيعية في حياة الأمة وإنها تتخلص منها في أول فرصة ، إنه لا محل لها في الإسلام ولا محل لها في مجتمع واع بلغ الرشد ولا أمل في استمرارها ، فخير للمسلمين وخير للعرب وخير لقادتهم وولاة أمورهم أن يخلصوا أنفسهم منها ويقطعوا صلتهم بها قبل أن تغرق فيغرقوا معها .

* إيجاد الوعي في الأمة *

إن أخوف ما يخاف على أمة ويعرضها لكل خطر ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة للعابثين هو فقدان الوعي في هذه الأمة ، وافتتانها بكل دعوة واندفاعها الى كل موجة وخضوعها لكل متسلط وسكونها على كل فظيعة وتحملها لكل ضيم ، وأن لا تعقل الأمور ولا تضعها في مواضعها ولا تميز بين الصديق والعدو وبين الناصح والغاش وأن تلدغ من جحر مرة بعد مرة ولا تنصحها الحوادث ، ولا تروعها التجارب ، ولا تنتفع بالكوارث ، ولا تزال تولى قيادها من جربت عليه الغش والخديعة والخيانة والأثرة والأنانية ، ولا تزال تضع ثقها فيه وتمكنه من نفسها وأموالها وإعراضها ومفاتيح ملكها وتنسى سريعاً ما لاقت على يده الخسائر والنكبات فيجترئ بذلك السياسيون المحترفون ، والقادة الخائنون ويأمنون سخط الأمة ومحاسبتها ويتمادون في غيهم ويسترسلون في خياناتهم وعبثهم ثقة ببلاهة الأمة وسذاجة الشعب وفقدان الوعي .

(١) اقرأ في ذلك كتاب : Forced Labour in Russia

لؤلفه : Professor Ernest Tallgren

إن الشعوب الإسلامية والبلاد العربية - مع الأسف - ضعيفة الوعي ، إذا تخرجنا آن نقول : فاقدة الوعي - فهي لا تعرف صديقها من عدوها ولا تزال تعاملها معاملة سواء أو تعامل العدو أحسن مما تعامل الصديق الناصح وقد يكون الصديق في تعب وجهاد معها طول حياته بخلاف العدو ، ولا تزال تلدغ من جحر واحد ألف مرة ولا تعتبر بالحوادث والتجارب ، وهي ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان تنسى ماضى الزعماء والقادة ، وتنسى الحوادث القريبة والبعيدة ، وهي ضعيفة في الوعي الديني والوعي الاجتماعي وأضعف في الوعي السياسي ، وذلك ما جر عليها ويلاً عظيماً وشقاء كبيراً وسلط عليها القيادة الزائفة وفضحها في كل معركة .

إن الأمم الأوروبية - برغم إفلاسها في الروح والأخلاق وبرغم عيوبها الكثيرة التي بحثنا عنها في هذا الكتاب - قوية الوعي - الوعي المدني والسياسي - قد بلغت سن الرشد في السياسة ، وأصبحت تعرف نفعها من ضررها ، وتميز بين الناصح والحادع ، وبين المخلص والمنافق ، وبين الكفو والعاجز ، فلا تولى قيادها إلا الأكفاء الأقوياء الأمناء ، ثم لا توليهم أمورهم إلا على حذر ، فاذا رأت منهم عجزاً أو خيانة أو رأت أنهم مثلوا دورهم وانتهوا من أمرهم استغنت عنهم وأبدلت بهم رجالاً أقوى منهم وأعظم كفاءة وأجدر بالموقف ، ولم يمنعها من إقالتهم أو إقصائهم من الحكم ماضيهم الرائع وأعمالهم الجليلة وانتصارهم في حرب ، أو نجاحهم في قضية ، وبذلك أمنت السياسيين المحترفين ، والقيادة الضعيفة أو الخائنة ، وخوف ذلك الزعماء ورجال الحكم وكانوا حذرين ساهرين يخافون رقابة الأمة وعقابها وبطش الرأي العام .

فمن أعظم ما تخدم به هذه الأمة وتؤمن من المهازل والمآسي التي لا تكاد تنتهى هو إيجاد الوعي في طبقاتها ودهمائها وتربية الجماهير التربوية العقلية والمدنية والسياسية ، ولا يخفى أن الوعي غير فشو التعليم وزوال الأمية وإن كانت هذه الأخيرة من أنجح وسائلها ، وليعرف الزعماء السياسيون والقادة أن الأمة التي يعوزها الوعي غير جديرة بالثقة ولا تبعث حالتها على الارتياح وإن أطرت الزعامة والزعماء وقدستهم فإنها - ما دامت ضعيفة الوعي - عرضة لكل دعاية وتهريج وسخرية كريشة في فلاة تلعب بها الرياح ولا تستقر في مكان .

* استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها *

وكذلك لابد للعالم العربي - كالعالم الإسلامي - من الاستقلال في تجارتها وماليتها وصناعاته وتعليمه ، لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبتة أرضه وتنسجه يده ، وتستغنى عن الغرب في جميع شئون حياتها ، وفي كل ما تحتاج إليه من كسوة وطعام ، وبضائع و مصنوعات ، وأسلحة وجهاز حربى ، وآلات وماكينات ، وأدوية فلا تكون كلاً على الغرب وعيلاً عليه فى معيشتها ومتطفلة على مائدته .

إن العالم العربى لا يستطيع أن يحارب الغرب - إذا احتاج إلى ذلك ودعت إليه الظروف - وهو مدين له في ماله ، عيال عليه فى لباسه وبضائعه ، لا يجد قلماً يوقع به على ميثاق مع الغرب إلا القلم الذى صنع فى الغرب ، ولا يجد ما يقاتل به الغرب ، إلا الرصاص الذى أفرغ فى الغرب ، إن عاراً على الأمة العربية أن تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها وقوتها ، وأن يجرى ماء الحياة فى عروقها وشرائنها إلى أجسام غيرها وأن يدرب جيوشها وكلاء الغرب وضباطه ، ويدير بعض مصالح حكومتها رجاله ، فلا بد للعالم العربى ان يقوم هو نفسه بحاجاته : تنظيم التجارة والمالية ، وحركة التوريد والتصدير والصناعة الوطنية ، وتدريب الجيش ، وصنع الآلات والمكينات وتربية الرجال الذين يضطلعون بجميع مهمات الدولة ووظائف الحكومة فى خبرة ومهارة فنية ، وأمانة ونصيحة .

* تقدم مصر فى ميدان التجارة والصناعة والعلم *

ولابد هنا من الاعتراف بأن مصر قد أثبتت كفايتها واستعدادها الكبير فى ميدان العلم والصناعة ، وتربية الرجال ، ونشر الثقافة ، ونقل العلوم العصرية الى اللغة العربية ، وبواسطتها إلى الأمة العربية ، وعنايتها بالصناعة الوطنية ، وتنظيم شئون دولتها وماليتها على أساس العلم العصرى ، أما فضلها على اللغة العربية وإحيائها للكتب العربية ، وتقدم الصحافة والطباعة وحركة النشر فيها فمن المآثر والمفاخر التى سيسجلها التاريخ ، ويردد صداها المستقبل ، ويدين بفضلها العرب جميعاً .

* رجاء العالم الإسلامى من العالم العربى *

والعالم العربى بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافى وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الإسلام ، ويستطيع أن يتقلد زعامة العالم الإسلامى ، ويزاحم أوربا بعد الاستعداد الكامل ، وينتصر عليها بإيمانه وقوة رسالته ونصر من الله

ويحول العالم من الشر إلى الخير ومن النار والدمار إلى الهدوء والسلام .

* إلى قمة القبة العالية :

ما أعظم التطور الذى حدث فى تاريخ العرب على إثر بعثة محمد ﷺ ونادت به سورة الإسراء وقصة المعراج فى لغة صريحة بليغة وفى أسلوب مبين مشرق (١) وما أعظم النعمة التى أسبغها الله على العرب . نقلهم من جزيرتهم التى يتناحرون فيها إلى العالم الفسيح الذى يقودونه بناصيته ، ومن الحياة القبلية المحدودة التى ضاقوا بها إلى الإنسانية الواسعة التى يشرفون عليها ويوجهونها ، وأصبحوا بفضل هذا التطور العظيم الذى فاجأ العرب وفاجأ العالم يقولون بكل وضوح وشجاعة لإمبراطور المملكة الفارسية العظيمة وأركان دولته : « الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

نعم لقد خرجوا من ضيق الدنيا أولاً إلى سعتها ثم أخرجوا الأمم من ضيق الدنيا إلى سعتها آخرأ ، وهل أضيق من الحياة القبلية والجنسية ، وأوسع من الحياة الإنسانية الآفاق ؟ وهل أضيق من الحياة التى لا يفكر فيها إلا فى المادة الزائلة والحياة الفانية ولا يجاهد إلا فى سبيلها من الحياة الإيمانية الروحانية التى لا نهاية لها ولا تحديد . ! ؟

لقد خرجوا من ضيق جزيرة العرب ، ومن ضيق الحياة فيها ، ومن ضيق التفكير فى مسائلها ومصالحها و من ضيق التناحر على سيادتها ، ومن ضيق التكالب على حطامها القليل وملكها الضئيل وعيشها الذليل ، إلى عالم جديد من السيادة الروحية والخلقية والعلمية والسياسية ، ليس الدانوب الفائض والنيل السعيد والفرات العذب والسند الطويل إلا سواقي حقيرة وترعا صغيرة فيه ، وليست جبال الألب والبرانس وعقاب لبنان وقمم همالايا إلا تلالاً متواضعة وسدوداً صغيرة ، وليست

(١) تضم سورة الإسراء وقصة المعراج إعلانات بأن محمداً ﷺ هو نبي القبلتين وإمام المشرقين والمغربين ووارث الأنبياء قبله وإمام الأجيال بعده .

البلاد الواسعة كالهند والصين وتركستان إلا أحياء ضيقة وحارات صغيرة ، ونقطاً مغمورة فى هذا العالم ، وليست هذه الأرض كلها إذا نظر إليها من ارتقى إلى قمة هذه السيادة - إلا خريطة صغيرة ملونة يراها الطائر المحلق فى السماء ، وليست الأمم الكبيرة - مع ثقافتها وحضاراتها وآدابها - إلا أسراً صغيرة فى أمة كبيرة .

لقد قام العالم الكبير على أساس العقيدة الواحدة ، والإيمان العميق والصلة الروحية القوية ، وكان أوسع عالم عرفه التاريخ ، وكانت الشعوب التى تكون هذا العالم أقوى أسرة عرفها التاريخ . تنصهر فيها الثقافات المختلفة ، والعبقريات المختلفة ، فتكون منها ثقافة واحدة هى الثقافة الإسلامية ، التى لم تزل تظهر فى نوايا الإسلام الذين لا يحصيهم عدد وفى المآثر الإسلامية - بين علمية وعملية - التى لا يستقصيها التاريخ .

لقد كانت - ولا تزال - قيادة هذا العالم بجدارة واستحقاق أشرف قيادة وأعظمها وأقواها فى تاريخ الزعامة والقيادة وقد أكرم الله بها العرب لما اخلصوا لهذه الدعوة الإسلامية وتفانوا فى سبيلها ، فأحبهم الناس فى العالم حباً لم يعرف له نظير ، وقلدوهم فى كل شىء تقليداً لم يعرف له نظير ، وخضعت للغتهم اللغات ، ولثقافتهم الثقافات ، ولحضارتهم الحضارات ، فكانت لغتهم هى لغة العلم والتأليف فى العالم المتمدن من أقصاه إلى أقصاه ، وهى اللغة المقدسة الحبيبة التى يؤثرها الناس على لغاتهم التى نشأوا عليها ، ويؤلفون فيها أعظم مؤلفاتهم وأحب مؤلفاتهم ، ويتقنونها كأبنائها وأحسن ، وينبغ فيها أدباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون فى العالم العربى ، ويقر بفضلهم وإمامتهم أدباء العرب ونقادهم .

وكانت حضارتهم هى الحضارة المثلى التى يتمجد الناس ويتظرفون بتقليدها ، ويبحث علماء الدين على تفضيلها على الحضارات الأخرى ويطلقون على كل ما يخالفها من الحضارات - اسم « الجاهلية » و « العجمية » وينهون عن اتخاذ شعائرها ومظاهرها

وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدة طويلة والناس لا يفكرون فى ثورة عليها ، وفى التخلص منها ، كما هى عادة المفتوحين والأمم المغلوبة على أمرها فى كل عهد ، لأن صلتهم بهذه القيادة ليست صلة المفتوح بالفتح أو المحكوم بالحاكم أو الرقيق بالسيد القاهر ، إنما هى صلة المتدين بالمتدين ، وصلة المؤمن بالمؤمن ، وعلى

الأكثر إنما هي صلة التابع بالمتبوع الذى سبقه بمعرفة الحق والإيمان بالدعوة والتفانى فى سبيلها ، فلا محل للثورة ، ولا محل للتذمر ، ولا محل لنكران الجميل ، إنما اللائق أن يعترفوا لهم بالفضل ، وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء ، وأن يقولوا : ﴿ ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (الحشر : الآية ١٠) .

وهكذا كان ، فقد ظلت هذه الأمم المفتوحة تعتبر العرب المنقذ من الجاهلية والوثنية ، والداعى الى دار السلام ، والقائد إلى الجنة ، والمعلم للحضارة ، والأستاذ فى الأدب .

هذه هي القيادة العالمية التى هيأتها البعثة المحمدية ، وهى القيادة التى يجب ان يحرص عليها العرب أشد الحرص ، ويعضوا عليها بالنواجذ ، ويسعوا إليها بكل ما أوتوا من مواهب ويتواصى بها الآباء والأبناء ، ولا يجوز لهم - فى شريعة العقل والدين والغيرة - أن يتخلوا عنها فى زمن من الأزمان ، ففيها عوض عن كل قيادة مع زيادة ، وليس فى غيرها عوض عنها وكفاية ، وهى القيادة التى تشتمل جميع أنواع القيادة والسيادة ، وهى تسيطر على القلوب والأرواح ، أكثر من سيطرتها على الأجسام والأشباح .

إن الطريق إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب ، وهى الطريق التى جربوها فى عهدهم الأول « الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها وتبنيها والتفانى فى سبيلها وتفضيل منهج الحياة الإسلامى على جميع مناهج الحياة » .

وبذلك - من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبويها - تخضع لهم الأمم الإسلامية فى أنحاء العالم ، وتهالك على حبههم وإجلالهم وتقليدهم ، وبذلك تفتح لهم ابواب جديدة وميادين جديدة فى مشارق الأرض ومغاربها ، الميادين التى استعصت على غزاة الغرب ومستعمره وثارت عليه ، وتدخل أُم جديدة فى الإسلام أُم فتية فى مواهبها وقواها وذخائرها ، أُم تستطيع أن تعارض أوربا فى مدنياتها وعلومها إذا وجدت إيماناً جديداً ، وديناً جديداً ، وروحاً جديداً ، ورسالة جديدة .

إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التى فتحت بها العالم القديم فى ميادين ضيقة محدودة ؟ وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم - الذى جرف بالأمس بالمدينيات والحكومات - فى حدود هذا الوادى الضيق . تصطرع أمواجه ويلتهم

بعضها بعضاً ؟ إليكم هذا العالم الإنسانى الفسيح الذى
اختاركم الله لقيادته واجتباكم لهدايته ، وكانت البعثة المحمدية
فاتحة هذا العهد الجديد فى تاريخ أمتكم وفى تاريخ العالم
جميعاً ، وفى مصيركم ومصير العالم جميعاً فاحتضنوا هذه
الدعوة الإسلامية من جديد وتفانوا فى سبيلها وجاهدوا فيها
﴿وجاهدوا فى الله حق جهاد﴾ هو اجتباكم وما جعل عليكم
فى الدين من حرج ملة أبىكم إبراهيم ، هو سماكم
المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول
شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على
الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة
واعتصموا بالله هو مولاكم
فنعم المولى
ونعم النصير ﴿
(الحج : الآية ٧٨)

★ ★ ★

فهرست

صفحة

- ٣- كليمه كتذكرة- بقلم د. مصطفى أبو سليمان الندوى تلميذ المؤلف
- ١٠- مقدمة بقلم الباحث الإسلامى سيد قطب .
- ١٥- صورة وصفية بقلم فضيلة الأستاذ : أحمد الشرباضى .
- ٢١- مقدمة الطبعة الثالثة عشرة القانونية
- ٢٩- الباب الأول : العصر الجاهلى .
- ٢٩- الفصل الأول : الإنسانية فى الاحتضار .
- ٣١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٣١- نظرة فى الأديان والأمم ٣٢- المسيحية فى القرن السادس المسيحى ٣٢- الحرب الأهلية الدينية فى الدول الرومية ٣٤- الانحلال الاجتماعى والقلق الاقتصادى ٣٥- مصر فى عهد الدولة الرومية ديانة واقتصادا ٣٧- الحبشة ٣٧- الأمم الأوربية الشمالية الغربية ٣٨- اليهود ٣٩- بين اليهود والمسيحين ٤٠- إيران والحركات الهدامة فيها ٤٢- تقديس الأكاسرة ٤٣- التفاوت بين الطبقات ٤٥- تمجيد القومية الفارسية ٤٥- عبادة النار وتأثيرها فى الحياة ٤٦- الصين : دياناتها ونظمها ٤٦- البوذية تطوارتها وانحطاطها ٤٨- أمم آسيا ٤٨- الهند ، ديانها ، اجتماعاً ، واخلاقاً ٤٩- الوثنية المتطرفة ٥٠- الشهوة الجنسية الجامحة ٥١- نظام الطبقات الجائر ٥١- امتيازات طبقات البراهمة ٥٢- المنبوذون الأشقياء ٥٣- مركز المرأة فى المجتمع الهندى ٥٣- العرب خصائصهم وموابعهم ٥٤- وثنية الجاهلية ٥٥- أصنام العرب فى الجاهلية ٥٦- الآلهة عند العرب ٥٦- اليهودية والنصرانية فى بلاد العرب ٥٦- الرسالة والإيمان بالبعث ٥٧- الأدواء الخلقية والاجتماعية ٦٠- المرأة فى المجتمع الجاهلى ٦١- العصبية القبلية والدموية فى العرب ٦٣- ظهر الفساد فى البر والبحر ٦٣- لمعات فى الظلام ٩١ .

٦٦- الفصل الثاني

النظام السياسى والمالى فى العصر الجاهلى .

- ٦٧- الحكم الرومانى فى مصر والشام ٦٨- نظام الجباية والخراج فى إيران ٦٩- كنوز الملوك ومدخراتهم ٦٩- الفصل التاسع بين طبقات المجتمع ٧٠- الفلاحون فى إيران ٧١- الاضطهاد والاستبداد ٧١- المدنية المصطنعة والحياة المترفة ٧٤- الزيادة الباهظة فى الضرائب ٧٥- شقاء الجمهور ٧٥- بين غنى مطغ وفقير منس ٧٥- تصوير الجاهلية ١١١

٧٧- الباب الثانى من الجاهلية إلى الإسلام

٧٧- الفصل الأول : منهج الأنبياء فى الإصلاح والتغيير

- ٧٨- نواحى الحياة الفاسدة ٧٩- لم يكن الرسول رجلا إقليميا أو زعيما وطنيا ٨٠- لم يبعث لينسخ باطلا بباطل ٨٠- قفل الطبيعة البشرية ومفتاحها ١١٩ .

٨٢- الفصل الثانى : رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام .

- ٨٢- دفاع الجاهلية عن نفسها ٨٢- فى سبيل الدين الجديد ٨٣- التربية الدينية ٨٤- فى مدينة الرسول ﷺ وقع فى تاريخ البشر ٨٤- انحلت العقدة الكبرى ٨٥- اغرب انقلاب وقع فى تاريخ البشر ٨٦- تأثير الإيمان الصحيح فى الأخلاق والميول ٨٧- وخز الضمير ٨٨- الثبات أمام المطامع والشهوات ٨٩- الأنفة وكبر النفس ٨٩- الاستهانة بالزخارف والمظاهر الجوفاء ٩٠- الشجاعة النادرة والاستهانة بالحياة ٩١- من الأنانية إلى العبودية ٩٣- المحكمات والبيئات فى الإلهيات ١٣٩ .

٩٤- الفصل الثالث : المجتمع الإسلامى .

- ٩٤- طاقة زهر ٩٤- ليس منا من دعا إلى عصبية ٩٥- كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ٩٥- لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ٩٦- حلول الرسول محل الروح والنفس من المجتمع ٩٧- نواذر الحب والتفانى ٩٩- عجائب الانقياد والطاعة ١٥٠ .

١٠٢- الفصل الرابع : كيف حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية

١٠٤- كتلة بشرية متزنة ١٥٨ .

١٠٥- الباب الثالث : العصر الإسلامى

١٠٥- الفصل الأول : عهد القيادة الإسلامية

١٠٥- الأئمة المسلمون خصائصهم ١٠٩- دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة

١١٠- تأثير الإمامة الإسلامية فى الحياة العامة ١١٣- المدنية الإسلامية وتأثيرها فى الاتجاه

البشرى ١٧٤ .

١١٩- الفصل الثانى : الانحطاط فى الحياة الإسلامية .

١١٩- الحد الفاصل بين العصرين ١١٩- نظرة فى أسباب نهضة الإسلام ١٢٠- شروط

الزعامة الإسلامية ١٢٠- الاجتهاد ١٢١- انتقال الإمامة من الأكفاء ١٢٢- تحريفات الحياة

الإسلامية ١٢٢- فصل الدين عن السياسة ١٢٢- النزعات الجاهلية فى رجال الحكومة

١٢٣- سوء تمثيلهم للإسلام ١٢٣- قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة ١٢٤- الضلالات والبدع

١٢٥- إنكار الدين على المسلمين وإهانتهم بهم ١٢٥- حسن بلاء العالم الإسلامى فى القرن

السادس ١٢٩- فقر القيادة فى العالم الإسلامى بعد صلاح الدين ١٢٩- نتائج القرون المنحلة

١٢٩- انهيار صرح القوة الإسلامية ٢٠٤ .

١٣١- الفصل الثالث : دور القيادة العثمانية

١٣١- العثمانيون على مسرح التاريخ ١٣١- تفوق محمد الفاتح فى فن الحرب

١٣٢- مزايا الشعب التركى ١٣٤- انحطاط الأتراك فى الأخلاق وجمودهم فى العلم وصناعة

الحرب ١٣٥- الجمود العلمى فى تركية ١٣٧- الانحطاط الفكرى والعلمى العام

١٣٨- معاصرو العثمانيين فى الشرق ١٣٩- نهضة أوروبا الجاهلية وسيرها الخبيث فى علوم

الطبيعة والصناعات ١٣٩- تخلف المسلمين فى مرافق الحياة ٢١٩- تخلفهم فى صناعة

الحرب ٢١٩ .

(٢٦٠ / ماذا خسر العالم / دار الإيمان)

١٤١- الباب الرابع : العصر الأوروبي

١٤١- الفصل الأول : أوروبا المادية

١٤١- طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها ١٤٢- خصائص الحضارة الإغريقية
١٤٥- خصائص الحضارة الرومية ١٤٨- الانحطاط الخلقي في الجمهورية الرومية ١٤٩- تنصر
الروم ١٤٩- خسارة النصرانية في دولتها ١٥٠- الرهبانية العاتية ١٥١- عجائب الرهبان
١٥٢- تأثير الرهبانية في أخلاق الأوروبيين ١٥٢- عجز الرهبانية عن تعديل المادية الجامحة
١٥٤- بين الرهانية العاتية والمادية الجامحة ١٥٤- الفساد في المراكز الدينية ١٥٥- تنافس البابوية
والامبراطورية ١٥٦- شقاء أوروبا برجال الدين ١٥٦- جنابة رجال الدين على الكتب الدينية
١٥٧- اضطهاد الكنيسة للعلم ١٥٨- ثورة رجال التجديد ١٥٨- تقصير الثائرين وعدم تثبتهم
١٥٩- اتجاه الغرب إلى المادية ١٥٩- افتضاح المادية في الدور الأخير ١٦٠- جنود المادية
ودعاتها ١٦١- نسخة صادقة من الحضارة اليونانية ١٦١- ديانة أوروبا اليوم المادية لا النصرانية
١٦٥- مظاهر الطبيعة في أوروبا ١٦٨- الغايات المادية للحركات الروحية والعلمية
١٦٨- التصوف المادي ١٧٠- نظرية دارون وتأثيرها في الأفكار والحضارة ١٧١- إقبال الجمهور
على نظرية الارتقاء .

١٧٢- من جنابات المادية ٢٧٥ .

١٧٢- الفصل الثاني : الجنسية الوطنية في أوروبا .

١٧٤- انكسار الكنيسة اللاتينية سبب قوة العصبية والقومية والوطنية ١٧٥- طوائف
العصبية الجنسية في أوروبا ١٧٦- عدوى الجنسية في الأقطار الإسلامية ١٧٨- الديانة القومية
الأوربية وأركانها ١٨٠- الحل الاسلامي لمعضلة الحروب والمنافسات الشعبوية ١٨٣- دعاية
القوميين وإضرارهم بالشعوب الصغيرة ١٨٣- مطامح الدول الكبيرة ١٨٤- منافسة الشعوب في
المستعمرات والأسواق ١٨٦- الفرق بين حكم الجباية وحكم الهداية ٢٩٩ .

(٢٦١ / ماذا خسر العالم / دار الإيمان)

١٨٨- الفصل الثالث : أوروبا إلى الانتحار .

١٨٨- عصر الاكتشاف والاختراع ١٨٨- الغاية من الصناعات والمخترعات وموقف الاسلام منها ١٩٠- إنمائها أثر كم معكم ١٩١- التخليط بين الوسائل والغايات ١٩١- عدم تعادل القوة والأخلاق في أوروبا ١٩٢- قوة الآلهة وعقل الأطفال ١٩٣- ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ١٩٦- أوروبا في الانتحار ١٩٧- القنبلة الذرية وفضائعتها ١٩٨- والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ٣٠- .

٢٠١- الفصل الرابع : رزايا الإنسانية المعنوية في عهد الاستعمار الأوروبي

٢٠١- بطلان الحاسة الدينية ٢٠٣- ما لجراح بميت ابلاد ٢٠٥- زوال العاطفة الدينية ٢١١- طغيان المادة والمعدة ٢١٥- التدهور في الأخلاق والمجتمع ٣٤٨- .

٢٢٥- الباب الخامس : قيادة الإسلام للعالم

٢٢٥- الفصل الأول : نهضة العالم الإسلامي

٢٢٥- إتجاه العالم بأسره إلى الجاهلية ٢٢٦- استيلاء الفلسفة الأوروبية على العالم ٢٢٦- الشعوب والدول الآسيوية ٢٢٨- الحل الوحيد للأزمة العالمية ٢٢٩- العالم الإسلامي على أثر أوروبا ٢٢٩- المسلمون على علاقتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل ٢٣٢- رسالة العالم الإسلامي ٢٣٤- الاستعداد الروحي ٢٣٦- الاستعداد الصناعي والحربي ٢٣٧- تبوء الرعامة في العلم والتحقيق ٢٣٨- التنظيم العلمي الجديد ٣٩٠- .

٢٤٠- الفصل الثاني : زعامة العالم العربي

٢٤٠- أهمية العالم العربي ٢٤٠- محمد رسول الله ﷺ روح العالم العربي ٢٤١- الإيمان هو في قوة العالم العربي ٢٤٢- تضحية شباب العرب قطرة إلى سعادة البشرية ٢٤٦- العناية بالفروسية والحياة العسكرية ٢٤٨- محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغنى والصلعوك ٢٤٨- التخلص من أنواع الأثرة ٢٥١- إيجاد الوعي في الأمة ٢٥٣- استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها ٢٥٣- تقدم مصر في ميدان الصناعة والتجارة والعلم ٢٥٣- رجاء العالم الاسلامي من العالم العربي ٢٥٤- إلى قمة العالمية ٢٥٦- الفهرس ٤٢٤- .

(٢٦٢ / ماذا خسّر العالم / دار الإيمان)